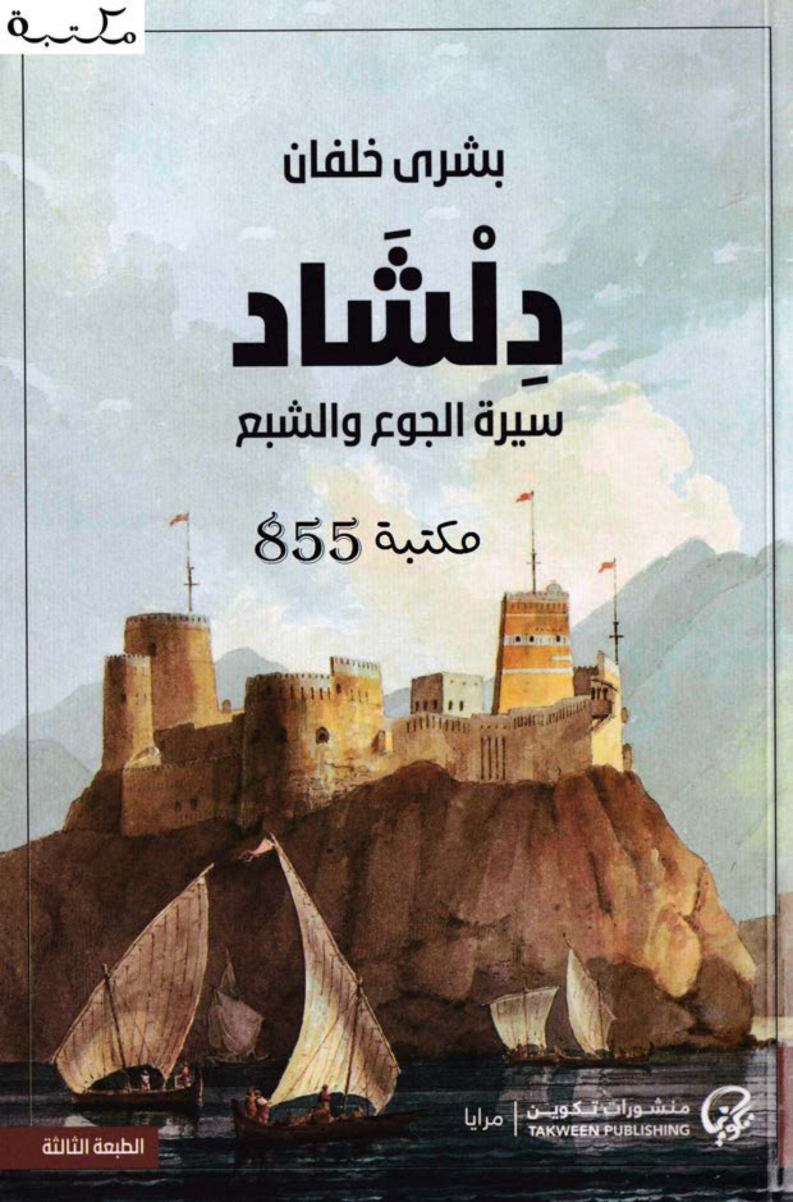
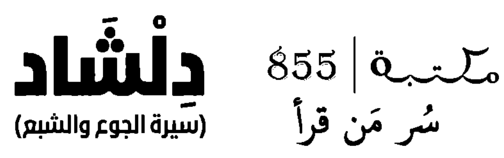

مكتبة
بشرى خلفان
دِلْشَاد
سيرة الجوع والشبع
مكتبة 855
منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا
الطبعة الثالثة


مكتبة 855
سُر مَن قرأ
دِلْشَاد
(سيرة الجوع والشبع)

الكاتب: **بشرى خلفان**

عنوان الكتاب: **دِلْشَاد (سيرة الجوع والشبع)**

تدقيق ومراجعة لغوية: وليد النبهاني

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-723-77-9

الطبعة الأولى - فبراير/ شباط - 2021 - 2000 نسخة

الطبعة الثانية - مارس ـ آذار - 2021 - 2000 نسخة

الطبعة الثالثة - حزيران/ يونيو - 2021 - 2000 نسخة



الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
@takween_publishing
@TakweenPH
www.takweenkw.com

بشرى خلفان



منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

اِنتبهوا!

إن ما يحدث في الصفحات التالية،

لم يحدث إلا في مخيلة الكاتبة،

وسيحدث من الآَن فصاعدًا في مخيلتكم!

أمَّا الأسماء فقد تتشابه، ولكن دون قصد أو نية...

لوغان

دلشاد



حلفتْ أمي أني خرجت من رحمها وأنا أضحك، وأنها أسمتني فرحان كي أعاكس شؤم ولادتي لأب ملعون، قتله العطش وهو يبحث عن حبله السريِّ تحت سمرة مشؤومة في سيح المالح.

ولدتُ داخل خيمة، على الضفة الشرقية لحافة الوادي الكبير، وكبرت في ظل خيمة أخرى على الضفة الغربية منه.

تسابقت مع عيسى وحسين ونورية على خيول مصنوعة من كرب النخيل، وأطلقت صيحاتي العالية، بلغة هي خليط من كلمات الطفولة ولعنات الكبار وشتائم أمهاتنا.

معهم كنت أتعارك، وبسببهم كانت جبهتي تُشجُّ بالحصى الذي يقذفه علينا أطفال الحارات المجاورة، ومعهم كانت تكبس جراحي المفتوحة بالتراب فيتوقف خيط الدم.

تسلقت معهم سور زريبة البانيان، وبعيدًا عن أنظارهم سرقت تمرات فاسدة من طعمة البقر، والتهمتها دون أن يشعر بي أحد.

معهم كانت ما حليمة تعاقبني وتضربني، ومثلهم تمامًا كنت أريد أن أنام قريبًا منها.

لكنني قبيل المغرب كنت أتركهم عائدًا إلى حارتي حيث كان الجميع ينادونني بود السيح، فأستجيب، دون أن أعرف من يكون هذا السيح الذي ورثتُ اسمه، إلا أنني قَبِلته، كما قَبِلت غياب أبي.

قالت لي أمي إن أبي مات قبل ولادتي بأشهر، وإنه بذلك توقف عن سقي أهل مسقط كلهم، وإن ماء «طوي النل» شابته الملوحة منذ أن وجد بعض الرعاة بقايا جثته، منكبًّا على وجهه، تحت سمرة في «سيح المالح»، ولم يعرفوه إلا من حبل ليف اعتاد أن يتخصَّر به.

لكن من يصدق أمي؟! إذ ذهبت بنفسي حين كبرت إلى طوي النل، فوجدت ماءها حلوًا، ولم يتذكر أحد أنه كان لي أب.

لم أفهم معنى ود السيح حتى كبرت، وميَّزتُ النبرة التي يُنطَق بها، وتعاركت مع سعيد بن ناصر بسببه، وبسببه تكالب عليَّ الصبية الآخرون، وأوسعوني لكمًا ورفسًا، وألقوا بي أمام الخيمة، والدماء تسيل من أنفي وفمي. كانت أمي تراقبهم، لكنها لم تتدخل فتمنعهم عني، أو حتى تأخذ حفنة تراب فتكبس بها جراحي بعد أن انتهوا مني.

لهذا فكرت أنه وبعد أن تموت أمي، وكنت أنتظر ذلك بفارغ الصبر، سأنتقل للعيش مع ما حليمة، وسأتزوج نورية وسأصبح بلوشيًّا مثلهم. فلقد وجدت كل الكلمات التي تعلمني إياها نورية

جميلة، وكل كلمات الشتيمة التي يعلمني إياها عيسى وحسين -عندما يكونان غاضبين- مفيدة جدًا.

لكن أمي لم تمت وأنا صغير، فكبرتُ في خيمتنا التي كانت بالكاد تتسع لنا وسحارة صغيرة من الخشب، وكبرت في اسمي، الذي صار يثقل مع الأيام أكثر، وصار السيح الذي لم أعرف مكانه ومعناه، أشد وطأة وأكثر هلاكًا.

كنت ابن ست سنوات ربما عندما وجدت أمي ميتة، فاضطررت إلى البكاء عليها إذ لم أجد أحدًا آخر يفعل ذلك بدلًا مني.

وبعد أن دفنوها وتفرقوا إلى خيامهم، بقيت في خيمتنا وحدي، أنا وسحارة أمي التي كانت خالية إلا من وقاية صفراء وحُقٍّ فيه بقايا مَحْلب، كانت تدهن به جبينها كل صباح قبل أن تخرج للماء.

أدخلت سبابتي في الحُق، وأخذت مسحة من الدهان الغليظ وقرَّبْته من أنفي. كانت رائحة أمي فعلًا، رائحة شعرها الذي ألتصق به وأنا نائم خلفها، رائحتها وهي تمخض الحليب، رائحتها وهي تعود بوقايتها مبتلة بالماء من عند الآبار، رائحتها وهي توري النار، رائحتها وهي تصرخ وتلعن الدنيا وأهل الحارة وأنا. ثم شعرت بثقل لعناتها كله يهبط على قلبي، فيرتفع فجأة مع موجة ضحك هائلة تخضُّني خضًّا.

لا أعرف كم بقيت أتمخض على الأرض من شدة الضحك، ولا أعرف إن كانت ضحكتي قد تناهت إلى أذن أحد، لكنني

غالبت نفسي وقمت، نفضت ضحكاتي ولعنات أمي وشتائمها على الأرض فتعفَّرت بالتراب ثم تلاشت.

ذهبتُ إلى حلة الشيخ، وقلت لما حليمة إن أمي ماتت، وإني أريد الزواج بنورية، والعيش في خيمتهم. لكن ما حليمة قالت لي إني لن أستطيع الزواج بنورية، لأننا إخوة، ولن أستطيع العيش في خيمتهم، لأنها صغيرة جدًّا، وإن عليَّ العودة إلى حارتي، لأنني ولد عرب.

ما حليمة

لا أعرف أي امرأة كانت فضيلة بنت بطي، لكنني لن أغفر لها ما فعلته بذلك الطفل، الذي كان قد تعلم المشي لتوِّه، فصار يتبعها مترنحًا على حجر الوادي، عاريًا لا تستره حتى خرقة بالية.

تقطع الدرب أمام خيمتي كل يوم قرب الضحى، وتمضي بوجهها المدهون بالصندل والمحلب، مُلتفَّة بوقايتها الصفراء، متهادية في مشيتها، وهي تحمل هاندوتها على خاصرتها، فتميلها وتميل معها، وكأنها جل بيبي بنت شاه نواز، أو وكأنه لم يمشِ على تراب الأرض غيرها.

كنت أراقبها وأنا جالسة أمام الخيمة أغسل المواعين أو أجرش الملح، فأرى ذلك الصغير الباكي بمشيته المترنحة، وهو يحاول اللحاق بها مادًّا ذراعيه دون فائدة، وعندما يغلبه التعب، يجلس على صخرة صغيرة قرب خيمتنا، ويبدأ في البكاء، وتتصاعد حشرجاته حتى تعود. وهي لم تكن تهتم، ولم تكن تتفقده ولو حتى بنظرة، بل كانت تمضي دون أن تلتفت، وكأنه ليس ابنها، أو وكأنها كانت

تفضّل لو أنه يتحول إلى حصاة مثل تلك التي كان يقعي فوقها ويبكي.

لم أكن أحتاج إلى حمل همٍّ غيري، فعندي ما يكفي منه وزيادة، لكنه سقط، سقط أمامي من فوق تلك الصخرة، فهرعت إليه، ظانة أن الشمس والبكاء قد أهلكاه.

أخذته في حضني، وسقيته شربة ماء، ومسحت بكفي الرطب على وجهه، فرُدَّت إليه الروح. دون أن أشعر ألقمته صدري، فرضع منه حتى شبع، ثم نظر إلى عيني وكركر قليلًا، ثم أغمض عينيه ونام.

وفي طريق عودتها أوقفتُها، وأخبرتها عمَّا حدث للولد، فدخلتْ الخيمة وانتزعته من نومه، وجرَّته وراءها وهو يتخبط في بكائه.

لكنه عاد وتبعها في اليوم التالي، ثم جلس أمام الخيمة، على تلك الصخرة نفسها، ونظر إليَّ بعينيه الكبيرتين، دون أن يتحرك، واكتفى بمراقبتي وهو يلعب بالتراب العالق بين أصابعه الصغيرة، ويرتشف مخاطه الذي كان يسيل على شفتيه. سمعت أمي زليخة وهي تغني:

ما روا راهو ره سري نداه

بيشوكا سنداه ما سوجا بنداه

بلكي ماوتي دوستا جنداه

أجلس عند الدرب منتظرًا

أغزل خوص النخيل وأنكثه

علَّ حبيبي يعود

حاولت تجاهل وجوده، ودخلت خيمتي لأرضع نورية، وما إن سكتتْ ونامتْ، إذا به ورائي، اقترب مني وتلمَّس صدري، وارتجفت شفتاه، فأرقدته في حضني، وكشفت له عن ثديي الآخر، وما إن شبع، حتى بدأ في الكركرة.

صار يفعل ذلك كل يوم، يطلق كركراته حين يشبع، ثم ينام. قالت لي أمي العمياء إن لهذا الولد قلبًا فرحًا، فأسمته «دلشاد».

أعجبني اسم «دلشاد»، فصرت أناديه به، وصار عيسى وحسين ونورية ينادونه به أيضًا، ثم تعلمه الصغار في الحارة فأشاعوه، وصارت كل الحارة تناديه به، أما أمه فلم أسمعها تناديه قط، بل تركته مثل هوامِ الأرض يمضي بلا اسم.

كبر دلشاد على حليب صدري وأمام عيني، وهو يلعب قُدَّام الخيمة مع عيسى وحسين ونورية، وعندما فطمتُه صرت أسقيه كما أسقي أولادي من حليب البقر الذي أشتريه من نساء حارة الراوية.

لكني لن أكذب، لقد كان زيادةَ همٍّ على هم أولادي، وتلك المرأة الضالة، لم تقف مرة واحدة لتسأل عنه، مع ذلك كان يعود إليها كل مساء وينام في خيمتها.

كبر دلشاد وصار رغم قذارته، صبيًّا حلوًا بعينين كبيرتين

ومبسم اكتملت أسنانه، تسبقه ضحكته، فينشرح له القلب حتى إن حاولت صده.

وفي صباح أحد الأيام، جاء إلى خيمتي راكضًا، وهو يصرخ ويقول إن أمه ماتت، فهرعت إليها، ووجدناها ميتة في خيمتها والناس قد تحلَّقوا حولها.

لم يعرف أحد كيف ماتت فضيلة بنت بطي، فبعضهم قال إنها ماتت من لدغة أفعى تسللت إلى خيمتها، وبعضهم قال إنها وجدت ميتة بعيدًا في بطن الوادي، فسحبها بعض الرجال وألقوا بها داخل خيمتها، وبعضهم قال إنها كانت مصابة بالحمى لأيام، وإنها رفضت أخذ الدواء الذي أعطته إياها ما سعدة زوجة با محمد بن سويلم، أما دلشاد فقال إنه عندما استيقظ وجدها مكفية على وجهها دون حراك.

دفن الرجال فضيلة بنت بطي في المقبرة الغربية، عند جبل خلالوهْ، وأظن أن دلشاد بكى كثيرًا عليها، فعندما جاء إلى خيمتنا عند الظهر، كان على خديه خيطان يابسان من الدموع، يشقان طبقات الغبار المتراكم عليهما.

عند باب الخيمة وقف منهكًا من البكاء والشمس والجوع، ثم تقدم إليَّ، وطلب بعينين متوسلتين وفم مرتجف، أن يتزوج نورية وأن يبقى معي، هنا في هذه الخيمة.

لم أستطع إلا أن أبتسم، ثم قلت له إنه ولد عرب وعليه أن يبقى هناك. لكنه بكى وكرر أنه يريد الزواج بنورية، فيصبح بلوشيًّا

مثلنا. يالعقل الصغار! لا يعرف أن نورية أخته، وأن الزواج لن يجعل منه بلوشيًّا أبدًا.

حاولت إفهامه ذلك، لكنه صار يخبط برجله الأرض ويبكي.

تلمَّست أمي العمياء الأرض، وحَبتْ على أربعها حتى وصلت عنده، ولَّما وجدت قدميه، تسلقت أصابعها جسده حتى وجدت ذراعيه فشدَّته منها، وسحبته وأجلسته إلى جانبها، «ما بتروح مكان، بتجلس هنا معي... خليه حليمة... خليه... يتيم ما له حد... بينفعنا».

وكان لأمي ما أرادت، وكان لي حمل همٍّ دلشاد حتى آخر عمري.



دلشاد

كنا نحن الأربعة بلا أب، فعبد الرسول الذي كان أبا عيسى وحسين ونورية، لم نعرفه إلا في كلام أمهاتنا. وأخبرتنا ما حليمة ونحن نتحلق حول نارها، التي تطبخ عليها الكثير من الماء والقليل من السمك، بأنه رحل إلى جواذر ليزور أمه، ولم يعد مرة أخرى إلى مسقط.

لكن كان لعبد الرسول منافع كثيرة حتى في غيابه، فكانت ما حليمة تهدد به عيسى وحسين، عندما تريد أن تمنعهما عن مرافقة أولاد السوء، الذين يسرقون بيض الدجاج من خُمِّ ما حميدة في حارة الراوية، أو يسطون على كرات جبن خاتون أحمد في حارة الزدجال، وتقول لهم، إذا ما زادت شكوى الناس منهم: «حاجي قمبر بيروح جواذر قريب، وبيخبر أبوكم كل شيء، بعدين بتعرفوا الأدب». وكان هذا التهديد يخيفنا كلنا، رغم أننا لم نعرف رجلًا يدعى حاجي قمبر، لا في حارتنا ولا في الحارات القريبة.

وكانت تُصبِّر برؤيته نورية، وتقول لها عندما تسألها عنه، إنه

أجمل من سهراب، وإنه أضخم رجل في العالم، وإنه قوي جدًّا حتى يكاد يحمل جبال مسقط على كتفيه، وإنه شجاع وقادر على هزيمة جيش كامل بمفرده، وإنه سيعود ذات يوم، وسيحضر لها خرزًا ومرايا وخيوطًا ملونة.

أما أبي أنا فلم يوجد على ما يبدو إلا في غضب أمي، عندما كانت تطلق لعناتها عليَّ وعلى الدنيا وعلى ابن الحرام، الذي زوَّجها أبوها إياه حتى يضمن لها الستر، ثم فعلها ومات، وتركها بلا ستر، وبفمٍ نهم تجتهد كي تبقيه حيًّا.

وهكذا تَربَّينا نحن الأربعة، على آباء غائبين وأمهات حاضرات، بخيرهن وشرهن، لكنهن ضمنَّ لنا نزر الطعام الذي سيمنع الموت عنا، أو يؤجله حتى حين.

كانت خيمة ما زليخة مصنوعة من سعف النخيل كباقي الخيام في تلك الحارة، بها فجوات كثيرة تملؤها بالطين اليابس، وكنا نكنُّ في داخلها إذا ما برد الهواء في مسقط، ونخرج إلى الدعن المنصوب أمامها إذا ما حمي القيظ.

من الخيمة كانت تفوح روائح كل شيء، بدءًا من أجسادنا، إلى بقايا السمك الذي يسكب ماء غليه وراءها، وروائح المزابل التي تحاذي الخيام، ورائحة المغابير التي يشعلها أهلُ النخيل، لإطعام ثيرانهم في المزارع القريبة، ويحملها الهواء متى ما هبَّ من ناحية البحر.

لكن تلك الخيمة على صغرها، كانت تتسع لأجسادنا المتراصة،

نحن الصبيان الثلاثة في طرف، ونورية التي تنام بين ما حليمة وما زليخة في طرف آخر.

وقبل الفجر بكثير كان الجميع يستيقظ، ولكننا كنا، وحتى قبل أن نفتح أعيننا، نعرف أشغال اليوم التي تنتظرنا، فنمضي إليها ببطون خاوية، وعيون نصف مغمضة، يكاد يعميها القذى.

كان عيسى يعمل حمَّالًا في السوق، فيترك الحارة بعد الفجر ولا يعود إلا بعد صلاة العصر. وكان حسين يعمل في لمِّ القمامة، فيدور على حارات بطن الوادي قبل الفجر، فيجمع القاذورات وبقايا السمك المرمية وراء الخيام، ويغيب بها في بطن الوادي على عربة خشبية يجرها، بعيدًا بين الجبال، حيث يرمي حمولته ثم يعود.

أما أنا، أصغرهم، فكانت ما حليمة تكلفني بتوزيع حليب البقر الذي تشتريه من عند البانيان، ثم تغليه في مرجل ضخم، وتبيعه على بيوت أثرياء مسقط في ولجات خلف السور.

لكني لم أكن أحصِّل ثمن ما أوزعه، بل عيسى، يمر على تلك البيوت مرة واحدة في الشهر، يأخذ البيسات المتفق عليها مقابل توصيلي للحليب، فهو الأكبر والأقوى، ولن يجرؤ أحد على مهاجمته وسرقته، أما أنا فصغير ضعيف، وسيستفردون بي، أو هكذا فسرت لي ما حليمة الأمر.

نورية كانت من عمري وفي مثل طولي، وكانت ترافقني أحيانًا إلى بيوت ولجات، وكنا نستغل الطريق في الضحك واللعب والتلصص على بريستات الآخرين وخيامهم على جانبي الوادي.

وعندما نعود عند الضحى، ترسلها أمها إلى الآبار العلوية لجلب الماء، أو تعلمها صناعة كريات الجبن ونقش البالوار، أو تجلسها بين رجليها لتمشط لها شعرها الطويل. أما أنا فكنت أفعل ما تفعل نورية، فأرافقها وأساعدها في نزف الماء من البئر، أو أجلس إلى جانبها في ظل خيمتنا، وأكور معها الجبن، ثم نضع الكريات في الشمس حتى تجف، وأبقى عنده لأحرسه بعين يقظة خوفًا من هجوم قطط الحارة، وأحيانًا أتسلى معها بتصفيف الخيوط، أو أجلس لأراقب ما حليمة، وهي تجلسها بين رجليها وتفلِّيها وتمشط شعرها وتضفره لها.

وعندما أملُّ من كل ذلك، كنت أذهب إلى النخيل، أذهب وحدي، فأغوص بين أغصان البرسيم وأستلقي هناك، أراقب تمايل سعف النخيل، وفي القيظ كنت أُمنِّي نفسي ببعض الرطب، لكني لم أجرؤ يومًا على تسلق أي نخلة أو اختلاس تمرة من عذوقها، فعيون البيادير كانت في كل مكان، وأيديهم التي مثل كرب النخيل لا ترحم أحدًا.

كنت صبيًّا قويًّا، سريع الحركة، ومتأهبًا دائمًا لفعل ما يطلب مني، ولأني أخاف ما حليمة، لم أكن أتكلم عن الجوع، بل كنت أعتبر قرصة بطني شيئًا طبيعيًّا، مثل الظلام ودبيب القمل ورائحة المزابل، وكنت أعتبر الدُّوَار الذي يعتريني أحيانًا عندما يمضي اليوم كله دون أن أجد ما آكله، شيئًا ممتعًا، مثل المشي في الأحلام، فلا أنا هنا ولا أنا هناك، ولا أنا في أي مكان.

لكن عندما كانت أبخرة الجوع ترتفع إلى رأسي وتغيم الدنيا في

عيني، فإن قرصة الجوع تلك، كانت تثير ضحكي، وتجعلني أتقلب على حصى الوادي دون أن أشعر بحرارته، وفي المرات النادرة التي نشبع فيها ولو نصف شبع، كنا نبات متململين، ممتلئين بالغازات والأدخنة الصفراء.

كانت ما حليمة تتضايق من ضحكي، وتعتبره نذير شؤم، خاصة إن طال أو إن كنت قد تناولت بعض التمر في الصباح، إذ يبدو أنها كانت تظن أن الجوع وحده سبب مقبول للضحك. لكن ضحكي لم يكن بحاجة إلى سبب، فكثيرًا ما كنت أجدني، وأنا عائد بأوعية الحليب الفارغة، وقد استلقيت على قفاي في بطن مجرى الوادي، غارقًا في رجَّات متوالية، دون سبب إلا صوت احتكاك أوعية المعدن بعضها ببعض، فذلك الصوت الحاد، كان يشبه صوت مصاريني عندما أكون في شدة الجوع. وأحيانًا كنت أتعثر بضحكاتي في ضواحي النخيل، وأنا أراقب حركة زمبور مهبول، لا يتوقف عن تحريك أجنحته والاختفاء بين أعواد البرسيم.

بسهولة كانت الأشياء تضحكني، خاصة تلك التي لا أفهمها حقًّا، وحتى عندما تضربني ما حليمة بين كتفيَّ لأني ضحكت في غير مكان الضحك، كنت أكمل ضحكي، بل إن الضربة قد تزيد منه، وإن اختلطت بالدموع أحيانًا.

كبرت وأظن أني صرت آكل أكثر من ثلاث تمرات في الصباح، فطلبتْ أمهاتي مني مغادرة الخيمة، قلنَ إني طلتُ واستويت رجلًا،

وما عادت الخيمة تتسع لي. فنظرت إلى عيسى وحسين اللذين طالا أكثر مني، مع ذلك بقيا هما في الخيمة وخرجت أنا.

كانت عائلة أولاد الجرف، تسكن كهفًا في تلٍّ خلف الحارة، لكنهم انسلوا من كهفهم وسكنوا في خيمة أمي بعد وفاتها، ولم أكن لأخرجهم منها حتى لو حاولت، فقد كانوا أربعة: طفلين وأمًّا وأبًا، وأنا لم أكن قد وصلت إلى عند خصر أبيهم، فتركت لهم الخيمة، دون أن أحاول المطالبة حتى بسحَّارة أمي.

وعندما لم أجد مكانًا آخر لأعود إليه، تعهدت لدارماداس، حارس معبد البانيان، بأني سأحرس البقر في زريبة المعبد، وسأهتم بالتخلص من روثها، مقابل المبيت بينها. فتردد مدة ثم وافق، وأظن أن ما حليمة كلَّمته في ذلك.

كانت زريبة بقر البانيان، في طرف حارة الراوية، وبينها وبين معبد الهندوس مسافة قصيرة، ربما كانت مائتي خطوة لا أكثر، وكان دارماداس يأتي كل صباح فيطمئن على البقرات، ثم يغيب في مهامِّه داخل المعبد، فيقدم النذور لفيشنو وشيفا، وينظف المكان، ويحرص على ألا تذبل أطواق الياسمين، التي يعلقها الزوار على رقابها.

لكن البقر أيضًا كانت تثير ضحكي بخوارها، وبعيونها التي تظل تحدق إليَّ بتراخٍ ولا مبالاة، ودارماداس نفسه كان يثير ضحكي بثيابه الغريبة، وإزاره الذي لا أفهم كيف يربطه ولا كيف يحلُّه، وكان هذا يزعجه، لكنه مع ذلك قبل بي، رغم أنه نبهني إلى أن ضحكي

قد يقتلني ذات يوم. لكن كلامه زاد من ضحكي، وأنا أتخيل موتي بسبب قهقهاتي، فضحكتُ وتقلَّبت على أرضية الزريبة، وتمرغت في بقايا طعمة البقر.

لم أتوقف عن زيارة خيمة ما حليمة، أو اللعب مع عيسى وحسين ونورية، ولم تتوقف ما حليمة عن طردي. إلا أن الكوليرا جاءت، وأخذت معها نورية وحسين وما زليخة.

قالوا إنها جاءت من الهند عبر البحر، وإن السلطان منع نزول البحارة والركاب، وخروج أي أحد من مسقط أو الدخول إليها. لكن الكوليرا لم تهتم بكل ذلك، فوجدت طريقها إلى حارتنا المندسة بين الجبال، وأخذت منا ومن مسقط ما أخذت ثم رحلت، وتركت لنا العمل على حفر قبور جديدة، وتنظيف الخيمة من قيء نورية وحسين وما زليخة.

لم أفهم مطلقًا كيف لم تأخذنا نحن الذين تعقبنا خلفهم، رغم أننا كنا معهم، في الحارة نفسها، بل في تلك الخيمة البائسة نفسها، ونشرب من الماء نفسه، ونتغوط مثلهم في بطن الوادي عند الفجر.

لم أفهم لماذا أخذت نورية التي كانت ترافقني إلى كل مكان، وتقاسمني كل شيء، وتعتمد عليَّ في تنفيذ أشيائها الصغيرة.

ولم أفهم لماذا أخذت ما زليخة التي كانت تحكي لي حكايات غريبة عن بلاد بعيدة تسميها أرض الفرسان الشجعان وأحيانًا تقول مكران، وعن جنجل جنجلان التي لها سبعة أسود وسبعة إخوة.

ولماذا أخذت حسين الذي كان يحملني على ظهره وأنا صغير، ويركض بي نحو النخل، ويعود بي قافزًا على حصى الوادي وأنا أضحك، ويعلمني كيف أتزحلق على مزاحيط الجبل مع الشياه، دون أن تجرح ساقي.

لماذا أخذتهم الحُمَّى وتركت عيسى وما حليمة يبكونهم لأيام عديدة؟ ولماذا لم تأخذني أنا؟ أنا الذي بلا أم تبكيه ولا أهل يتفقدونه ولا رفقة غير دارماداس وبقره.

شعرت بزريبة البانيان تضيق عليَّ، حتى كدت أختنق من رائحة روثها ومن الحزن. لكن بعد أيام جاءت ما حليمة، وطلبت مني العودة إلى خيمتها، فالدنيا صارت أضيق من أن تحتمل، وخيمة ما حليمة صارت أوسع من أن تطيقها، وعيسى صار بحاجة إلى أخ يستند إليه ويقتسم معه العمل والجوع والوجع.

لم أكن في طول عيسى أو قوته، لكن ظهري كان يتحمل حمولات هائلة من الروث، إلا أن رائحة روث بقر دارماداس كانت تتنقل معي أينما ذهبت، وكانت ما حليمة تغطي فمها وأنفها بطرف وقايتها كلما دخلتُ عليها، وتطلق عليَّ سيلًا من الشتائم، ولطالما أمرتني بأن أستحم، على الأقل مرة في الأسبوع في طوي الزبادية، وأنا لم أكن أحب الماء كثيرًا، ولم أكن أشمُّ في نفسي ما يدعو إلى ذلك، إلا أني أردت أن أريح ما حليمة من رائحتي، فطلبت من عيسى أن أعمل معه في عتالة السوق الخارجي، وتركت زريبة البقر ورائحتها لدارماداس.

ما حليمة

كنت حاملًا بنورية، عندما قرر عبد الرسول أن يرحل إلى جواذر لزيارة أمه. قال لي إنه رآها تبكي في الحلم، وإنه يشعر في قلبه بأنها مريضة. أشرت إلى بطني، لكنه تجاهل إشارتي، وعندما ألححت عليه بالبقاء، قال لي إنه لن يتأخر كثيرًا، وإنه إذا وجد كل شيء على ما يرام، فسيأتي ويأخذنا كلنا معه، إلى هناك، إلى الوطن، إلى بلوشستان، وإن كان الوضع سيئًا، فسيجلب أمه معه فتعيش بيننا، في مسقط، هنا في هذه الخيمة.

أنا لا أتذكر متى جئنا إلى مسقط، لكن أمي تتذكر، وهي التي أخبرتني كيف انضم أبي إلى العسكر في أول عهد السلطان تركي بن سعيد، وكيف حملتنا السفينة من جواذر إلى مسقط، وكيف اجتزنا عاصفة كادت أن تقلب السفينة فتُغرِق كل من عليها، وكيف أني لم أبكِ طوال العاصفة، بل استغرقت في نوم هادئ، حتى سكنت الريح وهمد الموج، فتعالى صياحي ثانية.

قالت لي أمي إنه وقبل أن أتمَّ الحول، كان أبي قد ذهب إلى

الحرب مع السلطان ولم يعد، فاضطرَّت كما الأخريات إلى الزواج، وتزوجت رجب داد الله.

وعندما كبرتُ وجدت نفسي أعيش في هذه الخيمة، بين رجب داد الله وأمي زليخة، ثم أنجبت أمي أخًا لي سموه غلام.

بعد أن سافر عبد الرسول بأيام انتشرت الكوليرا في مسقط، قيل إنها جاءت من جواذر عبر البحر، وإنها كادت أن تقتل كل بلوش مكران، فعرفت أن عبد الرسول لن يعود.

مات كثيرون في حارات مسقط، داخل السور وخارجه، لكن الذين ماتوا خارج السور كانوا أكثر بكثير، عرفت منهم دوشامبيه صومار، أحمد لال بخش، من حارة الزدجال، نصروهْ بنت سعيد، وسالمين بن محمد من الراوية، ومن لوغان شريفة دلوش وابنها لال بخش ومحمد غلام حسن، وسالم بن نصير ومنيرة حسن من حارة العجم، وكثيرون، كثيرون غيرهم، سمعت بهم ولم أعرفهم. لكن الكوليرا لم تقترب من خيمتنا، ونجونا كلنا، إلا أن رائحة القيء والإسهال بقيت عالقة بمغارات أودية مسقط وجبالها لشهور عديدة.

كنت شابة قوية. ويقول الرجال الذين كنت أصادفهم في طريقي إلى الماء، أو عند زيارة الحارات القريبة، إني حلوة، لكني لم أهتم، لا للذين ألقاهم في الطريق ولا للذين جاؤوا لخطبتي.

قالت أمي إنه لا بد أن يكون لي زوج ولأولادي أب، لكنني لم أكن أصدق أنه سيوجد رجل يحنُّ على أولادي أكثر من أبيهم.

قلت لها، أربي أولادي وأكدُّ عليهم بنفسي، والله يغنيني عن الحاجة إلى الرجال.

وهكذا كان، وخلال السنوات التي تلت، كبر عيسى وحسين ونورية، ومات رجب داد الله في فراشه، والتحق أخي غلام بجيش السلطان فيصل، ثم وصلنا خبر مقتله في حرب في الباطنة، وأصيبت أمي بالعمى من طول بكائها عليه.

أما أنا فلم أتوقف لحظة واحدة عن الكدِّ وحمل الهم، وقضيت شبابي في المشي على حصى الوادي حافية، أجلب الماء من طوي النل لأوزعه على بيوت الحارات، التي لا تخرج نساؤها للماء، وأصنع من حليب بقر البانيان الحلوى والجبن، وأنقش ملابس الأعراس، وأمارس كل الأعمال الصغيرة والكبيرة التي أُستأجر لها، فقط كي أضمن الخرق التي نلبسها على أجسادنا، واللقم القليلة التي تمنع عنا الموت، وأن لا يمسنا أحد بسوء، أو يظنّ رجل أني بحاجة إلى أب لأولادي، فقط لأن عبد الرسول ذهب عند أمه، ونسي الأفواه الصغيرة الجائعة التي بذرها في داخلي.

كان عمر نورية عشر سنوات أو ربما إحدى عشرة سنة، عندما رأيت تلك النظرة في عين دلشاد، نظرة ما فيها من حليب الطفولة شيء، فطلبت منه مغادرة الخيمة، وعندما لم يجد مكانًا يأوي إليه، ذهبت إلى دارماداس، أتوسل إليه، أن يقبل بدلشاد خادمًا للبقر، وأن يُسكنه في الحوش، مقابل خدمتها والعناية بها.

لم يتوقف دلشاد عن زيارتنا، وحتى عندما كنت أشتمه وأطرده،

كان يختفي ليومين ثم يعود، تمامًا مثل القطط، ومثل القطط، كان له عدة أرواح. فنجا من الحزن ومن الكوليرا، التي جاءت هذه المرة مع سفن الهند، لكن نورية وحسين وما زليخة لم ينجوا.

ورغم أني لا أحب تذكر تلك الأيام، فإنها تأتيني في منامي أحيانًا، فأرى نورية وهي تتقلب في حُمَّاها مثل سمكة بين يدي صياد لعين، فتتقيأ ماء أصفر بلا انقطاع، وأستطيع حتى وأنا نائمة أن أشم روائح القيء والبراز السائل، ثم أرى عينيها -آه يا عيني نورية، يا عينيها الذابلتين- تستنجدان بي، فتوقظاني من نومي.

لم أعرف ماذا أفعل، كنت أسقيها الماء فلا يبقى في جوفها لحظة، وكان لحمها القليل يختفي بسرعة، وجلدها يجف ويشتد ويتشقق، ويتحول بياضها إلى الزرقة، ثم صارت تصرخ صرخات عظيمة من شدة ما بها من ألم، وكنت أقف عندها بلا حول ولا قوة، لا أعرف كيف أخفف عنها، لكن الحمد لله، لم يستمر عذابها أكثر من يومين، فماتت ثم لحقت بها ما زليخة خلال ساعات.

طلبت من عيسى مغادرة الخيمة مع حسين ودلشاد وعدم العودة، سألني أين أذهب، قلت له خذهما إلى الجبل، ابقوا هناك، ولا تقتربوا من أحد، قلت لهم لا تعودوا إلى هنا حتى آتي بنفسي إليكم.

لكنهما عادا بعد يومين، وعيسى يحمل جثة أخيه على كتفه، وقد تلطخ صدره بالتراب والقيء، فدفنَّاه قرب أخته وجدته.

وبقيت أنا، أراقب من خيمتي زوال الشر والمرض عن مسقط،

أما عيسى فصار يسير كالمجنون بين الحارة والمقبرة، ودلشاد عاد إلى حوش البقر. لم أستطع مجاراة عيسى في حزنه أو تركه ليذوي خلفهم، فوضعت حصاة على قلبي، وقلت لا يموت حي وراء ميت، وقمت.

في البداية، لم أعرف ما أفعله بحزن عيسى وذبوله أمام عيني، حاولت كل شيء معه، هددته، صرخت في وجهه، توسلت إليه، لكنه كان يرفض أن يتحرك من عند باب الخيمة، ويرفض أن يضع شيئًا في فمه.

لم أتحمل رؤيته هكذا، وخفت أن جنونًا أصابه، فذهبت إلى دلشاد أستنجد به، قلت ربما ستعوض صحبته لعيسى غياب حسين ونورية، فيتسلى ولو قليلًا عن ذلك الوجع، فتحلو الدنيا في عينيه مرة أخرى.

وعندما اقتربت من الحوش، لمحته جالسًا أمام مدخله وقد غدا جِلدًا على عظم هو الآخر. ترددت قليلًا، لكني قلت لنفسي: سيقتسمان الحزن والتمر وسيتعافيان معًا.

قلت له: «تعال دلشاد معاي. أمك حليمة صار في قلبها دموع كثيرة، وعيسى أخوك مريض، ما يتحرك من مكانه. تعال خذه، خذه للطوي وغسله، يمكن يقوم، يمكن يتنشط، يمكن ينسى».

جلستُ لساعات إلى جانبه، لكن دلشاد ما التفت إليَّ، وما تحرك من مكانه. وعندما يئست وأردت الرجوع إلى خيمتي، سمعت صوته يخرج بأنَّات كثيرة:

«ما حليمة، ما أقدر أوقف، حمليني».

ساعدته كي يقف على قدميه، وأسندته حتى أجلسته عند عيسى، الذي لم يلتفت إلى حضوره. جلسا هناك مثل ميتينِ، يحملقانِ إلى الوادي الممتد إلى البحر، ولا يتحركان حتى ليكشا الذباب عن وجهيهما.

وضعت في كف كليهما ثلاث تمرات، وأسندتُ جحلة الماء إلى ركن الخيمة القريبة منهما، وحملت هاندوتي لأستقي الماء من الطوي العلوية.

وعندما عدت، وجدتهما نائمين في مكانهما، ورأس دلشاد على كتف عيسى، والذباب يحوم على كفيهما الخاليين إلا من لزوجة ما تبقى من التمر.

«الدنيا دو روتشي حليمة، مرتشي تيجي باندا ديجريجي».

الدنيا يومان، كانت أمي زليخة تقول وهي تواسيني وتصبرني على حظي العاثر، يوم لك ويوم عليك. لكنها ذهبت مع أولادي قبل أن يأتي اليوم الذي لي، بل جاءت أيام كثيرة بعدها، وجاءت الحروب وجلبت معها جوعًا أشد من ذلك الذي عرفناه، وصارت الأيام والحياة كلها علينا.

سنجور جمعة

دعوني أخبركم بحكاية أخبرتني بها بيبي روزهاتون، جدتي لأمي، التي كانت تعيش في بسنة. حكاية ورثتْها عن أمهاتها، وجلبتها معها من بلاد البلوش البعيدة، حيث الأرض أكثر وعورة من سيوح مسقط، وجبالها أعلى وأقسى.

«كانت هناك امرأة اسمها روزريه، وكان لها زوج يدعى خير أحمد، كانا فقيرين جدًّا، ويعيشان في كوخ بغابة بعيدة، عند جبل تشيلتان.

كان الزوجان قانعين رغم فقرهما، لكنهما كانا يشعران بالوحدة، فطلبا من الله أن يرزقهما بطفل يسليهما ويعينهما عندما يكبران، لكن روزريه لم تحمل، فصلَّيا كثيرًا وقدَّما الكثير من النذور، حتى استجاب الله لهما، فحملت روزريه، وصار بطنها يكبر ويكبر، حتى أوشك على الانفجار، فدعوا الله أن تضع روزريه حملها في أقرب وقت، لكن روزريه لم تلد إلا بعد عشرين قمرًا مكتملًا، وخرج من بطنها بدل الطفل أربعون.

فرح الزوجان بالكثرة في البداية، ثم جلسا يفكران، كيف لهما أن يطعما أربعين فمًا جائعًا بينما كان لروزريه مثل بقية النساء ثديان اثنان فقط؟

لم يعرف الزوجان ما عليهما فعله، لكنهما قررا اختيار طفل واحد فقط، فاختارا الأجمل والأكثر صحة، ورحلا به إلى قرية بعيدة، وتركا التسعة والثلاثين على سفح الجبل يبكون بكاء يقطع نياط القلب.

بعد ثلاث سنوات شعرت روزريه بالندم، وغلبها الشوق لمعرفة ما حدث لأولادها، فعادت إلى جبل تشيلتان، وهناك كانت المفاجأة، إذ وجدت أطفالها التسعة والثلاثين وقد كبروا، وصاروا بناتًا وأولادًا حلوين، يغنون ويركضون ويمرحون على سفح الوادي في ثيابٍ بِيض رقيقة، تشفُّ عن أجساد صحيحة.

فرحت روزريه فرحًا شديدًا برؤية أولادها، وسجدت في مكانها شكرًا لله، وأخبرت صغارها أن لهم أخًا ستذهب لتحضره كي يروه.

عادت روزريه بطفلها وتركته في الغابة القريبة، وذهبت إلى جبل تشيلتان لتحضر بقية أولادها ليجتمعوا بأخيهم، لكنها لم تجدهم، ركضت طول السفح وعرضه بحثًا عنهم، لكنها لم تجد أحدًا، وعندما أنهكها الركض والجوع، عادت إلى الغابة حيث تركت طفلها، لكنها لم تجده، بحثت عنه طويلًا، لكنه كان قد اختفى، مثلما اختفى أولادها الآخرون، فجلست عند شجرة تنوح حتى ماتت.

ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ أحد على الذهاب إلى جبل تشيلتان فأرواح الأربعين طفلًا، كانت تتجسد للعابرين وتخدعهم ببراءتها، ثم تسرق منهم الحياة».

أرى أنكم تتململون في أماكنكم، غير مرتاحين لما سمعتم، لكنني أخبركم بالحكاية كما روتها لي جدتي من قبل، وجدَّتها من قبلها.

أعرف أنها ليست حكاية مسلية، وأنها ستخيفكم، وستقولون: بئس الأب وبئس الأم، تلك التي تقبل بترك أولادها وهجرهم!

ستقولون: نحن أفضل من روزريه وخير أحمد، نموت ونحن نكدُّ على الأفواه الجائعة.

ستقولون: نحن وإن كنا فقراء وجوعى ولنا أطفال لا نعرف كيف نطعمهم أحيانًا، لكننا لم نفكر يومًا في تركهم في الجبال نهبًا للشمس والليل والذئاب.

ستكرهون روزريه وخير أحمد، ستقولون: لا يخافان الله، ستقولون: قلبهما من حجر، ستقولون: تلعنهما الملائكة.

ستقولون: هذه حكاية من حكايات العجوز الخرف الذي ورثها عن جدته الخرفة، ولا نعرف ما يريد بها.

ستقولون: يا سنجور، نحن لا نحب هذه الحكاية، عد بنا إلى حكاية هاني وشاه مريد. أنتم تحبون حكايات عشق النساء وحرمان الرجال، نعم، أنتم بحاجة إلى ما تبكون عليه لا إلى ما يخيفكم.

لكنكم تخافون، أعرف أنكم تخافون، من تلك العيون التي تومض في الليل. تخافون، أن يأتي طفل من أطفال روزريه إلى مناماتكم ليطاردكم بجوعه، لأنكم تعرفون أن للجوع أنيابًا حادة، وأنتم تخافون تحوُّل أطفالكم إلى ذئاب فينهشونكم، مع ذلك تأوون إلى نسائكم كل ليلة، غير مبالين إلا بتلك اللحظة.

لكن لا بأس، فبإمكان عجوز مثلي، جرَّبته الحياة وجربها أن يفهم ذلك، بإمكانه أن يعرف ما تقدرون عليه وما هو صعب عليكم.

هيا، قوموا، وانسوا ما حدثتكم به. وفي الغد تعالوا وسأحكي لكم قصة هاني وشاه مريد.

عيسى عبد الرسول

حارتنا التي يسكنها اللوغان حارة صغيرة، لا تفصلها عن حارة خلالوهْ التي تقابل طوي النل إلا قلعة الراوية، وعن حارة البلوش إلا مجرى الوادي الكبير.

تمتد خيامها من تحت ظل الجبل، وتصطف على الضفة الغربية للوادي في سطر ضيق. وعندما يفيض الوادي، نقف كلنا أمام خيامنا، لنراقب اندفاعه مطمئنين أنه لن يصل إلينا، بينما تحمل أمهاتنا قصبات الجدو، فيغنين أو يصفقن ابتهاجًا بالخير الذي سيغني الآبار والمزارع، فتنبت تحت النخيل ضواحي الليمون والفجل والسفرجل.

أخرج كل صباح من خيمتنا قبل بزوغ الشمس، وليس في بطني إلا شربة ماء أتجرعها على عجل، ثم أخبُّ على حصى الوادي، فيفضي بي الدرب إلى السوق، وقد بدأت الشمس في الارتفاع.

منذ أن طال عودي واشتد وترُ ساقي وأنا أعمل عتالًا، وهو عمل لا يقدر عليه أحد مثلنا نحن أهالي لوغان الشداد، الذين يحكي عنا سنجور جمعة أننا تحدرنا من الجبال المحاذية لبلاد الأفغان، لذا

نتشابه نحن ورجال قبائل البشتون في الضخامة والقوة، وأننا قطعنا صحراء نيمروز، حتى وصلنا جواذر، وعبرنا البحر حتى وصلنا مسقط وأصبحنا جندًا في جيوش السلاطين.

أعمل عند التجار البانيان، وأعمل عند التجار البلوش، وأعمل عند التجار العرب، أعمل عند كل من يقدر على مناولتي بيسة أو أحيانًا آنة كاملة، أو حتى يعطيني كسرة تمر أو قبضة من ملح أو شيئًا من السمك، أحمله معي إلى أمي حليمة، فتغليه وتصنع لنا منه حساء لذيذًا، تبقى حموضته في فمنا لأيام عديدة.

أحمل البضائع من السوق الداخلي إلى الخارجي، أو من الخارجي إلى الداخلي، أو من الفرضة إلى المخازن، ثم من المخازن إلى الدكاكين، وأبقى محنيًّا تحتها طوال الوقت، ولا أستقيم إلا عندما أجلس للراحة وشرب فنجان قهوة أو آكل حبة تمر.

كان في بيتنا ستة أفواه تطلب أكلًا، رحل ثلاثة منها فبقينا أنا وأمي ودلشاد، الذي صار أخي لأن حسين ونورية رحلا، ولأن على كل رجل في هذه الدنيا أن يجد له أخًا يستند إليه.

يسمونه «ود السيح»، وأحيانًا «الغبن»، اللقيط ابن اللقيط الذي لا أصل له ولا نسب. أهل أمه جاؤوا من بلاد بعيدة، واستقروا على أطراف حارة الطويان، كان أبوها يعمل في صنع أحلاس الحمير، قبل أن يقعده الكساح، وأمها كانت امرأة شبه مجنونة.

رجال حارتنا يتجنبون ذكر أمه أو سيرة أبيه الذي وجد ميتًا قبل أن يولد دلشاد، لكن ما زليخة كانت تحكي لي حكايات

حارات مسقط، التي تسمع نتفها من نساء الحارة، عندما تجالسهن في أوقات راحتهن القصيرة بين أشغالهن التي لا تنتهي، وكانت لا تفعل ذلك إلا بعد أن تسألني إن كان دلشاد قد ذهب للعب مع نورية في الوادي، كي تطمئن أنه لن يسمع ما ستنقله لي من حكايات أمه وأبيه، وكان ذلك يدهشني، فدلشاد كان يعرف كل شيء.

لم أكن أكبره بأكثر من أربع أو خمس سنوات، لكنها كانت كافية لتحدد مَن الكبير ومن الصغير، ومن يأمر ومن يُؤمر في تلك الخيمة. وعندما كان عمري عشر سنوات كان هو وحسين يرافقاني لنصب الفخاخ للحصينيات، في الشراج ومسارب الجبال وعند الكهوف.

كنا نحفر حفرًا صغيرة نضع داخلها فخًّا من الحديد، ثم نغطيها بالحشائش وأغصان العسبق، ونضع فوقها طعومًا من حبات السردين المجففة، فتجذب رائحتها النفاذة الحصينيات، فتقع أقدامها في الفخ، وهكذا نقيم لأنفسنا وليمة صغيرة من لحمها الطري.

لم نكن وحدنا من يحب لحم الحصينيات ويهوى صيدها، فكنا كثيرًا ما نجد فخاخًا منصوبة في مسارب الجبل وكهوفه، وكان لكل فخ علامة تدل على صاحبه، ولم يكن لأحد أن يستولي على فخ غيره، ولا يستبدَّ بالشبع لنفسه، وإلا لاقى عقابًا وتشهيرًا في الحارات. وكان ذلك بمثابة عُرف بين صيادي الحصينيات من جميع الحارات، خاصة العرب، فالجميع جوعى، ويشتهي اللحم، ولكن على الرغم من ذلك، كان الجميع يحترم العرف.

دلشاد لم يكن يحب لحم الحصينيات، لكنه لم يكن يفوت فرصة

ليرافقنا في صيدنا، خاصة بعد أن عيرته ما حليمة برفقته الدائمة لنورية، وأسمته «خوي البنات».

فصار يتجنبها، ولا يأخذها معه عندما يذهب لتوصيل الحليب، ولا يجالسها عند قدمي أمي، وإن لم ينجز الأشغال المكلف بها، ذهب إلى النخل وغاب بين أعواد البرسيم، أو يعرض على البيادير؛ عمال النخل والماء، أن يساعدهم في سَوْق ثيران الزيجرة.

دلشاد أخي، لكنه لم يصبح كذلك لأنه شرب من حليب أمي، أو عندما أعطته ما زليخة اسمًا بلوشيًّا مثلنا، ولا حتى عندما أصرَّت على أن يقيم معنا، ولا عندما كنت أعلمه وحسين اللقّف دوْم، ونباري أولاد الحارات الأخرى ونغلبهم بعِصيِّنا وسرعة ركضنا، ولا عندما كنا نصيد الحصينيات، بل صار أخي عندما دفنَّا نورية وحسين وما زليخة، وأَهَلْنا التراب عليهم، ثم افترقنا، وكرهنا الدنيا معًا، ثم عدنا إلى حبها معًا.

عندما عرفنا كما يعرف الجميع، أن هذه الدنيا كلبة، تغرز أنيابها في قلبك إذا أحببتها، وتنهش ظهرك إن صددت عنها.

ورغم أن دلشاد لا يملك قوة أهل لوْغان ولا أجسادهم الفارعة، فإني توسطت له عند حجي ميريه، عقيد الحمَّالين، ففحصه بعينيه طويلًا ثم وافق، على أن يختبره مدة شهر ثم يسميه عتالًا.

صار دلشاد يرافقني إلى السوق الخارجي، ثم يتسرب كالماء إلى السوق الداخلي وحارة الهنود والفرضة، فيساعد هذا وذاك، ويعود

أحيانًا في آخر النهار دون بيسة أو حتى كسرة تمر أو قض ملح، وعندما تسأله يغرق في الضحك، ويقول: ما عطوني.

نبهته أكثر من مرة، أن يتوقف عن الضحك وأن يأخذ أجرته، حتى قبل أن يحمل قفيرًا من مكانه ويضعه في مكان آخر، وكان يعدني بذلك، ولا يفلح غالبًا في الحفاظ على وعده.



دلشاد

عند طرف الحارة كانت نورجيهان تبسط صينيتها، وتبيع قطعًا صغيرة من حلوى حليب البقر المعقود بالسكر، لكنها وقعت في قلبي عندما وقفتُ طويلًا أمام صينيتها، ورأت ماء فمي يسيل على حلواها، فناولتني واحدة ولم تطلب مني ثمنها، ودون أن تفكر في ضربات أمها عندما تعود إلى البيت بقطعة ناقصة وبيسة مفقودة.

صرتُ أمرُّ كثيرًا أمام خيمتهم، وأنتظر خروجها للماء، ثم أقف هناك، أتبعها بعيني حتى تغيب في بطن الوادي. في البداية كانت عندما تراني، تتعثر بحصى الوادي، حتى كادت ذات مرة أن تسقط، فرمتني بحصاة أوشكت أن تصيب ساقي، وأطلقت عليَّ سيلًا من الشتائم، أضحكت عليَّ كل من سمعه، حتى سنجور جمعة، الذي كان يخرج في تلك اللحظة من خيمته، وقف مستمعًا ثم ابتسم وهزَّ رأسه باستحسان.

لكن رغم سبابها، وضحك أهالي الحارة عليَّ، لم أتوقف عن تحيُّن

الفرص كي أراها، وأحيانًا كنت أعترض طريقها، فتشتمني هي والبنات اللاتي يرافقنها إلى الماء، ويرششنني بالماء من هاندواتهن، فيسري العشق في عروقي، ثم يمضين متهاديات وكأن الأرض لم تنبت إلا من وقع أقدامهن الصغيرة الحافية عليها.

وعندما طلبت من ما حليمة خطبتها لي ترددت، قالت لي إني ولد عرب وإن نورجيهان بلوشية وإن البلوش لا يزوجون العرب. لم أفهم ذلك، فلقد كنا نتشابه، أنا ونورجيهان وعيسى، في النحول واليتم والجوع وقلة الحيلة.

لكن أمها مهيتاب، لم تتردد كثيرًا في إجابة طلبي، ففي بيتها خمس بنات نجون كلهن من الكوليرا ولا يخالطهن ولد، فزوجتني نورجيهان التي كانت أكبرهن، ونورجيهان الحلوة بضفيرتها الطويلة ورائحة الحليب والسكر التي تفوح منها، قبلت بي، وقرأ سنجور جمعة علينا القرآن، وأخذني عيسى وشباب الحارة إلى طوي الزبادية، فسكبوا عليَّ ماءً كثيرًا ودعكوني جيدًا بليف النخيل، ثم زفَّتني أمي حليمة ونساء الحارات وشبابها إلى خيمتهم.

وصلنا عندهم قبل صلاة العشاء، فدقَّ الرجال الطبول وغنت النساء، ورقصنا، كلنا رقصنا، أنا رقصت مع ما حليمة وعيسى، ورقص ميرزا حسن مع مهيتاب كأنه هو شاه مريد وكأن مهيتاب هي هاني، وحتى سنجور جمعة رقص، وأنشد أغاني بالبلوشية لم أسمع مثلها من قبل.

أحببتُ نورجيهان، أحببت حمرة خديها، أحببت ضفيرتها

الطويلة، التي كانت لا تحلها إلا في فراشنا ولا تلملمها إلا عند أول الفجر.

كنت أحب بشرتها البيضاء الناعمة، التي لم يستطع الجوع والفقر أن يأخذا من حمرتها شيئًا، وأحببت صوت غنائها الخفيض الذي تهمس به كل ليلة في أذني، فتهدهدني حتى أنام كما لم تفعل أي من أمهاتي من قبل.

كانت نورجيهان طفلة، طفلة نحيلة، تلتمُّ في صدري بخفة وتستكين لي، وهي تستنشق رائحة جسدي دون تذمر. وعند الفجر، وقبل أن تبدأ حياة الناس، كنا نستيقظ معًا، ونخرج للخلاء معًا، وفي الوادي حيث كنت أسترها بجسدي، وأحيانًا في طريق عودتنا، كنا نغرق في الضحك معًا عندما يتشاجر اثنان على بقعة يقضيان فيها حاجتهما، فلقد صارت الطفلة مثلي، تضحك أحيانًا عندما تعجز عن فهم الأشياء.

ولكن الطفلة حملت مني كما تحمل النساء، وتكور بطنها وثقلت حركتها، وكان ضحكنا يزداد لأننا لم نكن نفهم كيف يحدث هذا، كيف يمكن أن يوجد طفل داخل طفل، وكيف سيخرج الطفل من الطفل.

عند فجر يوم جمعة ما، ركضت إلى خيمة جلبهار علي لتساعد نورجيهان في ولادتها، والداية أخرجت من طفلتي قطعة لحم صغيرة لزجة وكثيرة الصراخ.

قالت دون أن تبتسم: سميها «مريم» فضحكتُ، ضحكتُ

طويلًا، ثم أخذتُها في حضني وقلتُ: سأنتظر أن تستيقظ أمها فتسميها، لكن نورجيهان لم تستيقظ من تعب ولادتها.

ما حليمة

قلت له: دع عنك ملاحقة نورجيهان بنت مهيتاب بنت داوود خان، اترك البنت في حالها، ويكفي ابتلاء أمها بجنون زوجها ميرزا حسن، الذي استيقظ ذات يوم وهو يدَّعي أنه شاه مريد وأنها حبيبته هاني، فصار يركب جريدة نخل جلبها من مزرعة البانيان، ويدور بها في بطن الوادي وبين الخيام وهو يحمل نشَّابًا ويقول هذا قوس، ويرمي العابرين بحصيات وهمية، أمَّا مَن قدَّرَ الله عليه غضب ميرزا حسن، فكان يصاب بحصيات حقيقية، يعتمد حجمها على جنونه في تلك اللحظة.

تقول مهيتاب إن سنجور جمعة هو المسؤول عن جنون زوجها، فلقد تعوَّد الرجل الطيب مجالسة سنجور الذي لا يجد ما يفعله إلا الصلاة وقصَّ الحكايات التي جلبها معه من مكران.

وكانت قصة شاه مريد وهاني هي المفضلة لدى ميرزا، فظل يستزيد منها حتى تلبسته، فتغير حاله، وهكذا ابتليت مهيتاب بخمس بنات وزوج مجنون، وظلت تدعو بصوت عالٍ على سنجور جمعة كلما

رأته، حتى صار يتجنب المرور من أمام خيمتها. ما عاد لبناتها معيل غيرها، فصارت تشتري حليب بقرات سالمة بنت سويلم من حارة الراوية، وتغليه مع السكر حتى يعقد، فتصبه في صينية كبيرة، ثم تقسمه بسكينها الحادة إلى قطع، وتبيع القطعتين منها ببيسة.

وعندما كبرت نورجيهان، صارت تأخذ الصينية وتجلس بها عند طرف الوادي، بين حارة البلوش وحارة الراوية، فتبيع منها ما تبيعه، ثم تعود إلى البيت، فتضع البيسات في كف أمها، التي تعدها بيسة بيسة، ويا ويل نورجيهان من يد أمها إن فقدت منها واحدة وهي في طريقها إلى البيت.

دلشاد لم يكن يملك المال، ولا أظنه كان يحب حلوى الماهوه، لكنه كان يقف بالساعات متسمرًا أمامها، يراقبها وهي تكش الذباب عن حلواها، حتى أخذتها الشفقة عليه، فناولته قطعة، وليتها لم تفعل، فهذا الولد المخبول، زاد خباله، وصار يلاحقها في كل مكان حتى أتعبها، فصارت تغسله بسبابها كلما ظهر لها في مكان، وهو لا يردُّ، بل يبقى متسمرًا في مكانه، وعيناه نصف مغمضتين، وهكذا تحولا إلى حكاية يتسلى بها أهل الحارة.

نهرته ثم نصحته، لكنه قال إنه يحب لسانها وسبابها وحلواها، وإنه يريد أن يتزوجها. فقلت له إن مهيتاب لن تزوج ابنتها بولد عرب، لم أرد أن أقول له، بلا أب، لكنه عرف مقصدي، وقال إن الكوليرا أخذت آباء كثيرين، وإن الجميع في الحارة أصبح بلا أب، وإن أباها وإن كان حيًّا فهو مجنون، فهي مثله يتيمة إذًا.

بيَّنت له الفرق، بين جنون أبيها وغياب نسب ود السيح، فلم يبالِ، وأصر أن أذهب إلى مهيتاب وأخطبها له، رفضت في البداية، متجنبة ردود مهيتاب وسلاطة لسانها، لكني في النهاية رضخت له، وقلت عساه إن رفضته يعقل، لكن مهيتاب لم ترفضه، بل رحَّبت به، وزوَّجتْه نورجيهان، وقالت فقير يصونها أفضل من غني لا يؤتمن، مصمصتُ شفتي وبحثت في رأسي عن الأغنياء الذين يقفون بباب مهيتاب بنت داوود خان، لكني لم أملك إلا أن أخيط له دشداشة وأزفَّه إليها.

ربما لو كنت مكان مهيتاب لفعلتُ مثلها، فخمس بنات يوشكن على البلوغ همٌّ كبير، ودلشاد ولد طيب، لا يعيبه إلا أمه وأبوه، لكنَّ أمه وأباه قد ماتا منذ زمن، أما فقره فلا يفرق كثيرًا عن فقر بقية أهل الحارة.

لم تمضِ مدة طويلة، حتى حملت نورجيهان، وتكوَّر بطنها، وصار دلشاد يبحث عن عمل بالإضافة إلى عمله في السوق، فجرَّب كل شيء، واشتغل في كل شيء، حتى يستطيع شراء الحليب لها.

وكانت هي صغيرة ونحيلة، حتى لا يكاد حملها يظهر من تحت قميصها، وعندما جاءها المخاض، جاء دلشاد إليَّ راكضًا، فأمرته بالذهاب إلى بيت الداية جلبهار علي، فهي وحدها تعرف كيف تخرج الأطفال إلى هذه الدنيا، دون أن يلتف حبل الولادة حول رقابهم ويختنقوا به.

عاد دلشاد بالداية التي كانت تلهث وراءه، فطردتْه من الخيمة وأبقتني معها لأعاونها، ونورجيهان وضعت طفلة مثل القمر، مسحتها بخرقة نظيفة، وغطَّيتها بقماش من بقايا ثوب قديم، ثم ناولتها دلشاد الواقف عند الباب.

مشيت مع جلبهار علي إلى خيمتها عند أطراف الحارة، ثم عدت إلى خيمة دلشاد لأنظفها من دماء الولادة ومائها، وقبل أن أصل سمعت صراخ الرضيعة، ربما من على بعد خيمتين أو أكثر، فأسرعت لأجد الرضيعة في حضن أبيها تصرخ، ونورجيهان ميتة في نومها. صرختُ وولولت ولطمت خدي، فجاءت مهيتاب وبناتها يتبعهن ميرزا حسن وعيسى راكضين، ثم تبعتهم الحارة كلها.

انتزعتُ الرضيعة من حضن دلشاد، لكني لم أعرف كيف أسكتها، وضعت إصبعي في فمها كي تتلهى بمصه، لكنها كانت تبكي وكأنها عرفت أن أمها التي أحضرتها إلى هذه الدنيا، تركتها وغادرت قبل أن تعطيها اسمًا.

تعالى صياح الطفلة، وخِفتُ أن يطمع الموت فيها هي أيضًا فيأخذها، لكن نوربيبي زوجة سنجور جمعة، أحضرت طاسة من لبن الماعز من عند محفوظة بنت سالم في الراوية، فغمست إصبعي فيه ثم وضعته في فم الرضيعة، فرفضته في البداية، ثم بدأت تمصه مرة بعد مرة، حتى شبعت من الحليب والتعب ونامت.

كانت النساء أثناء ذلك قد صنعن حاجزًا من الخرق، وجلبن

الماء، وقامت أمها بغسل جسدها الضئيل، بينما جلست أخواتها الأربع خارج الخيمة، يبكين ويلطمن خدودهن.

ثم جاء الرجال بالنعش، فحملوها، وساروا بها إلى المقبرة، وكان دلشاد معهم، يسير مذهولًا، وقد حمل مقدمة النعش مع ميرزا حسن.

استيقظتْ الرضيعة، واستيقظ صراخها معها، حاولتُ أن أسكتها ببقايا حليب الماعز لكنها رفضته ورفضت أصابعي، حملتها ووضعتها على كتفي، ودرت بها خارج الخيمة، لكن صياحها تحول إلى صراخ يقطع القلب، ولم أعرف ما أفعل، فقامت جدتها وخالاتها بالتناوب على حملها ومحاولة تلهيتها.

كاد صراخها أن يتلاشى بين جنبات الوادي الكبير، عندما جاءت خاتون زوجة أحمد حسين من خيمتها في طرف الوادي، وانتزعت الرضيعة من بين يدي مهيتاب وألقمتها صدرها.

ثم جاءت أصيلة زوجة سيف بن صالح من حارة الراوية فأرضعتها، لتخفف من ثقل صدرها واحتقانه بعد موت رضيعها، وتناوبت على ذلك مع شوانة بنت خميس، زوجة بخيت بن هلال من حارة خلالوهْ، التي كان حليبها يفيض عن حاجة رضيعها، الذي خلق قليل الرغبة في الحليب وفي الحياة، فلم يعش أكثر من ثلاثة أشهر.

مريم دلشاد

ولدتُ في سنة من سنين الله، لكن في ذلك الزمن لم يعرف أحد في حارتنا حساب السنين كي يدونه.

ولذا فأنا لا أعرف عمري، لكن واحدة من أمهاتي الكثيرات، قالت لي إني ولدت أيام الحرب، وأنا لا أعرف أي حرب تعنيها، فمنذ خلقت وأنا لم أسمع إلا عن الحروب، وكأن لا شيء يحدث في الدنيا سواها.

ورغم أني لم أشهد أيًّا من تلك الحروب القديمة، ولم أعرفها، فإني أعرف الجوع، وأتذكره جيدًا، فمن عرف الجوع يعرف أنه يبقى في الدم، مثل مرض، ولا يمكن لأي شبع بعده أن يشفيك منه.

نعم أعرف الجوع، ذلك الذي تربيت فيه وكبرت معه، وأعرف حالة حارات مسقط التعيسة الخاملة وشبه الخالية في ذلك الزمان، أشباح البشر الذين يمضون في مسقط وكأنها مقبرة، نباح قطعان الكلاب الهزيلة، رائحة القمامة وأسراب الذباب التي تغطي كل شيء.

قالت ما حليمة، إني ولدت بسن صغير في فكي العلوي، فكانت النساء يتوجعن من إرضاعي، فلا يتحملن مصي النهم أكثر من أسبوع، فصارت تدور بي على البيوت، لترضعني النساء الغريبات فيسد جوعي ولو إلى حين، هكذا صارت لي أمهات كثيرات، بلوشيات وعربيات، حرّات وجوارٍ، وصار لي في كل حارات مسقط الفقيرة أخوال وإخوة وأخوات.

وعندما كبرت على شرب الحليب وبدأت في الأكل، وضِع التمر الأسود النخر في فمي مهروسًا، ولقِّمت عصيدة النجيرة، ولم أعرف الرز ولا حتى ماءه إلا بعد سنين طويلة.

نجوت من جوعي الأول بفضل معزة هزيلة ورضيع خاتون الميت، لكن الجوع صار ملازمًا لي، بل كان ملازمًا لكل أهل مسقط، خاصة فقراءها، فلم يعرفوا غيره طوال تلك السنين المرة، فهُم إما في جوع أقل وإما في جوع أكثر، أما الشبع فلم يخطر على بالهم ولم يعرفوه، وإن زارهم متوهمًا في شكل من أشكال الجوع الأكثر فداحة، وهم يتهاوون قريبًا من حواف الموت ولا يموتون، بلطف من الله ورحمة من البحر الذي لا يشح.

كبرت وأنا ألعب في بطن الوادي وعلى حصاه، فأُراكِم الحجارة الصغيرة بعضها فوق بعض لأصنع بيتًا، ثم أسقفه بالحصى المسطح العريض. ولأجل تأثيثه، كنت أقلب حصى الوادي مع البنات والصبيان، باحثة عن الأشياء الصغيرة التي خبأها السيل تحتها.

وكان الوادي غنيًّا، حتى في أوقات المحل، فأحيانًا كنت ألمح قطع

زجاج صغيرة تعكس ضوء الشمس إلى عيني، لكنها لا تصلح لشيء إلا لإحداث جرح، ومرات أجد خرزًا صغيرًا ملونًا، أجعله عيونًا للآباء والأمهات والأطفال الذين أصنعهم من قطع الخشب التي ألقاها مختبئة تحت حصى الوادي، كما يحدث أن أعثر في الطين المتعقب بعد السيل على نويات تمر، بدأت سويقات خضراء في الخروج منها، فأغرسها في حوش بيتي الصغير وأقول صار عندي نخل.

كنا نبحث في بطن الوادي عن غنائمنا الصغيرة، وكنا نتسابق عليها، وعندما نجدها نتبادلها بيننا، ولكن عندما وجدت مستورة بنت خلف آنةً مندسة تحت حصاة قرب حافة الوادي المحاذية لنخيل البانيان، حدث عراك بيننا، خرجت أنا منه بالآنة وشجٍّ صغير في رأسي، وخرجت منه مستورة بكفٍّ خالية وضرس ناقص، لكني لم أهتم بشج رأسي ولا بضرس مستورة، وركضت إلى بيت فاطمة موسى، لأشتري كريات الجبن المجفف، غير مهتمة ببكاء مستورة ولا بشتائمها.

اشتريت أربع كريات، قضمت واحدة منها وأنا في طريقي إلى خيمتنا، واستبقيت الثلاث لأيام، ثم عاد الجوع ليحتل بطني ورأسي، فتلهيت عنه بتقليب حصى الوادي وبناء بيت جديد لي، والعراك مع البنات.

نعم، أتذكر قرصات الجوع الحادة، والفراغ الهائل الذي يملأ البطن، ثم يتمدد حتى يستقر في الرأس، فتغيم الدروب والوجوه، وتصبح كل الأشياء بلا قيمة مقابل حبة تمر.

كبرت في الجوع، ومع مرور الوقت تصالحت معه، وإن لم يتصالح هو معي ويغادر ذاكرتي، حتى أن الشبع المتأخر لم يناسبني، ولهذا السبب تصيبني النفخات والغازات والحموضة، وأباتُ لياليَ كثيرة، أنتظر أن يحل النوم علي. النوم القديم، نوم تلك الأيام الشديدة الحرارة، نوم أبخرة الجوع وتعبه على السطوح، النوم تحت السماء، مباشرة تحت عين الله، فنحن قدامى جوعى مسقط، نعرف الجوع جيدًا ونفهمه، ولكن لا أظن أننا سنفهم الشبع أبدًا.

عيسى عبد الرسول

كانت حارتنا مكتظة بالخيام، فأمرتني أمي أن أساعد دلشاد، في نصب خيمة على حافة الوادي ليتزوج فيها، وبالضبط عند المكان الذي يتشعب فيه الوادي الكبير فيصبح واديين: الصغير والأوسط.

اعترض أهل الحارة، وتجمعوا عند المكان الذي كنا سننصب عنده الخيمة، وقالوا: دلشاد ليس منا، وعليه بنصب خيمته على الضفة المقابلة، حيث يسكن ميرزا حسن ومهيتاب، أو يعود إلى أطراف حارة العرب حيث كانت تسكن أمه.

سمعتُ ما حليمة تصايح الرجال، فجاءت حاملة عصًا في يدها، يتبعها سنجور جمعة، الذي كان جاهزًا بقصصه الكثيرة عن أبطال البلوش، وكرمهم وطيبة قلوبهم، ودفاعهم عن الفقراء.

لكن لا ما حليمة لوَّحت بعصاها، ولا سنجور جمعة وجد فرصة لقول أي شيء، فقد جاءت مهيتاب، يتبعها ميرزا حسن على فرسه المصنوعة من جريد النخل، وفي يده اليمنى نشابه وفي اليسرى حفنة حصى.

وقفت الحارة صفين، صف يرفض إقامة الخيمة عند مفترق الوادي، وصف فيه أنا وما حليمة ودلشاد وسنجور جمعة ومهيتاب وميرزا حسن، تعالت الأصوات من الجانبين، لكن ما إن علا صوت مهيتاب، وبدأ ميرزا حسن بالرقص على خيله وتلقيم نشابه بالحصى، حتى تراجع الصف الآخر.

الجميع في الحارات كانوا يخافون نشاب ميرزا حسن وجنونه، لكنهم كانوا يخافون لسان مهيتاب أكثر، فوحده كان قادرًا على استرجاع تاريخ كل خيمة وكل ما حدث فيها، دون خجل أو مواراة.

بهدوء بدأ الرجال والنساء بالتراجع، وبعد أن انسحبوا جميعًا، شرعنا أنا ودلشاد وسنجور جمعة في بناء الخيمة، فجلبنا سعف النخيل اليابس وشذبناه وسحلناه، وبدأنا في بناء أركان الخيمة. استعاد ميرزا حسن عقله للحظة، فتخلى عن الجريدة التي كان يركبها، وصنع منها ركنة من أركان الخيمة.

فرشنا كل جوانب الخيمة بسعف النخل، ثم أحضرنا بعض الحصى وغطيناها به، وعندما انتهينا، أحضرت ما حليمة لنا القهوة والتمر، أما مهيتاب التي غادرت مبكرًا، فقد عادت وفي يدها إبريق من الحليب، شربنا منه حتى شبعنا، بعدها حُدِّد موعد عرس دلشاد ونورجيهان.

ذهب كل منا إلى خيمته، إلا دلشاد، الذي استلقى في بطن الخيمة الجديدة، التي فرشها بالرمل الأبيض الذي جلبه قبل يوم من ساحل

كلبوهْ، ثم ما لبث أن استغرق في النوم. عندما عدت إلى خيمتنا سألتني ما حليمة إن كنت سأتركها قريبًا، فضممتُها تحت جناحي، ووعدتها أن لا أغادر خيمتها، لكنها أبعدتني عنها غاضبة:

- أخيط دشداشة لدلشاد، وأنت اجلس هنا معي، لا حرمة ولا ولد.

- سمعتي قصة با سنجور عن جبل تشيلتان والأربعين ولد؟

- الله يلعن سنجور جمعة وقصصه.

- من وين نجيب أكل للحرمة وللولد؟

- الله يرزقهم مثل ما رزق غيرهم. أنا بموت عيسوه، بموت، وأنت لازم يكون لك ولد.

- إن شاء الله، بيكون لي ولد وأكثر.. يمكن عشرين.. عشرين زين؟ عشرين ولد؟

تجاهلت ما حليمة سؤالي، ورمقتني بنظرة آسية، وسكتت، وأخرجت قماشًا من سحارتها، وبدأت بذرعه.

خاطت ما حليمة دشداشة لدلشاد، وسنجور جمعة حدَّد تاريخ الزفاف، الذي ستكون فيه منزلة نجوم السعد في طالع الزوجين. وعندما اقترب موعد زفافه، أقمنا الـ«كابر بندي»، ومزقنا قميص دلشاد، ودهنَّا جسده بالصندل، وأجلسناه في وسط خيمته، لا يخرج منها مدة سبعة أيام، إلا لقضاء الحاجة.

وفي صباح يوم الزفاف، أخرجناه من الخيمة، وذهبنا برفقة

شباب الحارة إلى طوي الزبادية، وتعاونًا على فرك جسد دلشاد وأجساد بعضنا بليف النخيل، وسكبنا الماء على رأسه بعد أن فركناه بالغسل، فخرج منه ومنا ما لم نتخيل من قذارة ووسخ.

كانت النساء تغني ونحن نستحم ونعبث بالماء:

سرا ابي بريه

لائكي سالوك

سالوك نازكاه

ماتي لك ورباني

لبسنا ثيابنا النظيفة، وخرجنا من طوي الزبادية ونحن نغني. كنا خمسة رجال، مشينا في دروب حارات البلوش والزدجال واللوغان والعرب، ونحن نغني، ونصفق وندق الأرض بأقدامنا القوية، وفي كل خطوة كان ينضم إلينا أطفال ورجال ونساء، حتى وصلنا عند بيتنا، فقبَّل دلشاد رأس ما حليمة، ثم ذهبنا إلى المسجد، حيث عقد سنجور جمعة عقدة النكاح بحضور رجال كل الحارات.

عندما ارتفع القمر في السماء، تجمعت النساء عند خيمتنا، فخرجنا في موكب كبير من طبول وغناء وضحك، يتقدمنا دلشاد وما حليمة إلى خيمة نورجيهان، وهناك وجدنا ميرزا حسن وقد شذب سعفة نخل جديدة وروضها وركبها، ووجدنا مهيتاب وبناتها وقد أحطن بخيمة العروس وخبأنها في الداخل.

ارتفع صوت الطبل، وتمايلت الأجساد، وتعالت أصوات غناء

«اللورلوه وروه وروه»، واهتزت الأكتاف، وعلق ميرزا حسن نشابه في وسطه، ودار بين الناس بفرسه الجديدة وهو يميلها ويصفق.

ومضى الليل في الغناء والضحك، ولم ينتبه أحد إلى جوعه، لكن ضوء القمر بدأ في التلاشي، وحلت العتمة، فانسحب الناس كلٌّ إلى خيمته وحارته، ودلشاد توارى في خيمة نورجيهان، وأنا وأمي عدنا إلى خيمتنا منهكين، لكن مع كل خطوة كان التعب يرتفع عنا قليلًا، حتى وقفت أمي بغتة ونحن نسير في بطن الوادي، وواجهتني، رأيت لمعة عينيها في الظلام، وسمعت صوتها يخرج فيما يشبه تنهيدة طويلة «زوجت دلشاد». ثم استدارت، ومضت أمامي بِخفَّةِ مَن أوفى بعهدٍ قديم.

دلشاد

لا أعرف كيف انسلَّت روح نورجيهان.

بعد أن أسلمتني الداية المولودة، لملمتْ خرقها وخرجت من الخيمة، لم تطلب أجرًا، إلا أن ما حليمة ناولتها كسرة تمر، دستها في صرتها وغادرت، وتركتني والرضيعة الباكية بين يدي، ونورجيهان نائمة على الأرض التي لم تنظف بعد من ماء الولادة ودمها.

حاولت أن أُسكت الرضيعة، لكنها لا تسكت، حاولت أن أقنع نورجيهان أن تستيقظ وترضعها، لكنها كانت ترفض أن تستيقظ. فصرتُ أغني للطفلة كي تنام وأعد نورجيهان بالحلوى كي أقنعها بالنهوض، لكن لا الطفلة سكتت ولا أمها قامت.

دخلت ما حليمة الخيمة ووبَّختني، وأخذتْ الطفلة من يدي ووضعتها في حضن نورجيهان، لكنها لم تتحرك، ولم تمد يدها لأخذ طفلتها، فدفعتها ما حليمة بكتفها ثم قرصت ذراعها، ثم صفعتها بخفة على وجهها، ثم فجأة توقفت، وشهقت وهي تلطم وجهها «ماتت.. نورجيهان ماتت».

كنت معها في الخيمة نفسها، وكانت الطفلة في حضني، مع ذلك لم أشعر بعزرائيل وهو يدخل، ويأخذها ويخرج، لم أشعر به، لكني بعد أشهر حلمتُ به وعرفته، حلمت برجل ضئيل يدخل الخيمة ويحمل نورجيهان على كتفه ويخرج بها، وكانت ضفائرها قد طالت كثيرًا، فصارت تسحب الشوك وتمسح الحصى في طريقها، لكن في تلك اللحظة التي أخذها مني لم أره ولم أقدر على منعه، سرقها مني حتى قبل أن تسمي ابنتها.

دفنوها في المقبرة نفسها التي دفن فيها حسين ونورية وما زليخة، وحيث يوضع شاهد صغير أبيض كي يعرف الأحياء مكان موتاهم فلا يهيمون كالمجانين باحثين عنهم. ساعدتهم ووضعت جسدها الضئيل في الحفرة، ثم وقفت أراقبهم وهم يهيلون أكوامًا من التراب ويرصون الحصى فوقها. لم أفهم، هل كانوا يخافون خروجها؟ هل كانوا يخافون عودتها إليَّ، فتقصدوا حبسها؟ لكن الموتى لا يعودون، هم يعرفون ذلك، وأنا أيضًا أعرف.

غادروا، وجلست أنا في مكاني، لم أشعر بحرارة الشمس وهي تسرق الماء من جسدي، لكني شعرت بخفة في رأسي، ورأيت شواهد القبور مثل وادٍ عظيم يسير تجاهي ويغمرني، لم أحاول الهرب منه أو حتى تجنبه، كنت أريده أن يأخذني معه صوب البحر، وكنت أريد للأسماك الكبيرة، ذات الأسنان الحادة، التي رأيت قماميط يقطِّعونها في سوق السمك، أن تأكلني.

كنت أريد أن أصير في بطن إحداها، فيبتلعها الحوت، فأصبح

في بطنه، وأصير نبيًّا، مثل يونس كما قال سنجور جمعة. هنا بدأ الضحك يرتفع من أمعائي الخاوية إلى رأسي، هنا عادت القهقهات لتهزني، وأنا أستغفر الله، وأنقلب على ظهري من الضحك، وأتقلب على حصى المقبرة وأتعفر بترابها.

عيسى ظن أني جننت عندما لم أتوقف عن التمرغ بالتراب والضحك حتى ما عدت قادرًا على الحركة، فحملني إلى خيمتي، وهناك دلقتُ كل ماء الجحلة في جوفي، وإذا بفراغ كبير يحل في بطني، لم أجد شيئًا آكله، فذهبت إلى ما حليمة، نظرتْ إليَّ نظرة مَنْ لا حيلة له، وناولتني قليلًا من التمر وفنجان قهوة.

خف وجع الجوع قليلًا، بعدها انتبهتُ فسألت عن الرضيعة. أشارت ما حليمة إلى بطن الخيمة، حيث كانت مريم نائمة في أقمطة من بقايا ثياب أمها، قالت لي ما حليمة إن امرأة جاءت وأرضعتها فسكتت. نمتُ إلى جانب كتلة اللحم الحمراء التي لا تتوقف شفتاها الصغيرتان عن الرضاعة حتى في الحلم.

كبرتْ مريم على حليب نساء أخريات، وكبرتُ أنا معها، وثقلت ضحكتي وأنا مستمر في عتالة السوق ونقل القمامة، وأحيانًا كنت أساعد البانيان في نقل روث أبقارهم وحرقها.

ثم بعد سنوات وجد عيسى ما حليمة ميتة في خيمتها، وبقيت مريم وحيدة بلا أم على كثرة اللاتي أرضعنها، فصرتُ أمها، ثم كبرت هي فصارت أمي، تطبخ لي، وتنظف الخيمة، وتحضر الماء، وتغني لي كل ليلة الأغاني التي ورثتها عن أمهاتها:

ليلو ليلالو ليلو ليل

ليلو نُنُّولا هوردينا

نُنُّولا مرتشي باز گريتا

ماتي بيگامي وابكپتا

تشوك ماتي جنا ميتشينتا

ما شَپ پاسي چپايا كَشتا

پاسا ما تشندني دار سوتكا

ما ليلو ليل كنا بتشيگا

كانت تكبر وتشبه أمها أكثر، وضفيرتها تطول حتى تقارب الأرض، كانت نحيلة جدًّا وشاحبة جدًّا، وكنت أُجلسها كل صباح بين ساقيَّ، وأفليها من القمل وأمشط شعرها.

وعندما أصابني الرمد، وكانت مريم قد اقتربت من السن الذي تصبح فيه امرأة كباقي النساء، بدأ نظري بالتلاشي، وفي أيامٍ صرت لا أرى إلا أشباحًا، والأجسام عندي غيوم تمضي ولا أقبض منها شيئًا، ولم أعد أستطيع فعل شيء سوى الجلوس عند باب السوق الصغير واستجداء المارة. وكانت مريم تقودني بيدي حتى السوق، ثم تعود لأخذي عند العصر إلى الخيمة، كنت أجمع بيسات قليلة وأحيانًا أعود بشيء من التمر فقط.

كنا جوعى، كل الناس كانوا جوعى، ومريم كانت تزداد نحولًا، لكنها مع ذلك كانت تكبر، وكنت أرى الحليب ينعقد في صدرها النحيل.

خفتُ عليها من الجوع، وخفت عليها من الدرب ومن المارة أكثر، ولأول مرة صرت أخاف عليها من الضحك، من ضحكتها الرنانة البعيدة، ضحكتها التي مثل ضحكتي تنطلق دون سبب إلا من الجوع وأدخنته ربما.

سألت سنجور جمعة، فأخبرني بقصة مريم بنت عمران، لكنني لم أضحك هذه المرة، بل أصبت بالفزع، فأنا رجل أعرف ربي، لكنني غير واثق بأن لي حظ عمران في ابنته، ثم إن عيسى أخي، لا يشبه الأنبياء في شيء، إلا ربما في حبه للمشي.

لكني فكرت لو أنني أخذت مريم إلى بيت البادري، قد تجد هناك طعامًا يقيها وجع الجوع وأمراضه، لكن با سنجور قال لي إني سأكون مُحاسَبًا أمام الله إن هي تنصَّرت، ونصحني أن ألحقها بخدمة بيت لوماه. قال: «على الأقل بتضمن روقة بطنها في بيت ناس مسلمين، والبيت كله حريم، والبيبي متعلمة وبتعلمها الصلاة والصيام وكم سورة، وعبد اللطيف لوماه، صاحب البيت، رجل شريف».

كنت أعرف ولجات جيدًا، لكني لم أكن أعرف الطريق إلى بيت لوماه، فأنا لا أذكر أنه كان من البيوت التي أحمل إليها الحليب، ولا أذكر أني سمعت بهذا الاسم من قبل، ولا أعرف ما الذي ستصنعه مريم في خدمة النساء هناك، ولا أعرف كيف ستقدر على لملمة ضحكتها وإخفائها في صدرها، فلا يضيق بها أحد منهم، ولا كيف ستتعامل نساء بيت لوماه معها، هل سيكنَّ طيبات؟ هل سيكن رفيقات بها؟

لكن با سنجور قال إن ذلك أفضل لها، وأنا كنت قد تعبت من عماي ومن جوعي وجوعها، فقلت لها: خذيني إلى السوق، فحاذينا السور حتى وصلنا، فقلت لها التفّي إلى يسارك، وخذيني إلى الباب الصغير بعد مسجد علي موسى، وهناك سألت عن بيت لوماه، فوصفه لنا أحد العتالين الذين أعرفهم، فمشت مريم على الوصف، لكننا ومع انتصاف النهار لم نصل إلى البيت.

صرت أستوقف الناس في الدرب وأسألهم، ومريم تقود عصاي وتدور بي في أزقة ولجات المتداخلة، حتى وجدنا رجلًا، سألناه، فمشى أمامنا وتبعناه، ثم أوقفنا أمام باب كبير. أمرتُ مريم بدقّه، فتناولت حلقة الباب بعد تردد، كانت كل دقة مثل ضربة من ضربات مدفع النوبة في صدري.

فُتح الباب، سمعت صريره كمِزَق في أحشائي، لكني ما وجدت بدًّا من تسليمها للمرأة التي كان با سنجور قد أخبرها عن مريم.

تشبثت مريم بردني، لكني أفلت من قبضتها، وقبضت عصاي وغادرتها، تركتها واقفة هناك، وخطوتُ خطوتين لا أكثر، ثم سمعت شهقاتها، والباب يغلق وراءها، وشعرتُ بوجع شديد في صدري، وبالدموع المرة تسيل داخل حلقي، وعيناي تكادان تلتصقان من شدة جفافهما.

أُغلِق الباب على مريم وشهقاتها، وأغلقت أنا قلبي فلم أعرف كيف أعود إلى خيمتي، فسرتُ أتلمس دربي بطرف عصاي، حتى

الباب الصغير، وهناك وجدني رجل من حارة الطويان، ناداني: «ود السيح»، لكني لم ألتفت إليه، ثم سمعته يناديني: «دلشاد.. دلشاد تعال خلني أوصلك». فوقفت، أخذ طرف عصاي، وتبعته حتى خيمتي.

سنجور جمعة

تتهمني مهيتاب أني السبب في جنون زوجها، ويعلم الله أن زوجها لم يكن بعقله في يوم من الأيام، حتى قبل أن تتزوجه، وأظن والله أعلم أن الجنون انتقل إليه من أمه، خوررزيه شمبر، التي اضطروا إلى تقييدها بالحديد، داخل حوش صغير بقرب طوي الراوية؛ لأنها كانت تهاجم الناس وتغرس أنيابها وأظافرها في لحمهم.

أما جنون ميرزا فكان من النوع الطيب اللطيف، فركضه على جريد النخل ليس بالأمر الخطر، ونادرًا ما هاجم أحدًا بحصيات حقيقية. أما حكاية هاني وشاه مريد فبريئة من ميرزا حسن كبراءة الذئب من دم يوسف، لكنني لن أقص عليكم حكاية يوسف وإخوته فأظنكم جميعًا تعرفونها، خاصة ما يتعلق بإخوة يوسف وسكين زليخة، وبدلًا من ذلك سأقص عليكم قصة شاه مريد وحبيبته هاني، التي يدَّعون أنها السبب في جنون ميرزا حسن، وهي حكاية تناقلها البلوش من فم إلى فم من ألف ألف سنة.

«كان شاه مريد ولد شاه مبارك، كبير قبيلة كاهيري، وكان فارسًا

يلعب بالسيف لعب، وكان عنده قوس قوي، وثقيل، مصنوع من الحديد، وما كان حد يقدر يحمله أو يستخدمه غيره، وكانوا يسمونه «سيد قوس الحديد».

الكل كان يتناقل قصص شجاعة شاه مريد، وعندما سمع عنه مير شاكر، خان الرند وكبيرها، استدعاه، واختبر شجاعته وذكاءه، وعندما وجده شجاعا، يلعب بالسيف لعب، وقوي يحمل القوس الذي لا يقدر عليه أحد، وذكي يعرف الشعر ومقامات الرجال، عيَّنه قائدًا لجيش الكاهيري.

وهما صغيران كان شاه مريد يلعب مع بنت عمه، هاني، التي تشبه ضوء القمر في لونها، وشعرها مثل الليل أسود، طويل ولا حد له، وخداها أحمران بلون الدم. أحبها شاه مريد، وخطبها له أبوه ما إن قاربت سن البلوغ.

لكن، وفي يوم من الأيام، وكان شاه مريد عائدًا من الصيد مع مير شاكر، وقفا ليرتاحا في في بلاد خطيبتيهما، لكن لأنه عيب عند البلوش أن يرى الرجل خطيبته قبل العرس، ذهب كل منهما لرؤية خطيبة الآخر، ليطمئن عليها، ويسألها إذا كانت تحتاج إلى شيء.

ذهب شاه مريد لزيارة خطيبة مير شاكر، فأحضرت له الماء النظيف في طاسة من الفضة، وشاه مريد الذي كان عطشان، شرب الماء كله دفعة واحدة، فمرض، أما هاني فقدمت لمير شاكر الماء في طاسة من الفضة، لكنها وضعت في الماء النظيف ورقة شجر، فصار

مير شاكر يتمهل في شرب الماء متجنبًا الورقة، وهكذا لم يمرض كما مرض شاه مريد، فأعجب مير شاكر بذكاء هاني وطمع فيها.

بعد مدة أقام مير شاكر وليمة كبيرة، تغنَّى فيها الشعراء بقصائد عن الشجاعة والشجعان، وعن الحروب والخيول والسيوف التي تلمع على رقاب الأعداء، وفي قمة نشوة قادة رجال القبائل، طلب منهم مير شاكر أن يقسموا بأرواحهم على عهود إن حدثت أوفوا بها.

فقال مير جادو إنه سيقطع رأس من يلمس لحيته في أي تجمع لعلية القوم، وأقسم بيبارج أنه سيقتل من يلمس حصانه، ومير هايبيتان أقسم أنه لن يرد لصاحبه أي ناقة أو جمل ينضم إلى قطيعه طوعًا، وعندما جاء دور شاه مريد المغرم بهاني، أقسم أنه لن يرد طلبًا لأحد في يوم زفافه. أما مير شاكر فأقسم أن لا يكذب أبدًا.

اختبر مير شاكر عهد مير جادو، فأوعز إلى ابنه الصغير أن يلمس لحية أبيه. في المرة الأولى حاول مير جادو تجنب ذلك وتجاهله، إلا أن مير شاكر حرَّض الولد مرة أخرى فلمس لحية أبيه، فلم يجد مير جادو بدًّا من البر بقسمه، فقطع رأس الولد الصغير أمام الحاضرين.

اختبر مير شاكر بيبارج ومير هايبيتان أيضًا، وفَعَلا ما أقسما عليه بالفعل، ويوم زفاف شاه مريد على هاني، وقرب انتهاء الحفل، وأمام كل الناس، طلب مير شاكر من شاه مريد أن يعطيه هاني.

صعق شاه مريد، فقد تخيل أن شاكر سيطلب قوسه الفريد المصنوع من الحديد، لكنه لم يتخيل أن يطلب منه حبيبته هاني،

فأصابه غمٌّ شديد، لكنه لم يستطع إلا أن يبرَّ بقسمه، لأنه إن لم يفعل فسيلاحقه العار هو وذريته إلى أبد الآبدين، فنحن البلوش لا نتهاون في الشرف والعهود، فطلب من شاكر أن يأخذ هاني ويغادر، وبقي هو في خيمة عرسه وحيدًا ومكسور القلب.

بعد أيام تزوج شاكر بهاني، أما شاه مريد فاعتزل الناس وقيادة الجند وقضى حياته في العبادة، ونظم القصائد في هاني، متغنيًا بجمالها ومتحدثًا بصراحة عن عشقه لها.

تناقل الناس قصائد شاه مريد فشاعت في كل بلوشستان، ما أغضب مير شاكر. حاول أبوه تحذيره ونصحه بالتوقف عن التغني بزوجة مير شاكر، لكنه بدلًا من ذلك، كتب قصيدة حول نصيحة أبيه.

يقول لي الشيخ مبارك:

اترك عزلتك يا مريد

عزلتك بلا معنى

لأجل زوجة شاكر الجميلة

لم تعد تجتمع بأصحابك

صرت تمشي كجثة

أعماك حب هاني

فكيف ستستمر على هذا الحال

فقلت لأبي العجوز:

أبي المبجل الموقر

لو أنك في مكاني

لتركت كل أصحابك

ولتوقفت عن الذهاب إلى الولائم

لفقدت عقلك

ولم تهتم للباسك

ولضممت يديك في حضنك

وبقيت في عالمك

أما أنا فأحيانًا أكون هناك معهم

وأحيانًا أكون هنا

مع وجعي.

بعد ذلك فكر شاه مريد في السفر إلى بلاد بعيدة وراء البحر لم يعرفها من قبل، فتبع قافلة حجيج تقصد مكة والمدينة، حيث قضى هناك ثلاثين عامًا ناسكًا متعبدًا.

يقولون -والله أعلم- إنه عاد بعد ثلاثين عامًا، إلى بلوشستان يلبس الخِرق والأسمال، وشعره الأشعث يصل إلى عند خاصرته، يقود فرقة من المتسولين، فوقف معهم أمام قصر مير شاكر يطلب صدقة.

قدمت الخادمات لكل متسول قصعة مليئة بالحبوب، لكن عيني شاه مريد كانتا مثبتتين على وجه هاني التي كانت تشرف

عليهن، انتبهت له هاني وعرفته، لكنها حاولت أن لا تظهر ذلك، إلا أن مير شاكر رأى اللمعة في عيني زوجته، فدعا المتسول إلى حضور مباراة في رمي السهام.

أثناء المباراة كان مير شاكر يراقب زعيم المتسولين، الذي كان يحاول أن يخفي اهتمامه بما يجري حوله، أما بقية القادة والفرسان وعلية القوم فكانوا ينظرون بازدراء إلى مظهره الأغبر القذر، متسائلين كيف لمتسول مثله أن يحضر مباراة في الرماية أو يعرف القوس والسهم.

أرادوا أن يسخروا منه أكثر فقدموا إليه قوسًا وسهمًا، لكن القوس لم يحتمل قوة ذراع مريد فتكسر، فقدموا إليه آخر فتكسر، وبعد القوس الثالث الذي تكسر أيضًا، بدأ الفرسان يشكون فيما إذا كان هذا المتسول هو شاه مريد نفسه الذي من قوته لا يحتمله إلا قوس وسهم من حديد. فرأوا أن يختبروا شكوكهم، فأرسلوا صبيًّا من صبيانهم، ليحضر قوس شاه مريد المصنوع من الحديد، والذي أهمل لأنه لا يوجد رجل قادر على حمله.

وعندما قدموا إليه القوس، دقق شاه مريد في تفاصيل قوسه، ولمسه برقَّة كما يلمس الأب طفله، وقبله وضمه طويلًا، ثم وبلطف سارت أصابعه على وتره المشدود، وكأنه عاشق يداعب وجه حبيبته، أو ربما أراد أن يتأكد من أنه بعد ثلاثين عامًا ما زال في حالة جيدة.

ثم فجأة خلع عباءة المتسول، وشمَّر عن ساعديه، وأخذ القوس

بقوة، ورفعه وكأنه لعبة، ووجهه نحو الأهداف المنصوبة، وأطلق منه ثلاثة سهام اخترقت تباعًا الثقب الذي أحدثه أول سهم.

عندها تأكد الحضور أنه شاه مريد، فاستوقفوه وأرسلوا إلى هاني ليعرفوا العلامات المميزة لشاه مريد، فأخبرتهم بعلامة تتذكرها من أيام لعبهم كأطفال أعلى فخذه الأيسر كان قد أحدثها سوارها وهما يلعبان، وأخرى عند حاجبه تركتها حصاة كان أحد الصبيان قد أصابه بها وهما يتعاركان بسيوف من أغصان الشجر، فتأكد الرجال من العلامات ومن أن ذلك المتسول هو شاه مريد.

طوال تلك السنوات لم يستطع مير شاكر لمس هاني، فكان كلما تقدم خطوة من فراشها جمد في مكانه، لا يستطيع أن يقدم رِجلًا ولا يؤخرها. لسنوات بقي على هذه الحال، حتى تبين له أن هاني ليست له ولن تكون، فأخبرها أنه لا يستحقها أحد إلا شاه مريد لأنه رجل عظيم ونبيل، فطلقها وأخلى سبيلها، مبديًا الندم.

ذهبت هاني إلى شاه مريد، وأخبرته أن شاكر قد عرف خطأه وطلقها لتعود إليه، وأنه بإمكانهما أن يكونا معًا الآن وإلى الأبد.

شاه مريد نظر إلى وجه هاني طويلًا، ثم ابتسم برقَّة معتذرًا، وقال يا هاني لقد رفعني الله ولم أعد أستطيع النزول عن تلك المنزلة. قال لها إنها كانت الوسيلة التي أوصلته إلى معرفة الله، وإنه منذ عرف الله ما تعلَّق قلبه بغيره، ثم استأذنها وانصرف.

وفي صباح اليوم التالي ذهب واختار ناقة بيضاء ناصعة البياض، وركبها واختفى في الصحراء إلى الأبد».

الآن وقد قصصت عليكم قصة هاني وشاه مريد، خبروني بالله عليكم، كيف لميرزا حسن أن يشبه شاه مريد؟ في القوة أم في مخافة الله؟ ومهيتاب المجنونة كيف بالله عليكم لها أن تشبه هاني؟ في جمالها أم في حكمتها؟ احكموا بأنفسكم على هذين الضالين، اللذين لا يعرفان الله.

بالله عليكم، هل شاه مريد وهاني من أصاب ميرزا حسن بالجنون؟ أم أنه الجنون، يرثه الناس عن آبائهم وأجدادهم، ثم يتهمون به سنجور جمعة، وكأن سنجور جمعة هو الله رب العالمين. أستغفر الله، أستغفر الله.

دلشاد

في خيمتي جلست مذهولًا، هل كان ما فعلته صحيحًا أم أني استعجلت وأسلمت ابنتي إلى من لا يخاف الله ولا يرحم؟ ترى هل ستأكل عندهم أم ستجوع؟ هل ستنام مطمئنة أم ستتعود الخوف؟ وإن بقيت هنا معي، هل ستجد ما يدفع عنها الجوع والضرر؟

سآكل أنا أي شيء، حتى الأوراق والجذور، سأطحن نوى النبق، وسأصنع من هريسها عصيدة، وسيتصدق عليَّ الناس، أعرف أنهم سيفعلون، لكن هي، وفي عماي هذا، هل ستجد من يحميها من الأيادي ومن العيون؟

كثيرة أمهاتها، وإخوانها وأخواتها في كل حارات مسقط، لكن جوع مسقط شديد، وحليب الأمهات يُنسى عند تقاسم اللقم.

كنت أشعر بوهن، لكني حبوت على قدمي، حتى خرجت من الخيمة، أطلب عيسى كي أخبره عن مريم وما صنعته بها، ربما كنت أريده أن يقول لي: «لا بأس، فعلت الصواب يا أخي، مريم ستكون بخير هناك». كنت أريده أن يقول: «أسوأ أحوالها هناك أفضل من

أفضل حال لها هنا». كنت أريد شخصًا آخر يبدد الصوت الذي في رأسي، هذا الذي يحمل سوطه ويجلدني طوال الوقت دون رحمة، وكأنني ثور من ثيران الزيجرة.

بصعوبة استندت إلى عصاي، وما إن وقفت حتى دارت بي الدنيا، فاختلطت أمامي الظلمة، ثم هويت على الأرض.

سمعت صوت عيسى، وشممت رائحة أنفاسه، حاولت فتح عينيَّ ولكن الدوار لم يزل، أغمضتهما ثانية، ثم فتحتهما ولم أرَ سوى الظلام.

- زين فتحت عيونك، حسبتك ميت.

- وين نحن؟

- نحن في الميشن، شفتك طايح قدام الخيمة، والناس متجمعة عليك كما الذباب، حملتك فوق الحمار وجبتك هنا.

- مو نسوي في الميشن؟

- مو نسوي في الميشن بعد؟ الدختور يشوفك، أنت مريض دلشاد، يمكن يعطيك دوا.

أغمضت عيني ولم أرد على عيسى. بعد قليل سمعت صوت خطوات تقترب، ثم شعرت بجسد عيسى يبتعد، ويقترب جسد آخر.

سمعت صوتًا غريبًا يأمرني أن أفتح فمي، ففتحته، ثم حطت يد على جبيني، وامتدت أصابع ففتحت عيني، وقلبت جفني، ثم

شعرت بشيء بارد يوضع على صدري وصوت آمر: «خذ هوا، طلع هوا»، فارتفعت عظام صدري وانخفضت. ثم شعرت بأصابع تنقر على بطني فصار يرد الصوت كالطبل: دم... دم... دم، وصار يضغط عليه من اليمين والشمال، وأنا أتلوى ولا أعرف إن كان الألم من وجع بطني أم من ضغط أصابعه عليه، ثم قال لعيسى إن ما بي شيء إلا الجوع.

سألني إن كنت أرى شيئًا، أي شيء، فجاوبته بعد تردد، أني أرى ظلال أصابع تتحرك أمام عيني.

قال لعيسى: «أخوك عنده تراخوما، رمد، ويمكن خلاص، ما بيشوف، لكني بعطيك دوا، مرهم، اغسل يدك زين، افتح عينه كذا، وحطه داخل، بس أول اغسل يدك، زين؟» «الحين بيعطوه البشاكير أكل، لكن في البيت بعد لازم ياكل... لازم تعطيه أكل».

لا أتذكر متى أكلتُ آخر مرة.

قبل أن آخذ مريم إلى بيت لوماه، كان الجراب الذي نحتفظ فيه بالتمر قد فرغ، وكان آخر ما وضعته في فمي فنجان قهوة من عند با سنجور، عندما ذهبت مع مريم لتقبيل يديه وأخذ بركته، متى كان ذلك، قبل يوم أو يومين أو أكثر؟

تركوني نائمًا على الأرض، وسمعت الطبيب يأمر لي بأكل وشرب، وعيسى لم يفارقني، تعلَّم كيف يغسل يديه وكيف يضع لي المرهم في الصباح وقبل أن أنام.

بقيت في المستشفى يومًا وليلة، ثم جلب عيسى حمارًا في صباح اليوم التالي، وأركبني عليه. كان الدوار قد تلاشى من رأسي، لكن الألم في قلبي لم يخف ولو قليلًا، حاولت أن أخبر عيسى عمَّا حدث لمريم، كيف تعلقتْ بردني، وكيف تركتُها ليد تلك المرأة تجذبها بقوة وتغلق عليها الباب. حاولت أن أخرج الكلام من فمي، لكنه علق في جوفي، فبقيت أنوس على ظهر الحمار حتى وصلت الخيمة.

تقاسم عيسى معي حساء عظام السمك والتمر واشترى لي الحليب، واهتم بمداواة عيني، فنظفها ووضع المرهم فيها مدة أسبوعين، وعندما رأيت وجهه لأول مرة بوضوح ضحكتُ، فألقمني تمرة أسكتتني.

أبصرت، فلم أحتمل البقاء في الخيمة، قلت سأذهب إلى بيت لوماه، وأسترجعها، وهم بالتأكيد لن يقولوا لا، أنا أبوها وأولى بها، وعيناي الآن صحيحتان، وأستطيع أن أدفع عنها بلاء الدنيا كلها.

قطعت الدرب ركضًا إلى ولجات، واستدللتُ على البيت بإشارة من أحد العابرين، وقفت أمام الباب لاهثًا، ثم استجمعت نفسي، ومددت يدي إلى حلقة الحديد، دققته، فعاد إليَّ صوت المعدن، فدققته ودققته، ولم يفتح لي، وقفت أمامه لساعات، أدقه وأدقه، ثم أذهب وأجيء أمامه ثم أعاود الدق.

بقيت هناك، واقفًا أمامه كمسمار صدئ، لكن لم يفتح لي أحد، وضعت أذني على الباب، ولم أسمع أي صوت داخل البيت، امتدَّت

يدي لمعالجة خوخة الباب، لكنها كانت مغلقة من الداخل، مثلها مثل الباب الكبير.

وعندما تعبت من الوقوف والدق، جلست علَّ أحدًا يدخل أو يخرج منه، لكن الباب ظل مغلقًا، وكأن البيت قد هُجر.

عدت إلى الحارة وحيدًا كما غادرتها وحيدًا، لا يد مريم في يدي، ولا ظلها على الأرض يماشي ظلي.

قال لي سنجور جمعة: «من يدخل بيت لوماه برضاه ما يخرج منه إلا برضاهم».

وجلس يقص عليَّ ثانية قصة مريم بنت عمران، ثم ختم كلامه: «خلِّي مريم تكبر بينهم، بيصونها البيبيات، يمكن يعلمنها الأدب والدين».

«هذه بنتي يا سنجور، بنتي، أنا أريدها، وبعدين أي علم وأي أدب تحصله مريم بنت دلشاد يا سنجور؟».

وماذا أفعل أنا هنا من غير مريم؟ كيف سأحتمل حياتي ومسقط وعيناي لا تريانها؟

بعد أن استعدت عافيتي ونظري كاملًا، عدت إلى العمل مع عيسى في السوق، كانت رجلي في السوق الخارجي، وعقلي في ولجات، أراقب الداخل والخارج من الباب الصغير، ثم لم أعد أحتمل المسافة بين السوقين، فذهبت إلى العمل في السوق الداخلي، قريبًا من ولجات، علِّي ألمح ما مويزي أو أحد خدام بيت لوماه.

سألت عنهم، عن سخي وعن ما مويزي، لكن أحدًا لم يدلني عليهم، ولم أصادف منهم أحدًا، سألت عن دكان لوماه، ورابطت أمامه، لكنني لم أرَ فيه إلا صاحب الدفاتر والعتالين. فصرت متى ما أنهيت عملي في السوق، أتسرب إلى ولجات وأحوم حول بيت لوماه، علِّي أصادف أحدًا يدخل أو يخرج منه، وأدق الباب بحلقة الحديد وقبضة يدي، علَّ أحدًا يفتحه لي.

ذات يوم وبعد أن تعبت من دق باب بيت لوماه، ذهبت إلى الفرضة فلربما وجدت في حركة الناس والسفن هناك ما يسليني ويبعدني عن التفكير في مريم، فسمعت بعض الرجال يتكلمون عن سفينة تغادر إلى صور ومنها إلى الهند، وأنها ستبدأ بالتحميل صباح الغد.

عملت عتالًا في رصيف الجمرك لثلاثة أيام، أنقل البضائع من الرصيف إلى الماشوات، التي ستنقلها بدورها إلى السفينة، ثم رأيت النوخذة يتمشى على سطح السفينة، ويتكلم مع السكاني، فتركت الماشوة وصعدت السفينة.

قلت له:

«خذوني معكم، أساعد في كل شي، أحمل، وأغسل، وأقدر أتعلم الطبخ، وما أريد شي، ولي روقتي بس».

لم يرد النوخذة عليَّ، بل أدار إليَّ ظهره ومشى، لكنني تشبثت بذيل دشداشته وبكيت. في البداية مثلت بكائي لأستعطفه، لكن البكاء صار حقيقة عندما نظر إليَّ الرجل وتلاقت أعيننا.

رأيتني كلبًا يتبعه، والرجل يرفسه، ورأيت مريم تتوارى باكية، تسحبها العجوز، وتدخلها البيت عنوة وهي تستغيث بي، ورأيتني أدق باب بيت لوماه بكل قوتي ولا يفتح لي. تضاءلت كثيرًا، فأفلتُّ لدشداشة النوخذة، وتكوَّمت على نفسي في نشيج طويل.

ولجات

مريم دلشاد

سرنا طويلًا من الحارة حتى ولجات محاذين السور الكبير، عبرنا السوق ووصلنا عند المسجد، ثم دخلنا من الباب الصغير إلى ما وراء السور لأول مرة. مشينا في أزقة ضيقة، على جانبيها بيوت بيضاء، مبنية من الحجر والطين ومصبوغة بالنورة، وكان للبيوت نوافذ من الخشب، وعلى النوافذ قضبان من الحديد، وكانت جدرانها عالية، فلا ينكشف شيء من داخلها على المارة، ولها أبواب كبيرة من الخشب المنقوش، وأبواب أصغر يدخل منها الناس ويخرجون منحنين.

البيوت في ولجات كبيرة ولا تتشابه، فمشينا كثيرًا دون أن نستدل على البيت، لم نعرف أيها بيت لوماه حتى سألت رجلًا يحمل في يديه دفاتر وعصًا، فمشى أمامنا ثم أشار إلى بيت على اليمين، وقال: ذاك بيت لوماه، واختفى في الأزقة.

وقفت أمام الباب، مترددة في دقه، لكن أبي أمرني بنفاد صبر، فوقفت على أطراف أصابعي كي أصل إلى حلقة الحديد.

فتِح الباب الصغير، وخرج رأس امرأة، فحصتنا بعينيها ثم سألتْ أبي إن كان هو دلشاد، فهز رأسه، عندها امتدت يد سمراء نحيفة وقبضت على معصمي، ولم يُجدِ تشبثي بردن أبي شيئًا.

قالت لي إن اسمها ما مويزي، وأمرتني بالدخول. ترددت، فجذبتني، خطوت العتبة وعيناي إلى ظهر أبي، لكنها أغلقت الباب، وأمرتني بأن أتبعها، فمشيت خلفها، وقلبي يصيح وراءه.

في البداية لم أرفع رأسي لأعرف إلى أين كانت تأخذني، لكن بعد قليل غلبني الفضول، فرأيت أمامي ساحة أرضيتها من الرمل النظيف، يشقها ممر من الحصى الصغير، مثل ذلك الذي نفرشه في بيوتنا التي نبنيها في الوادي عند اللعب. على جانبي السور، كانت هناك أشجار ريحان، وكان المكان يفوح برائحته.

مشينا قليلًا حتى وصلنا إلى باب آخر، فتحته المرأة، وجرتني إلى داخله، فوجدت نفسي داخل ليوان تحيط به غرف ذات نوافذ خشبية من كل جانب، ويتوسطه مجلس مؤثث بالوسائد، ووضع في وسطه خان صغير. كانت الممرات المرفوعة على عقود وأقواس، تحاذي الغرف وتحيط بالمجلس، وتفضي في الطرف الآخر إلى سلم، اضطررت إلى رفع رأسي عاليًا لأرى أين يذهب، فوجدت غرفًا في الطابق الثاني مثل تلك التي في الأسفل، ولها نوافذ تفتح على ممر له سياج قصير من الخشب يطل على الليوان.

تعلَّقت عيناي بالمرايا المعلقة بين الغرفة والأخرى، وبالنوافذ والأسقف العالية للممرات، والمدعمة بأنصاف من جذوع النخل.

لم يكن الليوان مسقوفًا، فكانت الشمس تسكب ضوءها من الأعلى، وتنير الأرض المبلطة بالحصى الكبير المستوي، والذي كاد من شدة نظافته أن يلمع تحت ضوء الشمس.

مشيت مأخوذةً بجمال المكان، ورائحة البخور التي تتعالى من مبخرة موضوعة على الخان وسط المجلس.

كنت أرتجف، ولا أعرف إن كانت رجفتي خوفًا أو دهشة، مذهولة عن أمري، غير قادرة لا على البكاء ولا على الضحك.

ارتقت ما مويزي السلم، وأنا أجرجر ساقي وراءها حتى وقفت عند عتبة باب يتوسط الممر، ودقته: «جايبة بنت دلشاد معاي». انتظرتْ قليلًا حتى سمعت صوت نحنحة من الداخل، ثم خطت داخل الصفة وهي تجرني بيدي.

كان الضوء في الحجرة خافتًا وكنت أرتجف، ورأسي يغشاه دوار خفيف من الجوع والمشي كل هذه المسافة من حارتنا إلى ولجات.

نكَّست رأسي، أغالب تعبي ودهشتي والدموع التي كانت تسحُّ بصمت على خدي، لكني ما إن سمعت صوتًا رفيعًا يأمرني بالاقتراب، حتى رفعت عيني، فرأيت امرأة ممتلئة، تجلس على كرسي وتضع ساقًا على ساق، وفي قدميها قبقاب من الخشب المنحوت، وخلاخل عريضة تحكم القبض على كاحليها، في يديها أساور كثيرة برؤوس مدببة، وفي أصابعها العشر خواتم، وعلى رأسها وقاية خفيفة، تغطي شعرها المفروق عند المنتصف في جديلتين ثخينتين وطويلتين ولامعتين بالدهن، وعلى جبينها حلية

كبيرة من الفضة، وسلاسل تمتد على جانبي رأسها، وفي طرف كل سلسلة جرس صغير، تتعالى منه الأصوات كلما تحركت، وكانت هذه الأصوات، وأدخنة الجوع، تصيبني بالدوار، فصرت أميل في وقفتي وأترنح.

أمرتني المرأة ثانية بالاقتراب، وعندما اقتربت، فاحت منها روائح الورد والصندل، وتصاعدت مني روائح الجوع والخيمة وأدخنة المزابل، فأشاحت بوجهها عني، وأمرت ما مويزي بأخذي إلى الحمام وإطعامي.

بوهن مشيت وراء ما مويزي إلى الحمام، حيث تلقفتني أيادي نساء كثيرات خرجن من أماكن لم أرها، فَرَكْنَ جسمي الصغير بالسِّدر حتى أوجعنني، وسكبن عليَّ ماء كثيرًا لا أعرف من أي بئر جلبنه، ثم لففنني في قماشة عريضة، وأخرجنني إلى الحوش، ووضعن على شعري الغسل والسدر ليقتل القمل، فجلست تحت الشمس، وتناوبن على فلي شعري وتنظيفه، ثم أدخلت الحمام مرة أخرى، وفركت بالسدر والياس.

خرجت من بين أيديهن، ورائحة الياس والسدر تفوح مني، وشعري ممشط بالدهن، ومعقوص في ضفيرتين، ألبس ثوبًا طويلًا وسروالًا وعلى رأسي لُفَّت وقاية.

أشارت المرأة السوداء بأصابعها النحيلة إلى طرف الحوش، فجرجرت ساقي بما تبقى من قوتي، وأسندتُ ظهري إلى الجدار وجلست.

بدأت الوجوه بالتلاشي من أمامي، وكان رأسي يسقط على صدري من التعب والجوع، حتى أحضرت امرأة سمراء قصيرة ماعونًا فيه رز ومرق سمك.

لم أكن قد رأيت رزًّا من قبل في حياتي، ولم أكن أعرف طعمه، لكن جوعي ما كان ليسمح لي بالتفكير في ما أحب وأكره. وعندما شبعت تنبهت لطعمه، كان لذيذًا، وأظن أن هذا كان آخر ما فكرت فيه قبل أن أستغرق في النوم جالسة في مكاني، ودون أن أغسل يدي.

علا صوت المؤذن لصلاة الفجر، فتحت عيني، فرأيتني مستلقية بين نساء كثيرات في غرفة، لا يتسلل إليها الهواء ولا الضوء إلا عبر نافذة صغيرة مقضبة، كان شخير بعضهن يتعالى، وكانت إحداهن تغمغم بشيء ما في نومها.

بقيت في مكاني ساكنة، لا أعرف ما عليّ فعله، حتى استيقظت ما مويزي، وسمعتها توقظ الأخريات، ثم قامت فقمت وراءها.

تبعتها إلى البحر، وهناك أرتني مكان قضاء الحاجة، وعندما انتهينا صادفنا بقية النساء قادمات باتجاه البحر، وفي البيت أدخلتني الحمام، غسلتني وعلمتني الوضوء، والكلام الذي يقال في الصلاة.

صليت كما علمتْني، دون أن أفهم كلمة من الكلام الذي كنت أردده وراءها، ثم أخذتني بيدي إلى طرف الحوش، وأدخلتْني المطبخ، حيث وجدتُ امرأة قصيرة، تخبز وتسكب السمن على وجه الخبزة، وتطويها وتناولها لما مويزي، التي ناولتني إياها بدورها، فوضعتها في فمي دون كلام.

عند الضحى، أخذتني ما موزي إلى حجرة المرأة ذات القبقاب مرة أخرى، فوجدتها جالسة على الكرسي كما تركتُها البارحة، لكنها هذه المرة ابتسمت عندما اقتربتُ منها، وقالت: «كذا صرتي حريمة»، وأمرت ما موزي بالخروج.

أشارت إليَّ أنِ اقتربي، فاقتربت، قالت ارفعي عينيك، فارتفعت عيناي ولاقت عينيها، رأيت فيهما شيئًا لم أفهمه، لا هو حب ولا هو كره، ثم وقفت فجأة فرنَّت أجراس حليها، اقتربت مني وفحصت جسدي بكفها، ضغطت على صدري وتلمَّسته وكأنها تفتش عن شيء ما، لكني لم أكن أحمل شيئًا بين طيات ثيابي، ثم عصرتْ لحمي بأصابعها، فأحسست بدمي يفور وكدت أن أعضها، ثم فجأة اجتاحتني موجة من الضحك لم أقدر على صدها، فصرت أضحك وأضحك حتى أوجعني بطني، التويت عليه مجاهدة للاحتفاظ بالهواء في رئتي، ثم سقطت على ظهري، وتقلبت على البسط والمرأة واقفة مبهوتة في مكانها.

صرخت طالبة الطاووس: «خذيها وعلميها الأدب في حضرة الأسياد».

جرجرتني الطاووس خارج الحجرة، وضحكاتي تملأ ممرات البيت، ثم الدرج الذي أنزلتني منه، ثم ملأت الجحر المظلم تحت الدرج، حيث حشرتني وأغلقت الباب بالقفل من الخارج، عندها توقفتُ عن الضحك، وبدأت أشعر بالخوف.

كان المكان ضيقًا، فانطوت ساقاي حتى كادتا أن تلمسا رأسي،

أما ذراعاي فبقيتا ملتصقتين بجذعي. قضيت أيامًا بلا حركة، حتى شعرت بظهري يكاد ينقصف من شدة الألم، أما أصابعي فكنت أحركها بصعوبة كلما تسلل إليها الخدر.

محشورة في ذلك الجحر، بلا طعام أو ماء، كان العطش يتحول إلى دقيق حجارة يملأ فمي حتى كاد يخنقني، والجوع صار ضبعًا نهمًا، يأكلني من الداخل ولا يشبع.

مع الوقت تسرَّب كل ما لديَّ من قوة، فما تبقى منها ما يكفي للضحك مع الفئران، وعندما جاءت لتلتهمني لم أستطع إبعادها عني، فبدأت بالصراخ، صرخت وصرخت، حتى بدا لي أن الجدران تصدَّعت من قوة صرخاتي، ولكن أحدًا لم يستجب لي، صرخت وصرخت، حتى أحسست أن روحي ستخرج من جسدي.

تهاويت في نوم طويل، وإذا بها مويزي تهزني، وعندما لم أستيقظ صفعتني، شعرت بصفعتها لكني كنت أضعف من أن أفتح عيني، سحبتني إلى الممر الضيق الذي كانت الشمس تدخله من فتحات على جانبي السقف العالي، وأسندتني إلى الجدار، وغسلت وجهي بالماء وهي تتمتم بكلام لم أفهمه.

عندها فتحت عيني قليلًا، ورأيتها كالطيف تقرب الماء من فمي، وتبلل شفتي به، فتحت فمي المتقرِّح من العطش لأعبَّ منه ما استطعت في شربة واحدة، فسال غزيرًا على جانبي فمي وبلَّل نحري.

تركتني وجسدي لا يملك من القوة ما يحركه، ثم عادت بصحن

خبز وطاسة من اللبن، وصارت تغمس الخبز في اللبن، وتصنع منه كريات صغيرة تلقمني إياها.

لم أعرف كم بقيت في بيت العقاب ذاك، لكني بقيت مسنودة إلى الجدار لساعات، استعدت فيها القليل من طاقتي، وشعرت بأنه لا فرح ولا جوع ولا خوف ولا شيء في هذه الدنيا سيضحكني مرة أخرى.

جاءني صوت أبي، وهو يطمئنني ويقول إني سأكون في مأمن داخل بيت لوماه، وأنا لم أكن أعرف لوماه هذا، قال لي بأني سأكون بنتًا من بناتهم، وأنا لم أجد بناتًا هنا، بل سيدة قاسية وعبدات متواطئات، قال لي إنهن سيهتممن بي، وإني لن أجوع، فما عرفت اهتمامًا، بل ذقت جوعًا لم أذق مثله في حياتي.

سألته مقابل ماذا؟ قال لا شيء. لم أفهم اللاشيء هذا، فكل ما كنت أفعله في حياتي كان شيئًا مقابل شيء.

عند الظهر عادت ما مويزي لتأخذني إلى الحمام، كنت أترنح في خطواتي، لكني كنت أملك من الطاقة ما يكفي كي أدعو على الطاووس والمرأة ذات القبقاب والأجراس، لعنتهما في سري مرارًا، ودعوت عليهما بموت عاجل وشنيع، ودعوت على أبي الذي تركني ولم يعد للسؤال عني، ودعوت على ما مويزي وعلى سنجور جمعة وكل شخص صادفته في طريقي إلى بيت لوماه. في داخلي كنت أشتم بالبلوشية والعربية، بكل الشتائم التي علَّمتني إياها دروب الحارات وبطون الوديان، والتي صاغها الفقر وأنطقها الجوع والقهر.

سكبتْ ما مويزي الماء عليَّ مرة أخرى، وفركتني بالسدر، وألبستني ثيابًا نظيفة، ثم وضعت أمامي رزًّا وسمكًا، فأكلته بنهم كالمسحورة، ثم أوصلتني ثانية إلى غرفة البيبي.

«إن كنتِ بنت زينة، بتكوني خادمتي، وبتنامي معي هنا، وبتخدميني، من غير ضحك ومن غير هذرة».

قلت: «هي والله»، كما علمتني ما مويزي، وطأطأتُ رأسي، وهززته موافقة.

هكذا صرت خادمة البيبي الخاصة، التي تفعل لها كل شيء، دون كلام أو ضحك، دون اعتراض، ودون حتى أن ترفع رأسها.

عند ظهر أحد الأيام، وكانت البيبي نائمة على بطنها، وأنا منحنية على جسدها الأبيض البض، أدهنه بخليط غليظ من الكركم والصندل والشورانة، حتى يزداد بياضًا ونعومة، دخلت ما مويزي، وأبلغتها أن أخاها عبد اللطيف قد عاد من سفره، وأنه سيصل بعد قليل.

بحركة عجلى دفعتني عنها، حتى كدت أن أقع من على الكاتلي، وارتدت ثيابها دون مساعدة مني، وركضت إلى باب البيت الكبير تنتظره، وأنا وراءها تتبعنا بقية الخادمات. وما إن فتح سخي الباب، حتى دخل رجل كبير، أطول من أبي بكثير، وأعرض من كل رجال الحارة، يرتدي دشداشة بيضاء نظيفة، وعمامة بيضاء بأطراف منسولة، يتمنطق خنجرًا وعلى كتفه سباعية، قبَّل رأس البيبي فقبَّلت يده.

كانت البيبي ضئيلة بالقياس إلى أخيها، أما أنا فلم أكن أُرى من خلفها، فتسللت من وراء ظهرها لأراه، وقعت عيناه عليَّ، فتمسمرتُ في نظرته الطويلة وهو يفحصني من رأسي حتى أصابع قدمي.

شعرت برجفة تجتاحني، وبدأت موجة من الضحك تتشكل في بطني، لكنها لم تصل إلى رأسي، حاولت أن أتشاغل عنها بالنظر إلى قدمي الرجل الهائل، إلى نعاله الزنجبارية الجميلة التي لم أرَ رجلًا في حارتنا أو حتى في السوق يلبس مثلها.

ثم رفعت عيني مرة أخرى، أبحث عن عينيه، حتى لقيتهما. كانت عيناه غريبتين، صافيتين مثل مرآتين، ووجدتني مرسومة فيهما، أذهلتني ضآلتي في عينيه، فتحولت ضحكتي إلى أدخنة حارة حرقت عيني، فسحَّ الدمع على خدي.

كان فمي مفتوحًا، ولكن دون أن أطلق أنَّة واحدة، ودون أن أعرف لماذا كان كل ذلك الدمع.

دلشاد

هربت، أعرف أني جبان، وأني هربت من مسقط، ومن الحارة، ومن اسمي، ومن مريم. هربت، وأنا لا أبتغي إلا نجاتي من تلك اللحظة اللعينة، التي سلَّمت فيها مريم ليد المرأة العجوز.

هل كنت أعرف؟ طبعًا كنت أعرف، ما فائدة الإنكار؟

أنا بِعتُ ابنتي، اغفر لي يا الله، أنا بعت مريم، لأجل أن تتستر وأن تجد ما تأكله.

كنت أبًا أقلَّ حتى من أبي، الذي مات وهو يبحث عن صرته المدفونة في مكان ما من ذاك السيح المقفر.

هو مات قبل أن أولد، فلم يعرفني ولم يعرف ما سيحدث لي، أما أنا فبعتها، سلمتها بيدي لتلك المرأة، وتركتها هناك. سلمتها ليد أناس أجهلُ ما سيصنعون بها، مطمئنًا إلى أن سنجور جمعة يعرف.

ما الذي يعرفه سنجور جمعة؟

قصص الأنبياء، كبش إبراهيم، ودود أيوب، وحوت يونس،

ومريم التي حملت من غير رجل. آخ يا مريم، هذا الذي أخافني أكثر من أي شيء آخر، أن تحملي، مثل مريم أم عيسى، من غير رجل، لكن من سيصدق أن ذلك ممكن؟ وأنه من عند الله؟ وأن ابنك سيكون نبيًّا وسيخلق الطير.

وأنا أكثر ما أخافه هو أن تمتد يد رجل غريب إليك، فيأخذك غصبًا، وتحبلين، فتصبحين منبوذة وملعونة مثل جدتي. لا يا مريم، لا، لن أطيق ذلك، ولن أغامر به، ولن أقبل بأن نصبح سلسالًا من اللقطاء.

لكن قلبي الآن يأكلني، ولم أعد متأكدًا إن كنت قد فعلت الصواب، فما يدريني، إن كنت حميتك أم أني عرضتك بذلك لما هو أدهى وأمرُّ؟

غادرت مسقط هاربًا من كل شيء، منك ومن نفسي، ومن الجوع، ومن حارتنا البائسة وألسنة الناس، ومن أبي الذي لم أعرفه، ومن وجه نورجيهان الذي ينام معي في الخيمة كل ليلة والعتب في عينيها.

تركتِ السفينةُ مرفأ مسقط قبيل الظهر، نشرت أشرعتها فسبحت بخفة على وجه الماء، لكن وما إن دخلنا البحر، واختفى المرفأ والفرضة وبيت العَلم، وما تبقَّى من مسقط غير الجبال، حتى بدأ الموج يلعب بالسفينة، وبدأ رأسي يلفُّ ويلف، وشعرت بشيء يتعاظم في داخلي، فخلتها ضحكة ستتصاعد، ولأول مرة يفرحني تكوُّن ضحكتي، التي تأتي بلا مناسبة ولا قياس، لكنها توقفت عند

بطني ولم تتحرك إلى رئتي، وخرج بدلًا منها قيء أصفر مرٌّ، لم ينقطع إلا ونحن نحاذي شاطئ قلهات.

عند قلهات رفعت رأسي، ورأيت بيوتًا مهدمة، وأطلال بناء عظيم، وسمعت رجلًا يقول: هذه قلهات وذلك ضريح بيبي مريم. التقطت الاسم، وسألته: تقول بيبي مريم. قال: نعم، ذلك ضريح بيبي مريم. فصرت أردد الاسم كالمذهول، بيبي مريم.. بيبي مريم.. بيبي مريم، أردده وكأني أسبِّح به، أو كأني أقدم النذور عند الاسم، وبقيت هكذا أردده وعيناي معلقتان بذلك البناء البعيد لا تحيدان عنه.

غابت قلهات، وغابت بيبي مريم، وشعرت مرة أخرى بذلك الخواء، الذي نهش صدري عندما تركت مريم عند الباب، شعرت أني أودعها مرة أخرى، فتركت حاجز السفينة، ومشيت مترنحًا حتى الصارية، لففت ذراعي حولها، وأغمضت عيني، فسالت دموعي. ثم صارت حركة السفينة أكثر عنفًا، ففتحت عيني، وإذا بالموج يلطم حواف السفينة من كل جانب، فيغسل رذاذه المتطاير وجهي، فاختلطت ملوحة دمعي بملوحة ماء البحر. بعدها شعرت بجرأة أكبر، فأفلت الصارية، لكني أبقيت ظهري مسنودًا إليها، ووقفت هناك مذهولًا وأنا أشعر أن البحر يندلق كله في صدري فيغسله.

ساعدتني الشمس والريح في الاغتسال، نعم شعرت بذلك، أني أغتسل تحت صلي الشمس وأنا واقف على سطح السفينة دون غاية أو جهة.

كنت أغتسل دون ماء، لكني ما كنت أعرف ما الذي يتراكم على روحي ويثقلها حتى أغتسل منه؟ أي إثم ارتكبت في دنياي يا الله؟ أي إثم هذا الذي ينجس روحي؟

أنا لم أزنِ ولم أعرف في حياتي امرأة غير نورجيهان، ولم أشرب الخمر ولم أعرف أنها توجد إلا عندما عرفت أنها السبب في جنون شنتوه، الذي يلف السوق بعينين محمرتين، وشعر منكوش، وفي يده مقشة يكنس بها الدرب بين صفتي دكاكين السوق الخارجي، شنتوه الذي يتعمد الصبية العابرون إغاظته، فيكشف لهم مؤخرته، ثم يركض وراءهم ويرميهم بالحجارة.

وأنا لم أسرق، ويعلم الله، أني بتُّ أيامًا طويلة دون أكل، ولم يوجد مال، لا حلال ولا حرام، في حارتنا أو الحارات المجاورة، كي أسرقه، فأصبح لصًّا، سارقًا قوت غيري.

كنا كلنا جوعى، ومن كان محظوظًا وزادت عنده دجاجة أو بيضة، يسبقنا الحصيني إليها في أغلب الأحيان فيسرقها قبلنا.

لم أؤذِ أحدًا، حتى بقر البانياني دارماداس كنت مخلصًا لها، ولم أقصر في إطعامها يومًا، ربما اختلست تمرة أو تمرتين من شدة الجوع، وربما مصصت ضرعها مرة عندما غلبني خواء بطني، لكني لم أفعل أكثر من ذلك. وحتى عندما كنت في مستشفى الإرسالية وعرض عليَّ أن أخدم في بيت البادري رفضت، رفضت يا الله حتى لا يقولوا إني تنصرت وغيرت ديني، لكن كيف لي أن أغير ديني وأنا لم أصلِّ أبدًا، وحدي أو وراء أحد، ولم أتعلم حتى سورة واحدة من القرآن،

وكل ما أعرفه منه قصص سنجور جمعة عن الأنبياء ومصائبهم وصبرهم.

عند الغروب، رأيت الشمس تسقط في البحر، وتترك وراءها ذيولًا حمراء على الماء، وكأنها سفحت نفسها عليه من شدة الحزن، هل كنت أراها أم أني كنت أرى نفسي في صورتها؟

ربما بقينا في البحر يومًا وليلة، ولكن عندما وصلنا صور كنت قد بدأت في استعادة نفسي، ولملمة ما تبقّى من قوتي، فوقفت حائرًا لا أعرف ما عليَّ فعله على سطح السفينة، والجميع يتنادى لأمرٍ ما، ينكسون الأشرعة أو يعيدون توجيهها لندخل الميناء.

رأيت خورًا هلاليًّا، عرفت من صريخ البحارة وهم يشيرون إليه أنه يسمى خور البطح. مرفأ نشيط، ممتلئ بالسفن والقوارب، وعلى جانبيه ورش لبناء السفن. وبعدها يأتي الساحل الرملي الذي تقوم في شرقه العيجة، كما أخبرني أحد المسافرين الذي وقف إلى جانبي وبان الشوق واللهفة على وجهه، فعرفت أنه من أهل البلاد.

أشار الرجل إلى الضفة الأخرى، وقال: «سكيكرة» بفرحٍ نطقت به عيناه قبل فمه، فعرفت أنه يسكن تلك الحارة دون سواها، من الحارات المعمورة ببيوت بيضاء صغيرة وكبيرة، مبنية بالطين والحجارة ومطلية بالنورة.

وفي الجهة الأخرى كانت هناك خضرة تبدو وكأنها نمت على الماء، أو في داخل البحر، تضمها جبال يميل لونها إلى الصفرة أو

الحمرة، لا أعرف، ولكن على أية حال هي أقل قتامة من جبال مسقط، وتستطيع أن ترى في أفقها خضرة مزارع بعيدة.

كنت أراقب السكَّاني وهو يوجه السفينة بحذر في مدخل الخور الضيق، فعرفت أن في طباع هذا الماء أنفة، فلا يسمح بدخوله لغير القادرين عليه، العارفين بدروبه وأسراره.

رسونا أمام صور ثلاثة أيام، لم أهبط فيها إلى البر، بل اشتغلت في إنزال البضائع، وتنظيف السفينة ودعك أرضيتها، استعدادًا للسفر القادم.

في اليوم الثالث، بدأنا في تحميل السفينة مرة أخرى، بناس جدد وبضاعة جديدة، وبعد الفجر، وقبل أن ترفع المرساة، تجمع البحارة وبدءوا في الغناء:

هو يا عباد الله... مولانا يا رحيم

نازغين ومسافرين...

بجاه رب العالمين

يا رب بالسهالة...

والطوب وبلوغ المراد

وإلى حضرة النبي صلوا عليه «الفاتحة».

أنا لا أعرف الصلاة أو الفاتحة، لكنني فعلت ما يفعله غيري، تمتمت بشفتي، ثم رفعت كفي مثلهم إلى وجهي وتشهدت.

ثم رفعت المرساة، وفردت الأشرعة، فسبحت السفينة على الماء، وناور السكاني الموج حتى أخرجها إلى عرض البحر.

ارتفع صوت الطبل ترافقه أصوات البحارة، وأنا واقف بينهم، أغني وأصفق بمثل حماسهم، دون أن أعرف وجهتي:

هيـــل اللـه... يا اللـه

هـليـــه يا اللـه... يا اللـه

هـيـــه والميـن... يا اللـه

كان هناك رجل يقف في الوسط، ويحرك يديه بطريقة وكأنه يستدعي الريح، ويغني كلامًا بالسواحلية، لم أفهمه، كنت مشدودًا إلى حركته، فوقفت هناك، أتمايل مع البحارة وأصفق معهم، وأردد الكلام الذي يغنونه دون أن أفهمه.

إلى أين نحن ذاهبون؟ إلى الهند. قال النوخذة.

لا يهم، الهند أو زنجبار، أي مكان بعيد عن مسقط سيكون أقل وطأة على قلبي من دروبها وحاراتها وسورها، ومن عيون الناس اللائمة، ومن علمها الأحمر، ومن سجن بيت لوماه، ومن الذل الذي ورثته.

ما أخبرت أحدًا بوجهتي، حتى عيسى لا يعرف، فلو أنني رجعت إلى حارتي في تلك اللحظة فربما ما كنت تحملت تركها، وترك عيسى، وخيمتنا التعيسة، وحياتنا المزرية معًا.

ملعونة مسقط، تكرهها وتحبها ثم لا تجد بدًّا من الفرار منها.

لكني فعلتها، وأنا الآن هنا، على سطح هذا المركب، وفي هذا البحر العظيم، مغمورًا بالأزرق الذي لا أرى غيره.

هنا في وسط كل هذه الوجوه التي لا تعرفني، ولا تعرف اسمي ولا كنيتي، ولا حكاية أبي ولا جدتي التي غصبها قاطع طريق فحبلت منه، أشعر بأني خفيف، مثل طائر النورس الذي تتقاذفه الريح، لا نهاية لأجنحتي ولا حدًّا.

فصرت أضحك وأضحك وأضحك وأنا ممتلئ بهذا الهواء الذي يكاد أن يطير إزاري لولا أن أضمه بين فخذي، ويطيرني لولا أني أتمسك بصارية الشراع ولا أفلتها.

كم تمنيت لو أني كنت طيرًا من طيور البحر، يحملني الهواء ولا يقذف بي في الماء فتبتلعني الأسماك، أن أبقى عاليًا طوال الوقت وأن أحط متى ما أردت، أن أكون بعيدًا محلقًا في السماء مثلها، ومثلها لحمي مُرٌّ لا يحبه البحارة، وأن يكون لي منقار حاد ومعقوف مثله، أفقأ به عيون كل من يجرؤ على لمس جناحي.

يا طيره طيري للحد

هاتيلي من الكرب ليف

صخي يسمعك حد

عز الله طبعك ضعيف

ضعيف... ضعيف..

فجأة شعرت بالثقل يحط ثانية على قلبي، فانسللت من بين

الرجال، وفي مقدمة السفينة وقفت وحدي، أنظر إلى الماء الكثير الذي يحيط بي، وأفكر في مريم والبلاد التي تركتها وأنا أعرفها، والبلاد التي أنا ذاهب إليها ولا أعرفها.

أتذوق ملح رذاذ البحر الذي يلطم وجهي، ويأتيني من مكان ما صوت غناء نورجيهان في فراشنا، مختلطًا بصوت الريح والموج والطبل والنهامة.

عبداللطيف لوماه

لمحتها تركض خلف فردوس ثم تقف وراءها منكَّسة الرأس، طفلة لا تكاد تتجاوز العشر سنوات.

من أين جاؤوا بهذه الطفلة؟

أي بيت تخلى عنها في مقابل أن تجد ما تضعه في فمها؟

توقفنا منذ زمن عن قبول الأفواه الجديدة التي تدخل البيت كخدم، فالحال لم يعد كما كان، ومسقط لا تكاد تخرج من حرب إلا إلى حرب، وما بينها ثورات قبائل وانقطاع مطر وقحط، والإنجليز، أَلَا قاتل اللهُ الإنجليز، يضيِّقون على الموانئ، فمرة يمنعون تجارة العبيد، ويدَّعون أنها استجابة لصوت ضمائرهم، خاصة بعد أن امتلأت مستعمراتهم بهم، ومرة يقيدون تجارة السلاح خوفًا من الثورات أن تأكل مستعمراتهم، ومرة يصلحون ومرة يفسدون، ومرة يبيحون ومرة يحرِّمون.

يجبرون مسقط على التخلي عن مواردها مقابل القليل الذي

يمنحونه من تعويضات، ويتكلمون عن المعاني والمبادئ، وهم لا يقصدون إلا حماية مصالحهم.

لكن، من أين جاءت هذه الصغيرة؟ وما اسمها؟

فردوس لم تخبرني بشيء، وظلت تكلمني وتسألني عن حالي وأحوالي، دون أن تسمح لها بأن تتقدم أو تخرج من ظلها، لكن الطفلة أمالت رأسها بشقاوة من وراء ظهر فردوس، وعيناها ارتفعتا بفضول لترى القادم الجديد.

لوهلة رأيت الخوف في عينيها، لكنه ما لبث أن تحول إلى حزن، ثم خُيِّل إليَّ أن عينيها تستنجدان بي، ثم فجأة صرت أرى ضحكًا يتشكل في تلك المقلتين الواسعتين، ثم تراجعت واندست وراء فردوس ثانية.

أشرت إلى فردوس مستفهمًا.

- سامحني أخوي، أعرف إنك ما تريد حد جديد في البيت، لكن سنجور جمعة، طلب مني، وأنت تعرفه رجل له عزة نفس وما يطلب، قال لي: ما لها أم، وأبوها أعمى، وإنه خيفان عليها من أولاد الحرام، وذكرني بإحسان أمي، وما قدرت أقوله: لا.

- من وين؟ وبنت من؟

- من لوغان عند الوادي الكبير، وأبوها اسمه دلشاد، سلمها بنفسه لما مويزي، وقال تخدم بروقة بطنها.

أمرتها فردوس أن تتقدم:

«سلمي على حبابش».

تقدمت ومدَّت كفها الضئيلة تجاهي، لكنها لم ترفع عينيها إلى وجهي، كان في تنكيسة الرأس تلك شيء يطلب الرأفة، طلب صامت لكنه يُحس بقوة.

قبلتْ يميني، فوضعت يسراي على رأسها، شعرت بجسدها يتوتر، وعندما رفعت عينيها، بدأت الدموع بالتساقط ثانية وخيط مخاط صغير سال على شفتها العليا، تمنيت لو أني مددت أصابعي فمسحت دموعها، لكنني لم أفعل.

مشينا فمشت خلفنا، دخلنا إلى الليوان فدخلت وراءنا، جلسنا وبقيت واقفة، أمرتُها بالجلوس، لكنها نظرت إلى عيني فردوس تطلب الإذن، فعرفت أنها قد درَّبتها جيدًا.

«أحسن تروح تساعد عساكر وخلوف يغرفن الغداء». وصرفتها بحركة خفيفة من يدها.

لم أتعود التدخل في شؤون البيت، وفردوس لا تحب أن يتدخل أحد بينها وبين خادماتها، لذا لزمتُ الصمت، مقابل ذلك تلتزم هي أيضًا باتفاقنا القديم.

البيت لها والتجارة لي، فلا تسألني عن سفري، ولا عن أرباحي، ولا تسألني عن حقها في ميراث أبوينا، بل تتركه كله لتصرفي، وتأخذ ما أتركه للبيت دون أن تسأل عن المزيد، وتقبل

هداياي بشكر وفرح، هذا الفرح الذي كنت أراه في عينيها كان يذكرني بالفرح في عيني أمي كلما عاد أبي من السفر، وكان هذا يكفيني منها، لذا لم أسعَ إلى التنكيد عليها يومًا، لكن طبيعتها الغاضبة كانت كافية لإفساد أي توافق طويل بيننا.

أعرف أنها لا تمتاز بذكاء أمي، لكنها كانت تحاول أن تدبر أمور البيت على أكمل وجه بمعونة ونصائح ما مويزي. كنت أشعر بالشفقة عليها وعلى نفسي، ففردوس عمود من نار، لن يطفئه إلا رجل عاقل وعنده صبر كثير، وعسى أن يرضي وصية أمي، وهذا الرجل لم يأتِ بعد، وما مويزي التي لم تفلح في ترتيب زيجة صالحة لفردوس، لا تكف عن إلقاء اللوم على القسمة والنصيب.

تقول إنها لا رغبة لها في الزواج، إلا أنها في الوقت نفسه تطلب مني الزواج ثانية، وأنا أعرف أن ذلك مجرد كلام يقال، وأنه طلب اللسان لا طلب القلب.

وُضع الأكل، لكن مريم ذهبت ولم تعد إلا للملمة البقايا، وسكب الماء على أيادينا، وتعطيرها برش ماء الورد، ثم غادرت مرة أخرى ولم أرها إلا صباح اليوم التالي.

على مدار السنين كان في بيتنا الكثير من الخدم، بعضهم ورثته مع ما ورثت، وبعضهم التحق بالخدمة من أيام أمي وأبي. كان جميعهم فقراء وجوعى، رهنوا حريتهم مقابل أن يجدوا لقمة تسد جوعهم الدائم، رهنوها مقابل السكن والطعام، واشتغلوا

في خدمة البيت، ثم غادروا عندما أرادوا دون قيد أو شرط، حتى جاءت شمسة هزوز فتغير كل ذلك.

لكن النظرة في عيني هذه الطفلة كانت تقول ما هو أكثر من ذلك، أكثر من استجداء الطعام والحاجة إلى المأوى والخدمة، كانت عيناها تقولان إنها خائفة، وإنها ترتجي حماية من شيء ما غير الجوع، وتريد أكثر من مجرد لقمة تضعها في فمها.

أنا لا أذكر أني رأيت في عيني أحد طَلب رأفة كما هذه الصغيرة، وهي ترفع عينيها الشهلاوين، الغارقتين في لجة الدموع والأسى، وقلبي لم ينتبه لأحد كما انتبه لها.

وضعت مريم لنا الريوق ثم انصرفت، وعيناي تتبعانها حتى آخر الممر.

- كم عمرها؟

- سنجور جمعة قال: بنت ثلت عشر سنة، لكنها من الجوع وكأنها بنت عشر أو حد عشر.

- بتكبر.

- ما لك حاجة في الطفلات، يكفيك اللي عندك.

أعرف أنها كانت تشير إلى خادمتها الطاووس، التي حوَّلتْها إلى خدمة البيت، بعد أن اكتشفت أني كنت أدعوها إلى فراشي عندما أشتاق إلى جسد امرأة.

«اتقي الله، هذي طفلة، وما سألت عنها إلا شفقة».

ردَّدت «اتقي الله» أكثر من مرة وأنا أقوم عن الطعام غاضبًا، ولا أعرف لماذا غضبت، هل لأنها ما انفكت تذكرني باكتشاف الطاووس في فراشي في تلك الليلة، عندما تسللت من غرفتها وهي نائمة، واندست في فراشي؟

ما كنت قد قمت على الطاووس بعد، عندما دخلت فردوس بنيرانها، لا راعت حشمة لي ولا قدرًا. جرت البنت من ضفائرها وألقت بها خارج الغرفة، وردت الباب واقتربت مني، وقالت بصوت يكتمه الغضب، فلا يخرج إلا فحيحًا: «كثيرات الخادمات في البيت، لك من ما مويزي إلى خلوف، لكن خادمتي أنا لا، لأنها من ترقد في فراشك في الليل، بتظن نفسها سيدة، وتتجرأ عليَّ في النهار».

كان كلامها معقولًا، لكني رجل، ولي نساء في كل الموانئ التي أنزل فيها، إلا أني مضطر في مسقط إلى تجنب القيل والقال، وخلوف وما مويزي يقاربن سن المرحومة أمي.

لكنها لم تكن أول مرة تعود فيها إلى ذكر الطاووس، وفي العادة أكتفي بهزِّ رأسي والابتسام، كنت أتجنب الخوض معها في هذا الأمر، حتى لا أحرجها وأحرج نفسي.

مع ذلك، أظن أن الذي أغضبني كان ذكر مريم تحديدًا، مريم الطفلة الضامرة ذات العينين الشهلاوين، مريم التي تقف في الظل منكسة الرأس، مريم التي كل شيء فيها يطلب الرأفة والحب.

لا أعرف لماذا غضبت، لكنني غضبت، وبقيت غاضبًا حتى

لاقيتها تركض في ممر البيت تجاه المطبخ، وصوت خلوف يناديها: «مريوم تعالي، تعالي كلي».

كادت تتعثر عندما لمحتْني خارجًا مغضبًا من الليوان، وكدت أتعثر باسمها.

وقفت للحظة، نظرتْ إلى وجهي، أرادت أن تقول شيئًا لكنها لم تقل، ثم استدارت، وأكملت ركضها تجاه المطبخ وهي تضحك، كانت تركض وتضحك، وأنا لم أعرف ما الذي كان يضحكها، لكنها استمرت في الضحك حتى اختفت في الممر.

أنساني ضحكها غضبي، ودخلت الحجرة وقد ارتسمت على وجهي ابتسامة كبيرة، رافقتني حتى خرجت إلى السوق والتقيت حميد بن عبد الله.

مكثتُ في مسقط شهرين، أقضي وقتي ما بين الدكاكين والمخازن، في السوق والجمرك وبيوت التجار الهنود والقنصلية البريطانية، أعدُّ لسفر جديد قاصدًا الهند، متاجرًا في الليمون المجفف والبسور والأسماك المجففة والتمور العمانية والعراقية التي جلبتها من رحلتي إلى البصرة والمكسرات المجلوبة من إيران، وسأعود محمِّلا سفينة ببضاعة من الأخشاب والتوابل والقرميد الأحمر والأقمشة والعطور والذهب، بعضها سأبيعه في صور ومسقط، وبعضها في مطرح فيأخذ سبيله إلى داخل عمان، وبعضها سأسافر به إلى اليمن وزنجبار.

تعودت البحر، فصار هو البلد لا مسقط، واعتادت روحي

هزهزة السفينة وارتجاجها، فصارت ألواحها سريري، وتعود جسدي على نساء الموانئ، فبذرت نفسي على طول ضفتي الخليج.

لكني هذه المرة غادرت البيت إلى الفرضة وعيناي تبحثان عن مريم، وترددت كثيرًا قبل أن أستدير بعد وداعي فردوس والبيت، ودون أن أرى تلك العينين الشهلاوين، أو أسمع تلك الضحكة التي تهز قلبي هزًّا.

دلشاد

لم أمتلك في حياتي كلها إلا دشداشة واحدة، خاطتها لي ما حليمة كي أُزَف فيها.

كانت من قماش رقيق، قالت ما حليمة إنه «سنسوني» وإنها كانت تخبئه لعيسى أو حسين، ولكن حسين مات، وعيسى لا ينوي الزواج قريبًا، فلا ضير إذًا أن تخيطها لي. فمن المخجل جدًّا أن يزف رجل شبه عارٍ، لا يكسو جسده إلا إزار وقميص على امرأة ترتدي كامل زينتها.

فرحت بالدشداشة ربما مثل فرحي بنورجيهان، وبفخر شديد ألبسني الرجال إياها، بعد أن فرغوا من دعك جلدي بليفة نخيل خشنة، وخبطي بين كتفي الواحد تلو الآخر، وكأنهم بذلك ينتقمون مني، أو ربما أرادوا أن يأخذوا ثمن الجهد الذي بذلوه، في إزالة أكوام التراب والقذارة عنه.

تلك الدشداشة نفسها لبستها عندما دفنت نورجيهان، وعندما أخذتُ مريم لبيت لوماه، لكنني لم أجدها عندما عدت مع عيسى

من مستشفى الإرسالية، فيبدو أن أحدهم احتاجها ليزف فيها أو يذهب بها إلى المقبرة أو المحكمة أو ربما السجن.

وعندما صعدت السفينة لم أكن ألبس أكثر من خرقة لففتها حول خصري، وبقيت هكذا حتى وصلنا إلى صور.

النوخذة الذي أبدى التجاهل والقسوة على رصيف الفرضة في مسقط، ونفاد الصبر أثناء رحلتنا إلى صور، تحسَّن مزاجه بعد أن قضى أيامًا بين أهله، حتى أنه عندما سارت السفينة مبتعدة عن صور، أشار إليَّ بالاقتراب منه، وهذا ما لم يفعله من قبل، فقد كان يمضي زاعقًا بأوامره دون أن يلحظني، حتى ظننت أنه لا يراني، رغم أني كثيرًا ما كنت أعترض طريقه أثناء دعكي سطح السفينة.

اقتربت منه فناولني القميص، ترددت قليلًا، لكنه أشار برأسه أن ألبسه، فَرَدْته أمامه غير مصدق، وارتديته بسرعة وكأني لو أبطأت طلب استعادته.

لم يكن القميص جديدًا، لكنه كان نظيفًا.

شعرت بشيء يشبه الفرح، نعم يشبه الفرح، فأنا لم أعرف ما هو الفرح إلا عند زفافي بنورجيهان، أما ما عداه فهو أشباه، كل شيء بعد نورجيهان أشباه.

تمنيت لو ضحكت حينها، لكن حتى الابتسامة تصاعدت إلى عيني فيما يشبه الدموع، وبتلك العيون الدامعة نظرت إلى عيني

الرجل، الذي بقي واقفًا هناك يراقبني وأنا ألبس، وأمسح صدر القميص بكفي، حتى إذا ما انتهيت ونظرت إلى عينيه استدار ومضى.

حتى ذلك الحين كنت أعمل في تنظيف السفينة، وآكل مع بحارتها من الرز الذي يغرفه فريش بن سليم، طبَّاخ السفينة، من مرجله الكبير، ويسكب عليه مرق السمك الذي يصطاده البحارة في صَوانٍ واسعة، ورغم كثرتنا على السفينة فإني لم أشعر بما يشبه الشبع في حياتي كلها إلا على سطحها.

بعد أن استوت السفينة في عرض البحر استدعاني النوخذة، وأمرني أن أقوم على خدمة رجل أعمى، كان يصحبه ابنه للعلاج في بومبي، وفهمت أنه من أقارب النوخذة، وعرفت أنه رجل ثري من الملابس النظيفة التي يلبسها هو وابنه، والخنجر الصورية الجميلة التي يتمنطق بها، والسباعية التي يضعها على كتفه.

لم أفهم لماذا لم يصحبه أحد من عبيده، فلا بد لرجل ثري مثله أن يكون له عبد واحد على الأقل، يقوم على خدمته، ويساعده على قضاء حوائجه، لكن ابنه أخبرني بعد مدة، أن أباه ورث أكثر من ثلاثين عبدًا وأمة عن أبيه، ثم رأى في الحلم أنه يطوف حول الكعبة والقيود في قدميه، وأن نافع عبده المقرب كان يطوف معه وقد تحزَّم بخنجره الصورية ذاتها، وأنه عندما وصل مقام إبراهيم، رفع الخنجر وحز عنقه.

وعندما استيقظ الشيخ أقسم أن لا يبات عبد أو أمة في بيته،

فأعتق عبيده كلهم، وذهب إلى الحج، ثم ما إن عاد حتى أصيب بالعمى.

كان أول ما فعل الشاب بعد أن صرت في خدمتهما، أن ناولني دشداشة وإزارًا نظيفًا وأمرني بالاستحمام، وقال لي إن أباه منذ أن فقد بصره، صار يشم كل شيء مضاعفًا عشر مرات، وإن الروائح العفنة تثيره فيغضب بلا قياس، ولهذا عليَّ الاهتمام بنظافتي قبل مساعدته في الاهتمام بأبيه أثناء الرحلة، فاغتسلت جيدًا بماء البحر، وغسلت إزاري وقميصي، ولبست الثياب الجديدة.

قربني من أبيه، وقال له: «النوخذة أمر هذا الرجل من مسقط يخدمنا». فرفع الأب أنفه وبدأ في تشمم الهواء، وكأنه يسجل رائحتي ليتعرف عليّ. ثم سألني الابن عن اسمي، وعندما قلت له إن اسمي دلشاد، هزَّ الأب رأسه ولاحت على شفتيه شبه ابتسامة، وبدا كأن الاسم قد أعجبه، لكنه لم يقل شيئًا.

لم يكن الشيخ «مبارك بن عبد الله المخيني» يحب الكلام، ولم أسمعه يتكلم إلا مع ابنه حمد، صوته لا يكاد يسمع وهو يأمره أو ينبهه لأمر ما، وحتى عندما يغضب، لا يظهر عليه إلا احمرار في وجهه، ونزق في مشيته.

لا أعرف كم كان عمره، فوجهه لم يكن يظهر عليه السن، وبدا لي أن جسده في قوة جسد شاب. ربما كان في مثل عمري، وربما كان يصغرني بسنوات. وأظنه لم يكن مقتنعًا بأنه أعمى، وأنا أفهم ذلك جيدًا، فعندما أصبت بالرمد وغامت الدنيا أمامي، أخذ مني بعض

الوقت حتى استخدمت العصا لتلمس طريقي، أو السماح لمريم أن تقودني، وكنت قبلها أمشي وأتعثر بحصى الوادي وأقع أحيانًا.

كنت أضطر في كثير من الأحيان إلى أن أسرع وأنا أمشي بمحاذاته، وأتأكد أن طريقه سالك، فلا يتعثر بدلو أو ينتكس من على حاجز السفينة، أما فيما يخص نظافته، فلم أكن أفعل له أكثر من مناولة ابنه الماء والليفة والغسل والثياب النظيفة من وراء ستارة ينصبها، لكني كنت أبقى منتبهًا لكل أمر يصدر عنه ولكل حركة يقوم بها.

كان يصر أن آكل معهما من الصينية نفسها التي يخصصها الطباخ لهما، ورغم أننا كنا نأكل مما يأكله البحارة نفسه فإن ابنه كان يخرج جرة سمن مقشود من متاعهما ويسكبه على المرق، ويضع التمر أمامنا بوفرة، وكثيرًا ما كان يناولني الحلوى الصورية، التي يخبئها بين حاجياته في كيس صغير من الخوص، فأنهش وجهها المنبسط بأصابعي، وأكوِّر أكبر لقمة ممكنة وأضعها في فمي.

لا تشبه حلوى صور الحلوى المسقطية، التي أعطتني امرأة غريبة لقمة منها وأنا طفل يلعب في بطن الوادي الصغير، حينها كانت تقدم نذرًا لأبي الشقص، رأيتها وهي تضع أواني صغيرة من الحلوى عند جذع الغافة العجوز، وأرغفة من الخبز على قبره. ربما كانت الشراهة الواضحة في عيني الزائغتين من الجوع، هي التي أنذرتها بأن ما وضع هناك سوف يتقاسم مع صاحب المكان لا محالة، وسينتهي بعضه على الأقل إلى معدتي التي لم يدخلها طعام منذ صباح اليوم السابق.

ناولتني قطعة حلوى ملفوفة في خبزة، ربما لتجنبني الإثم، أو لتكمل نذرها، من يعرف. لكن تلك الحلوى كانت غليظة، دسمة، تملأ الفم، والخبز الذي يحيط لقمتها يضطرك إلى استخدام أسنانك في مضغها. أما هذه فخفيفة، ولا تمضغ، بل تدار في الفم مرة واحدة، ثم تبلع بلعًا فتختفي تمامًا، مخلفة طعم السمن والسكر وراءها، ليملأ الفم والنفس بالفرح لساعات طويلة.

كنت قد بدأت أشبع وأنا آكل مع البحارة، أما الأكل مع الشيخ وابنه فقد أعادني إلى الجوع، ولكن ليس ذلك الجوع الذي ينهش البطن، بل الجوع الذي يأكل القلب.

فالرجل الأعمى الذي أقوم على خدمته، لم يكن ليضع لقمة من السمك في فمه، قبل أن يقسمها ويضع قطعة منها أمام ابنه، الذي يجلس إلى يمينه على الدوام، والولد لم يكن يضع في فمه التمر قبل أن يناول منه أباه أولًا، وعندما يسكب السمن يكثر منه على حصة أبيه من الطعام، بينما يضع قطرات قليلة على حصته وحصتي من الرز والمرق.

وكان الابن يهزُّ رأسه بخضوع موافقًا لأبيه حين يأمره، وكان يحرص أن لا يغضبه أو يصيبه الضيق، والأب كثيرًا ما كان يضع يده على كتف ابنه مربتًا، أو يتكئ عليه في المشي، أو ينظر إليه بتلك العينين المنطفئتين، تلك النظرة التي يبدو فيها مبصرًا، وكأنه لا يرى من العالم كله إلا ذلك الوجه الفتي.

أنا لم أعرف معنى أن يكون للمرء أب. نعم، كنت أبًا لمريم،

لكني لم أكن يومًا ابنًا لرجل، وبحسب الحكاية التي حكتها أمي عن ود السيح، لم يكن أبي ابنًا لرجل أيضًا.

فأبي الذي مات قبل ولادتي أخذ وجهه ورائحته وظله معه، فلم أجد وجهًا لأنظر إليه، ولا ظلًّا لأمشي تحته، ولا رائحة أستدل بها على نسبي.

لم يؤدبني أحد، بل تكفلت بي الدروب والأزقة، وربَّتني الصفعات والركلات والأيدي التي تمتد لتأخذ مني في كل مرة شيئًا.

في حارتنا، كنت أحاول أن لا أتعارك مع أحد، فبعد كل عراك يأتي أب ليأخذ حق ابنه، وأحيانًا كان الآباء يتعاركون فيما بينهم، ويتركون الأبناء للعب، أما من لا أب له فيبقى مسنودًا إلى الريح، مكشوفًا ولا مأمن له.

كنت يتيمًا، ووحدهم اليتامى يعرفون معنى العري، وكيف يكون البرد في عظامك من لحظة الميلاد حتى الموت.

نعم، عشت أول عمري بين أمهات كثيرات، لكن ولا واحدة منهن ضمتني إلى صدرها، أو خصتني بلقمة، وعندما كنت في خيمة ما حليمة كانت تقسم الأكل بين أولادها أولًا، ثم تتذكرني فتضع شيئًا في فمي.

أما أمي التي كانت تقول لي إنها تطير كل ليلة فوق وديان مسقط وجبالها وسيوحها وبحرها وإنها تعرف كل ما يدور في الحارات وفي

القصر خلف السور، فكانت امرأة مسكينة، شبه مجنونة ولا يصدق هذرها أحد، ولا أتذكر أنها أعدَّت لي يومًا لقمة من بقايا الأسماك، كما تفعل بقية الأمهات في الحارة، بل كانت تضع التمر في جراب خوص، ولم تكن تقدمه إليَّ ولم تكن تمنعني عنه، وعندما لا أجد تمرًا في الجراب، كنت أنام منطويًا على جوعي بينما تطير هي في سماء مسقط، كما أخبرتني أن جداتها فعلن من قبل، ثم بعد يوم أو يومين يمتلئ جراب أمي مرة أخرى بالتمر.

قاسٍ هو الجوع... قاسٍ وقبيح، ومثلي يقف عاريًا بلا أب.

مريم دلشاد

عندما كان حبابي عبد اللطيف في مسقط، أمرتني البيبي أن أعاون فرشوه في المطبخ، وأن لا آتي إلى الليوان أو حجرتها إلا إن طلبتني.

كانت حرارة المطبخ والعيش بين أدخنة القدور الكبيرة لا تطاق، ثم تعودت عليها كما تعودت على كل شيء آخر، وصرت أجد فرشوه، المرأة السوداء الضئيلة، التي لها صف كامل من الأسنان في فكها السفلي وأربعة أسنان كبيرة في فكها العلوي، والتي كنت أخاف ملَّاسها الضخم، امرأة طيبة، علَّمتني بتأنٍّ شديد أنواع البهارات، أسماءها وطعومها، فعرفت الكركم والسنوت والزنجبيل والشينوز والقرفة والهيل والقرنفل والفلفل الأسود والأحمر.

وعرفت الحبوب من قمح وعدس وفول وحمص، وعرفت الزبيب الأسود والأبيض والعسل والدبس.

عرَّفتني فرشوه بأماكن الأواني والمونة في المخزن، فصرتُ أركض بين المطبخ والمخزن، لأناولها ما تحتاجه من أدوات ومونة،

ثم عرفتني على الرز، وعلمتني كيف أنقِّيه من الحصى والشوائب وكيف أغسله، وكيف أقيس عليه الماء حتى ينضج بقوام متماسك وحبات كاملة.

ثم دربتني على استخدام الهاون ورفع مدقَّه الثقيل، وكيف أقلي البهارات دون دهن حتى تفوح رائحتها، وكيف أدقها وأطحنها حتى تصبح بالنعومة التي تحتاجها، وعلمتني كيف أخلط مقاديرها، وكيف أفرق بين بهارات السمك وبهارات الدجاج واللحم، وكيف أقشد السمن بالسنوت حتى تتعالى رائحته.

ثم علمتني كيف أصنع من الطحين عجينًا، وكيف أفرد العجين على حديدة ساخنة، فيصبح خبزًا رقيقًا بسُمك ورقة الشجر اليابسة فيكون رخالًا، وكيف أعجنه بالتمر وأطويه على بعضه مرات، وأقليه بالدهن فيصبح مرضوفًا.

ثم عرفتني على السخونة الحمراء الحلوة المطبوخة بالتمر المهروس والشينوز، وعلمتني كيف أصنع من الحليب الذي يحضره ولد صغير من حارة الراوية حلوى معقودة بسكر كثير، تسميها الماهوه، وعلمتني كيف أقلي الطحين لصنع الخبيصة، وكيف أغليه بالماء والسمن كي أصنع الغريبة التي كان حبابي عبد اللطيف يحبها ولا يتقنها في مسقط أحد مثل فرشوهْ، أو هكذا كانت تقول وهي تتباهى.

في مطبخ فرشوه عرفتُ لساني وفمي وأسناني، وتبدلت الأدخنة الصفراء التي كانت تتطاير من معدتي إلى دماغي فيغيم نظري وعقلي،

إلى أدخنة مطيبة بالروائح والنكهات المختلفة تسيل دموعي لها أحيانًا من اللذة والفرح.

في بيت لوماه يأكلون ثلاث مرات، أما في حارتنا فكنا نأكل مرة واحدة إذا توفرت، أكلةٌ قوامها القليل من التمر والسمك والبصل، وما كنت أعرف هناك من التوابل إلا الملح. كنا نأكل عندما نجد ما نأكله كي لا يقتلنا الجوع، أما الطعوم والروائح واللذة فلم نكن نعرفها أبدًا.

في المدة التي قضيتها في المطبخ لم يسمح لي بتقديم الطعام في الليوان، فقد كانت عساكر وشوانة هما من تخدمان، ولم يكن يصلني من الكلام إلا القليل، ففرشوه امرأة لا تحب الكلام، وتطرد أي شخص يعكر مزاج مطبخها بالحديث عن الأسياد.

إلا أني سمعت وأنا شبه نائمة في الحجرة معهن همسًا يسري، أن الطاووس، الجارية السمراء الطويلة الملعونة، ذات العينين الواسعتين والشفتين الممتلئتين، التي أغلقت باب الحبس عليَّ، عادت لخدمة الحباب، هذا الهمس كان يرافقه ضحك مكتوم، ولم أكن أفهم لماذا.

ثم سمعت أن الحباب، سيغادر قريبًا في تجارة إلى الهند، ورغم أني لم أصادفه في الليوان، إلا مرة أو مرتين، فإن هذا الخبر أحزنني، ثم عندما عرفت أنه غادر شعرت بأن البيت صار ضيقًا وهواؤه صار ثقيلًا، وشعرت بالخسارة، فمن سيذوق السخونة الحمراء أو حلوى الغريبة التي أصررت على إجادة صنعها منذ أن عرفت أنه يحبها؟

قالت ما مويزي إنه يقضي شهورًا في تجارته، وإنه يعود إلى البيت محملًا بالهدايا والبهارات والأقمشة من الهند واللوز والفستق من البصرة، وأنا لا أعرف اللوز والفستق ولم أذقه أبدًا.

في الشهور التي غابها، نضج جسدي وتبدلت أحوالي، وعلمتني ما مويزي كلمات جديدة، مثل: الحيض والطهارة والنجاسة، وعلمتني كيف أعتني بجسدي، وأعدت لي فرشوه شراب القرفة كي أسكن وجعي، أما الطاووس فصارت تنظر إليَّ بطريقة لم آلفها فيها، وكأنها ما أبصرتني من قبل.

ابتهجت السيدة لخبر بلوغي لسبب لم أعرفه إلا لاحقًا، وطلبت من ما مويزي الاعتناء بتغذيتي حتى أكتمل.

وخلال أشهر قليلة اكتملتُ، وصار لي جسد امرأة مثلهن، وصرت أبكي أحيانًا بلا سبب.

أعادتني السيدة إلى خدمتها الخاصة، فرجعت للنوم في حجرتها، وصارت تتعامل معي بلطف شديد، وتقربني منها وتقول لي هامسة، إني صرت فتاة حلوة.

كانت خدمة السيدة سهلة في ظاهرها، فهي لا تريد أكثر من كلمة «حاضر وهي والله»، ردًّا على كل ما تأمر به، على أن يُنفَّذ كل شيء دون أخطاء وإلا تحولت حياة الجميع في البيت إلى جحيم، فصوتها وسبابها وأحيانًا يدها تطال من كان في حضرتها أو طريقها.

وكل هذا كان يعتمد على مزاجها، ومزاجها يعتمد على كيفية

تعاملي مع جسدها كل ليلة، فعليَّ أن أدهنه كله بالزيت، وأن أدعكها بقوة حتى تسترخي عضلاتها، فتعرف كيف تنام مرتاحة، دون أوجاع.

كانت ما مويزي تقول إن سبب آلام السيدة هو الشبع الكثير وجلوسها الطويل دون حركة، لكني لم أكن لأفهم كيف يمكن للشبع أن يمرض أحدًا، بينما في حارتنا لم يمرض أحد إلا من الجوع وأدخنته!

أما الحركة فكانت تطلب مني كل يوم أن أشد رجليها ويديها وأثنيها حتى يتحرك فيها الدم، وكنت أدلكها من قمة رأسها حتى أصابع قدميها، وعندما أضغط على ظهرها أو أماكن أخرى تطلب أن أضغط عليها بقوة أو بخفة أحيانًا، تطلق أنات صغيرة لا أفهمها.

سألت ما مويزي «ليش ما تتزوج البيبي؟» فقالت لي: «نصيبها ... ويمكن هي ما لها رغبة في الرجال».

لم أفهم معنى كلمة رغبة فضحكت، وعندما ضحكت وبختني ما مويزي ظانة أني فهمت، وأنا والله ما فهمت شيئًا، على الأقل في حينها.

مع ذلك وكلما مرَّ شهر وبرزت علامات جسدي أكثر، اقتربت سيدتي مني أكثر، حتى أنها صارت تطلب مني أن أنام في سريرها أحيانًا. وعندما جاء البرد، صارت تلتصق بي، وتقول إنها بردانة وخائفة. وكانت أحيانًا تبكي وهي في حضني مثل الأطفال في

أحضان أمهاتهم، وأنا لم أكن أعرف كيف أتعامل مع هذه الأمور، فأنا نفسي لم تكن لي أم فأعرف ضم الأمهات وحنانهن.

ومرة في شدة القيظ، وبدلًا من أن نذهب لننام على السطح كما يفعل الجميع، طلبت مني أن أتخفف من ملابسي، وأن أنام بدشداشة من قماش الشيت الخفيف فقط، ثم انتبهت وأنا شبه نائمة على يدها تزحف على ذراعي، ذعرت وصرخت، وهبطت من على السرير بسرعة، وتكومت عند الباب، وهي لم تتحرك من مكانها، بل تقلبت وأعطتني ظهرها، واستمرت في نومها، وبدأ صوت شخير خفيف يتصاعد منها، وكأن شيئًا لم يحدث، وكأن يدها لم تتحرك تجاهي، وكأني لم أصرخ ولم أقفز من على الفراش. وفي الصباح أمرت ما مويزي بأن تعيدني إلى المطبخ ثانية، ورغم أني لم أقل لأحد شيئًا مما حدث، بدا وكأنهن كلهن كن يعرفن، فضحكت الطاووس مجلجلة كالأفعى، ومصمصت عساكر شفتيها، أما خلوف فرددت بصوتها الرفيع: «ما شي حيلة... ما شي حيلة.. تراهم يقولوا قص صبع ولا تغير طبع».

ما مويزي

كبرت بنت دلشاد، وحدث الذي كنت أخشاه.

منذ أن أسلمها أبوها ليدي عند الباب، شعرت بأن الله لن يغفر لي، لو أن شيئًا ما حدث لهذه البنت. لكن ما عساي أفعل؟ كيف أبعدها عن شر فردوس التي لا تبقي ولا تذر؟

أنا مجرد خادمة عجوز، أكاد أتقصف تحت ثقل السنين التي أنفقتها في خدمة هذا البيت، حاولت طوال خدمتي أن لا أؤذي أحدًا، لكنني لم أكن أستطيع منع سادتي من أن يحدثوا الأذى، كنت أتفرج على آثامهم معظم الأحيان، وأحاول أن لا أكون محل نظر، مع ذلك لحقني ما لحقني.

وعندما كبرت، وتحولت إلى عجوز ضامرة، لا ينظر إليَّ إلا كخادمة قديمة وموثوقة، ورثتني فردوس مع ما ورثت من الإماء، وطلب مني عبد اللطيف أن أساعدها في تدبير البيت، وتصريف أمور الجواري والخدم.

عبد اللطيف وفردوس هما كل من نجا من ذرية سيدي أحمد فضل لوماه، وأنا كنت خادمة أمهم بيبي فريدة، التي والله كانت سيدة بحق، رغم قسوتها علينا أحيانًا وهي شابة.

حتى أنها عندما عرفت أن أمي أهملت تعليمي كيف أمهد دربي إلى القبر، علمتني صلاتي وصيامي، وشيئًا من القرآن، لكنها لم تكن لتمنع سيدي أحمد عندما يرغب في التسري بي أو بأيٍّ من الجواري أو حتى محاولة ذلك، بل كانت تقول لنا، إننا بعض ما يملكه، وإن القرآن يقول إن للرجل التمتع بما ملكت أيمانه، وإننا حلال له، وإن كانت تستغرب مما يعجبه في امرأة بسوادي وطولي الفارع وضموري، ولم تكن تخفي ذلك عني.

لم يكن تسريه بالجواري يثير غيرتها، أو على الأقل لم تسمح لذلك أن يُلحظ، فقد كانت تتعامل مع كل شيء من باب الواجب، طاعتها له واجب، تدبير أمور البيت واجب، وحتى شفقتها علينا نحن العبيد، وحرصها على تعليمنا الصلاة هو جزء من هذا الواجب.

وعلى الرغم من أن سيدي لم يكن يعف عن أيٍّ من إمائه، بل أحيانًا يفاجئهن حتى وهن يغتسلن في الحمام ويطلبهن لشهوته، فإنه ما كان ليحاول مع أيٍّ منا إلا مرة واحدة، وإن هي أشهرت الرفض تركها إلى غيرها، لكن هل كنا نستطيع الرفض؟ وهو السيد ونحن بعض أشياء بيته يتصرف بنا كيف يشاء.

في غياب عبد اللطيف، كبرت بنت دلشاد، كبرت الصغيرة النحيلة، وتحولت إلى امرأة كاملة.

وفردوس تريد أن تحولها إلى طاووس أخرى في خدمتها.

لكن مريم لا تفهم شيئًا من هذا، ولا تعرف من الدنيا إلا الحارة التي جاءت منها، وترى في مطبخ فرشوه جنتها الصغيرة، التي تملؤها بروائح التوابل والخبز والمرق والشبع.

مريم لا تفهم من أمور النساء شيئًا، وعندما حاضت أول مرة ركضت إليَّ، مادة يديها الملطختين بالدم، وتبكي وهي لا تعرف أين جرحت.

أدخلتها الحمام وغسلتها، وعلمتها كيف تستخدم الخرق، وكيف تغتسل، وكيف تطهر جسدها، أخبرتها أنها أصبحت امرأة، ولو أن رجلًا لمسها فسيؤلمها ذلك ثم ستنجب أطفالًا، وإن تم ذلك دون زواج فسيكون أطفالها غبون، أولاد حرام.

عندما سمعت مريم لفظة «غبون» ذعرت، وتحولت عيناها إلى طاستين تمتلئان بالدموع، حتى فاضتا وسح الدمع على خديها الطفلين، ثم تكورت على نفسها مثل قطة. قلت لها لا تسمحي ليد أن تمتد على جسدك، أيًّا كانت هذه اليد لرجل أو امرأة.

وفردوس الآثمة، كانت تداري إثمها بالتجاهل والإنكار، حتى لا تشتكي عند عبد اللطيف فيفضح سرها. ورغم أنها تملك الكثير من الصراخ والسباب في حلقها، فإنها لم تكن تملك ما يكفي من القسوة حتى تؤذي، وأكثر ما تستطيع الأمر به هو الحبس ثلاثة أيام في بيت العقاب.

لكن مريم أفلتت من عقابها هذه المرة، فخبر وصول سفينة عبد

اللطيف قد بلغ الفرضة، وحمله حميد بن عبد الله القائم في دكانه إلى سخي الذي جاء راكضًا إليَّ مبشرًا كعادته.

آخ، ليته زوَّجها حميد بن عبد الله، فأراحت واستراحت.

وصل عبد اللطيف إلى البيت عند الظهر، وعندما قربت عساكر الغداء له سألها عن مريم، وطلب حضورها، ما أغضب فردوس، لكنها دارت ذلك، وأمرتني بإحضارها لمقابلته.

فرحت مريم عندما عرفت أن حبابها عبد اللطيف رجع، وأنه يطلبها، وهرعت لتسلم عليه، لكني كنت قد طلبت منها أن تذهب وتغتسل قبل أن تحضر بين يديه، وأعطيتها ثوبًا جديدًا كنت قد خطته لها بعد بلوغها، تحسبًا لهذه اللحظة، التي كنت أعرف أنها سوف تأتي، وأن عبد اللطيف سيطلب مريم عاجلا أم آجلا، فأنا أعرفه جيدًا، وأعرف ما يريده وما يقدر عليه.

خرجتْ فردوس من الليوان إلى غرفتها قبل أن تدخل مريم، فوجدت عبد اللطيف وحده متكئًا، وعندما رآها تقترب وقد اكتمل نضجها، تعلقت عيناه بوجهها الذي كان قد امتلأ واستدار وبانت حمرة خديه.

ثم هبطتا على جسدها الذي صار جسد امرأة كاملة.

«كبرتِ بسرعة يا مريم».

انكبت مريم على يد سيدها تقبلها كما علمتها، واحتضن وجهها بكفيه وهو يردد: «كبرتِ بسرعة.. كبرتِ وصرتِ كما بدر التمام».

وعندما سمعت مريم هذه الكلمات منه ابتسمتْ، وأنا رأيت في عينيها ما لم أره في عيني أحد من قبل.

مريم دلشاد

لم أكن أعرف أسماء الأشياء حتى تعلمتها في بيت لوماه.

الأشياء في حارتنا قليلة، ويمكنني أن أجملها في أقل من خمسين كلمة تقريبًا، عرفت الجبل والخيمة والبرستي والوادي والطوي والباغ والسمك والملح والتمر والثور والمغبرة والسحارة والموت والجوع والدموع، وتعلمت من الشتائم ما يكفي لدرء شر الآخرين عني.

لكن في بيت لوماه تعلمت أسماء كثيرة، ففرشوه علمتني أسماء كل شيء في مطبخها، فعرفت أسماء التوابل وأنواع الطعام والبقول والحبوب وأدوات الطبخ، وأسماء النار عندما أناولها التابل الخطأ، فتغضب عليَّ وتدعو أن تلتهمني الوارية أو جهنم أو السعير.

وعلمتني ما مويزي أسماء أدوات الزينة وموادها، وأسماء الأقمشة وقطع الأثاث، وأسماء أعضاء جسدي الجديدة منها والقديمة، وتبدلاته وأحواله، وما كنت أعرف من أسمائه في حارتنا غير الوجع والجوع.

حتى الله ما عرفت أسماءه إلا في الصلاة عندما علمتني ما موزي كيف أقيمها، فعرفت الرحمن، وعرفت الرحيم والأحد الصمد.

ولم أكن أعرف اسم الشيء الذي أشعر به في قلبي، لكني كنت أشعر به بقوة، كلما رأيت حبابي عبد اللطيف، أو شممت رائحة دهن العود والمسك الذي يتعطر به يفوح في دهاليز البيت بعد أن يمر.

ولم أكن أفهم رجفتي عندما أراه، أو اضطرابي عندما أسمع اسمه، لكن ما موزي كانت تعرف، طبعًا ما موزي كانت تعرف، فهي وحدها التي كانت تعرف كل شيء.

عندما عاد حبابي ووقعت عيناه عليَّ، تفاجأ أني صرت امرأة في غيابه، رأيت ذلك في عينيه اللتين انسكبتا عليَّ، ومسحتاني من رأسي حتى أصابع قدمي الحافيتين، وقال إني كبرت وصرت جميلة، والأدهى أنه قبض على وجهي بكفيه.

كانت بكفيه خشونة، لكنها لم تجرح وجنتي، بل جعلتهما يحمران بلا نار، وقال إني صرت مثل بدر التمام، وأنا لا أعرف بدر التمام، لكن ما موزي قالت إنه القمر عندما يكتمل، وأنا أعرف القمر منذ أن كنت في الحارة، أنام على الدعن خارج الخيمة في القيظ، فأراه عند انتصاف الشهر مثل خبزة فأشتهيه، لكن الليل كان يقرضه كفأر طوال الشهر، فيختفي عند آخره فلا يُبقي لنا منه شيئًا، أو هكذا أخبرني أحدهم، ربما كان أبي أو ما حليمة، أو ربما سمعتها في حكاية من حكايات با سنجور، لا أتذكر.

بعد مدة أمر حبابي عبد اللطيف أن أنقل من خدمة المطبخ إلى خدمة الليوان، وأمر ما موزي أن تخيط لي ثوبين جديدين، وأن تعتني بي.

قالت ما موزي إنه عندما بلغ فردوس ما أمر به الحباب، ارتفع الدم في وجهها، وإنها ذهبت إلى الليوان مسرعة، ودخلت على أخيها مثل عاصفة، وإنها قالت له وهي تصرخ، أن لا حق له على جواريها وخدمها.

فردَّ عليها أني لست خادمة لأحد، وأني حرة بنت أحرار، وأني أخدم بروقة بطني، وأني منذ اللحظة ضيفته، وأن حشمتي من حشمته.

قالت لي ما موزي وهي تهز رأسها بقلق إن سيدي عبد اللطيف لم يتدخل قبل هذه المرة في شؤون العبيد وخدم البيت، ثم قالت لي: «انتبهي يا مريم». وأنا لم أعرف مِن عليَّ أن أحذر، من سيدتي أم من سيدي.

لكن شيئًا ما كان يحدث في بطني كلما رأيته، وشيئًا ما يحدث في صدري عندما ينظر إليَّ، وشيئًا آخر يعتري جسمي كلما اقترب مني، أو لمست يده يدي وأنا أناوله فنجان القهوة.

- مريضة ما موزي.. أحس بمغص في بطني، وقلبي يدق بقوة، ولما أشوف حبابي أرتجف ويصيبني دوار.

- أوه مريم.. أوه بنت دلشاد.. إنتِ عاشقة يا أمي.. إنتِ عاشقة.

كانت أول مرة أسمع عن هذا المرض الذي يسمى العشق، في تلك اللحظة ظننته لعنة، لكنها قالت إنه يصيب الفتيات المحظوظات فقط، والمحظوظات أكثر يُصَبن به مرتين.

دلشاد

بقيت في خدمة الشيخ وابنه حتى وصلنا إلى بومبي، وعندما صاح السكاني بأننا اقتربنا من الشاطئ، أمر النوخذة البحارة فأنزلوا الأشرعة، وصارت السفينة تقترب من الميناء على مهل.

وقفت وحمد على سطح السفينة متكئين على حاجزها، بينما لم يغادر الشيخ مكانه في مؤخرة السفينة، وكأن أمر الوصول لا يعنيه في شيء. من مكاننا كنا نرى بلادًا لا تشبه مسقط وصور في شيء، بحر ممتلئ بالمراكب والبواخر، فرضة واسعة وخلق كثير، ونخل يشبه نخلنا، إلا أن حبة الرطب فيه بحجم رأس الآدمي، قلت لحمد: «شوف نخلهم ورطبهم، الحبة ياكلها كل البحارة وتزيد»، ابتسم حمد، وقال: «هذا يسمى نارجيل، في داخله ماي حلو مثل الشربت ولحم أبيض لذيذ».

ما إن اقتربت السفينة من المرسى، وأوثق الرجال لفَّ حبالها على أعمدة مثبتة في الرصيف، حتى تركني حمد وذهب إلى أبيه ليلملم حاجياتهما، ويستعدا للنزول، بينما بقيت في مكاني مأخوذًا

بهذا الميناء العجيب المزدحم بالسفن، والذي تتراص فيه البضائع، والناس فيه كالنمل لا يتوقفون عن الحركة.

أُنزل دَرَج خشبي، فبدأ المسافرون بالهبوط، وأمر النوخذة بتفريغ السفينة، فنزلت مع البحارة إلى جوفها، وبدأت في حمل البضائع من أشولة الليمون المجفف والسمك المملح والبسور، وتجميعها على سطح السفينة.

انشغلت بحمل البضائع، ونسيت الشيخ وابنه لبعض الوقت، حتى سمعت صوت النوخذة يناديني، التفتُّ إليه فوجدت الشيخ وابنه يقفان معه قرب الدرج الذي يهبط منه المسافرون، اقتربت منهما وأنا أعرف أنهما سيغادران في تلك اللحظة، وأني لن أراهما من بعد. شعرت بوخزة في قلبي، فرفقتنا على قصر مدتها كانت طيبة، وكانا كريمين معي، ولم يكلفاني ما لاطاقة لي به، ولم يطلبا مني إلا أقل القليل من الجهد في خدمتهما.

مددت يدي لأسلم على الشيخ، وانحنيت لأقبل كفه، لكن الشيخ نزع كفه في اللحظة التي كدت ألثمها فيها، وقال: «أستغفر الله يا دلشاد..». وكانت هذه أول مرة يخاطبني باسمي مباشرة، ثم سمعت حمد يضحك مع النوخذة الذي قال بعد قليل: «الشيخ يريدك تبقى في خدمتهم في بومبي لين يخلص علاجه ويرد صور ونته معهم، هيش رايك؟» ذهلت للحظة، لكنني استجمعت شتات نفسي، وهززت رأسي موافقًا، فمن قال إني أستعجل العودة إلى صور أو مسقط؟

كنت أرتدي على جسدي كل ما أملك، ولا شيء هناك ليحزم ويحمل كما يفعل المسافرون الآخرون إلا نفسي، وعندما ودعت النوخذة ربت على كتفي، ودس في يدي عشر ربيات هندية، قائلًا بشيء من المزاح: «هذي أجرتك والباقي من عند الشيخ».

هبطنا الدرج الخشبي على مهل، الشيخ ممسكًا بيد ابنه في الأمام، وأنا خلفهما أحمل صندوق السفر، وما إن وصلنا الرصيف، حتى تحلق حولنا رجال كثيرون، أغلبهم أشباه عراة، يربطون خرقًا حول خصورهم وبين فخوذهم، فلا يكادون يسترون إلا عوراتهم، كانوا يشبهونني كثيرًا قبل أن أرتدي قميص النوخذة والدشداشة الصورية، إلا أني كرهت أن أرى ذلك.

كنا نشق طريقنا بصعوبة بين الخلق المتزاحمين، يتقدمنا حمد الذي بدا المكان مألوفًا لديه، أما الشيخ فكان يمشي وراء ابنه مباشرة، واضعًا يده اليسرى على كتفه، ويتلمس الدرب بالعصا في يده اليمنى، بينما مشيت خلفهما، منتبهًا لكل خطوة، وحريصًا أن لا تضيع أمتعة الشيخ وحمد، وأن لا أضيع أنا بين أرجل الناس.

فجأة سمعنا صوتًا ينادي باسم الشيخ، فتوقفنا، وما هي إلا لحظات حتى ظهر رجل هندي فارع الطول أمامنا، يرتدي قميصًا طويلًا وسروالًا، يضع نقطة حمراء على جبينه، ويلبس زورقًا صغيرًا من القماش على رأسه كما يفعل البانيان في مسقط.

ضم الرجل كفيه وانحنى أمام الشيخ، ثم صافحه وحمد، لكنه لم يلتفت لي ولا ليدي الممدودة نحوه، فاضطررت إلى استعادتها.

تكلم الشيخ مع الرجل بالأوردو، ثم سار خلفه إلى سيارة سوداء فتبعناه، خرج سائقها وفتح الباب للشيخ وهو ينحني، فركبنا نحن الثلاثة في الخلف، بينما جلس الرجل الطويل إلى جانب السائق.

ركب الشيخ أولًا وتبعه حمد، أما أنا فترددت قليلًا، لكن نظرة من حمد كانت كفيلة بتسليمي والجلوس بمحاذاة النافذة.

في مسقط كنت قد رأيت من بعيد سيارة أو سيارتين، واحدة للإنجليز وأخرى للسلطان، وكان لها هيئة تثير الفزع، وهي تسير بلا رادع على دروب مسقط المغبرة، يسبقها صوت بوق يحذر المارة.

جلست على الطرف بمحاذاة النافذة، وكدت أشعر بالدوار من سرعة تلاحق البيوت والناس أمام عيني، فأغمضتهما وحبست أنفاسي، كنت أظن أن الجميع سيشعرون بما شعرتُ به، لكن بدا الأمر طبيعيًّا لحمد وأبيه، اللذين استغرقا في حديث مع الرجل الهندي، ففهمت أنها ليست زيارتهما الأولى، ثم تنبهت لغبائي، طبعًا، هؤلاء تجار أبناء تجار، وهذه بلاد يعرفونها جيدًا، وهم معتادون عليها وعلى أهلها وكلامهم.

مضينا في الدروب النظيفة والساحات والميادين الواسعة، ورأيت أشياء عجيبة، عربات تجرها الثيران تزاحم سيارات متنوعة ألوانها وأشكالها، وحيوانات كبيرة بخراطيم، عليها خرق مزركشة، يسوسها رجال في ثياب غريبة.

كان الناس في الشارع يلبسون قمصانًا واسعة وسراويل،

والبعض يلبس الأُزُر، وكثيرون يتجولون أنصاف عراة، وقلة يلبسون كما يلبس الإنجليز في مسقط، أما النساء فكنَّ ملتفات في أقمشة صفراء وحمراء وخضراء زاهية، ويضعن الورد والياسمين في ضفائرهن الطويلة الثخينة، مثل ضفائر مريم التي إن تدلت صارت حبل نجاة.

مضت بنا السيارة مسافة وأنا أقلب عيني في هذه البلاد العجيبة، حتى وصلنا عند مبنى عظيم، وكأنه قلعة كبيرة، أكبر من الميراني والجلالي، لكنه على الأرض وليس معلقًا فوق الجبل، ويقف أمامه رجال في ثياب بيض، يعتمرون عمائم حُمرًا، ويحملون عصيًّا طويلة في طرفها سكين تبدو حادة حتى من البعيد.

وما إن ترجلنا من السيارة، حتى رأيت صفوفًا من الأقواس، يتوسطها سلم عريض من المرمر، مكسو منتصفه بسجاد أحمر، يصل حتى عند أقدامنا. تقدم الرجل الهندي الطويل، مرشدًا لحمد الذي كان يقود أباه برفق شديد، أما أنا فتأخرت عنهما منشغلًا بحماية صندوق الشيخ من الرجال الذين تسلموا الأمتعة.

دخلنا إلى المبنى فدار رأسي من علو سقفه، والمصابيح التي كانت تتدلى منه والدرج العريض الذي ينشق فيصير درجين يجتمعان في روشن بالأعلى، ثم يصعد ويصعد ويصعد حتى يصل السقف.

كان هناك الكثير من الكراسي والأثاث والبسط، وناس كثيرون، هنود وإنجليز لا يتوقفون عن الحركة، وعلى الجدران علقت صور لأشخاص لا أعرفهم، يلبسون ملابس جميلة ولا يبتسمون.

اقترب رجل يحمل صينية عليها كؤوس بها شراب أحمر كالدم، وقفت أمامه لا أعرف ما عليَّ فعله، حتى لكزني حمد وقال هذا شربت. وتناولَ كأسًا فشربها، وفعلت مثله، فسال في داخلي ماء حلو وحامض.

امتلأ جوفي بذلك الشربت، وشعرت بدوار خفيف، ما لبث أن تصاعد على شكل ضحكة لم أقوَ على صدها، فانزويت في ركن تحت السلم، وبقيت هناك أحاول كتم ضحكتي، لكنها غلبتني، فما استطعت إلا أن أستسلم لها، حتى سقطت على ركبتي أمتخض بقوة، وعندما توقفت وجدت حمد واقفًا عند رأسي، وقد بدا عليه القلق، إذ ظن أني مريض، رفعت إليه عينين تفيضان بالدموع والضحك، فمد يده ليرفعني عن الأرض: «إنته بخير؟» هززت رأسي دون أن أقول كلمة واحدة، وقمت.

كانت هذه ضحكتي الأولى منذ زمن بعيد، فأنا لم أضحك مذ سلمت مريم لبيت لوماه ولا حتى مرة واحدة.

لا أعرف ما الذي هيَّج الضحكة اللعينة اليوم، هل كان الشراب؟ أم هذه الدنيا العجيبة التي دخلتها ولم أفهم منها شيئًا بعد؟ أم هذا المكان الذي لم أرَ شبيهه حتى في أحلامي ولم يحكِ لي أحد عنه؟

مشى رجل يحمل المفاتيح أمامنا، وأخذنا إلى غرفة لم نحتج لنصعد الدرج كي نصل إليها، غرفة واسعة كأنها بيت، بها أثاث كثير، ولها نافذة تطل على بستان فيه زهر ونخيل وأشجار لم أرَ مثلها

من قبل، ولمحت طيرًا له ذيل طويل يسحبه، ثم ينفضه فينتشر، ويتحول إلى عيون كثيرة مكحلة بالألوان، بقيت متسمرًا أراقب ذلك الكائن الذي يمشي ويتهادى بغنج امرأة جميلة تمشي إلى الماء وتعرف أن جمالها لا حد له، حتى فتح حمد النافذة، فدخلت أصوات الطيور وروائح مختلطة.

تركنا الرجل بعد أن وضع حمد آنات في كفه، وعاد فجلس إلى جانب أبيه، على طرف الفراش المغطى بالأقمشة الملونة الناعمة، التفت الشيخ لابنه، ثم قال: «نزلت في هذا الفندق قبل أكثر من عشرين سنة، كان جديد وكنت بعدني شاب يريد يجرب كل شي جديد، وما كان يهمني كم أدفع، الحمد لله ورثت عن أبوي -الله يرحمه- خير كثير ما شاركني فيه حد، ولما زارني شريك والدي هنا، قال لي إني اخترت أغلى مكان في بومبي أسكن فيه، فعرف إنه تجارتنا بعدها نشيطة، وإنه يقدر يوثق فيني، فجدد الشراكة بيننا».

«يقولوا إن تاج محل بعده أغلى فندق في الهند كلها، وعسى إذا جاء الطبيب يفحصني، يعرف إني قادر على أجره ويهتم بي أكثر، أما الشفاء فبيدين الله».

«خير الله كثير وله الحمد، لكن الآدمي لازم يعرف وين يحط فلوسه، وأيش الفايدة من ورا كل ربية ينفقها، شي فايدة تجيك بلمرة، وشي فايدة تتأخر، لكنه لازم يرد لك فايدة وإلا كان خسارة فوق خسارة، وإذا ما سوى كذيه بيصير الاسم شايع والبطن جايع».

لأول مرة أسمع صوت الشيخ واضحًا، وأجده مسترسلًا في الكلام، وكأنه ما إن حلَّ في بومبي حتى استرد عافيته وبصره حتى قبل أن يرى الطبيب.

كان يلقي دروسه على ابنه، وكان الابن يهز رأسه بالإيجاب علامة على الفهم، أما أنا فكنت حائرًا، لا أفهم معنى ما يقوله، فلأهل التجارة والمال كلام لا يعرف مغزاه سواهم، أما نحن المستأجَرين، نؤمر فنطيع، ولا نجد ما نقيس عليه إلا الجوع والعري والحزن والكد الدائم.

أترى هذا حال مريم أيضًا في بيت لوماه؟ تؤمر فتطيع دون حاجة منها إلى فهم أي شيء؟ أتراهم يحسنون معاملتها هناك مثل ما يحسن هذا الشيخ وابنه معاملتي؟ هل تنام في غرف مثل غرفهم؟ أم أنها تعامل معاملة العبدة الذليلة؟ أتفتقدني مريم مثلما أفتقد رائحة كفها ورِقة صوتها وهي تغني لي؟ أم أن بيت لوماه ألهاها عني وعن ذكراي؟

أظن أنه ظهر على وجهي ما كان يعتمل في داخلي، فسألني حمد عما أفكر فيه ويغمني. «ما شي، دوختني الريحة». وأشرت إلى مبخرة غرست فيها أعواد مشتعلة، في أطرافها جمر، أشعر بحرارته في قلبي.

عبد اللطيف لوماه

كان أبي أحمد فضل لوماه -رحمة الله عليه- تاجر سلاح في شبابه، لكن الإنجليز كانوا يفضلون أن يدعوه: المهرب، وكانت هذه التسمية تثير حيرتي، فما أعرفه أن التاجر تاجر وإن تغيرت بضاعته.

وحتى بعد أن نفوه إلى مصر، ثم أعادوه إلى مسقط لم يتوقف عن تجارته تلك، لكنه صار أذكى من أن يخاطر وحده، فراح يعمل مع التجار الفرنسيين والبلجيك، الذين كانوا يضمنون له قدرًا من الحماية، عبر علاقاتهم بضباط البحرية البريطانية، التي تسير دورياتها على ضفتي الخليج، وتراقب ميناء مكران خاصة، فلم يتعرض هو وأيٌّ من شحنات الأسلحة للخطر بعد ذلك، حتى مات في بندر عباس، ودفن هناك وأنا ما زلت أدرس العربية والحساب في مدرسة الزواوي.

أما مسقط الوادعة الخاملة والمهملة الآن، فقد كانت في زمانه أهم مركز لتجارة الأسلحة في الخليج، ثم تحولت مخازنها إلى مستودعات سلاح بيد البانيان والإنجليز.

أخبرني أبي أن صناديق بنادق المارتيني هنري والسنايدر والمتفورد وذخائرها، كانت تنام غالبًا تحت حمولات من الليمون المجفف والتمر، التي تُصدَّر إلى مكران في سفن تحمل العلم الفرنسي، وبحسب ما حكى لي فإن شيوخ قبائل البلوش، كانوا يتلقفونها هناك ويبعثونها في قوافل إلى قندهار، حيث يشتريها الثوار الأفغان الذين يواجهون الإنجليز ويرومون إخراجهم من بلادهم، أو الهنود في ثوراتهم المتكررة عليهم.

وهناك حمولات أخرى تذهب في قوافل إلى داخل الجزيرة، فتتلقاها القبائل العربية المشغولة بغزواتها وحروبها ضد العثمانيين أو ببعضها ضد بعض، وهناك جزء كبير من البنادق والذخيرة تشتريه القبائل العمانية في الداخل، فلا يكون الرجل رجلًا دون سلاحه، والسيف والخنجر لم يعودا سلاحين يعتمد عليهما في مواجهة البنادق الحديثة.

نعم، كوَّن أبي أكثر ثروته من بيع السلاح والتعاون مع الثوار في فارس والهند ضد الإنجليز، أما أنا فكونت ثروتي من التعاون مع الإنجليز أنفسهم. كنت في البداية تاجرًا يذهب في رحلاته البحرية إلى موانئ العالم بنفسه، ثم صرت بالإضافة إلى ذلك مقاولًا يخدمهم في الميناء، فأزوِّد سفنهم بالماء والرجال الذين يقومون على خدمة السفن، فيحملون المؤن من البوارج وإليها. واستطعت الحصول على اتفاق بأن لا يتعاملوا مع أحد سواي، فكان لي احتكار تقديم الخدمات في ميناء مسقط.

والإنجليز ناسَبَهم ذلك جدًّا، فإبقاء ابن مهرب السلاح ببذرته الفاسدة، تحت أعينهم وسيطرتهم، خير لهم من الإنفاق على مراقبة حركته بين الموانئ، التي قد تضر بمصالحهم في الخليج المستكين لسطوة جبروت أسطول شركة الهند الشرقية.

هم كانوا حريصين على مصالحهم، ويعرفون ما يريدون بالضبط، وأنا كذلك كنت أعرف ما أريد، فتجارة أبي لم تعد صالحة الآن، فبعد إنشاء مستودع الأسلحة في مسقط، صار الموضوع بالغ الخطورة، وكل قطعة سلاح تُعرَف من مصدرها إلى مشتريها، وكل ذلك مسجل في دفاتر، والدفاتر في عهدة الوكيل البريطاني.

وأحسبني تاجرًا أكثر من أبي ومغامرًا أقل منه، لذا فهناك دائمًا ما هو مضمون على الأرض، من تجارة وعقار ودكاكين ومقاولة تقديم خدمات على البر، وما هو غير مضمون، من سفر في البحر والمتاجرة في بضائع، من مسقط والمنامة والبصرة ومكران وبندر عباس وكلوة وزنجبار.

وأنا رجل يحب النساء كما يحب البحر والمال، فجربتهن كلهن، الصغيرات والكبيرات، الممتلئات والنحيفات، البيضاوات والسوداوات، النصرانيات والهندوسيات والمسلمات والمجوسيات وحتى اليهوديات، تمتعت بهن في الموانئ التي أمرُّ بها، وفي البلاد التي تطيب لي الإقامة فيها لمدة أحيانًا.

لكن قلبي لم يرُق لواحدة منهن أبدًا، حتى وقعت عيناي على مريم، برقَّة عودها وعينيها الشهلاوين، عندها شعرت بحنان

غريب إلى شيء لا أعرفه، ولم آلفه في نفسي، هل كانت عينيها فعلًا أم رجفتها؟ أم نحولها الشديد؟ أم تراها كركراتها وتعالي ضحكتها في دهاليز البيت؟ تلك الضحكة التي تسرُّ الخاطر وتوقظ القلب.

منذ مدة بدأت أشعر أن بيت لوماه صار يقدم ويتداعى، وأن أرضه تشيخ، لأنها لم تعرف خطوات الأطفال، فما إن كبرنا أنا وفردوس، حتى صار بيتًا للكبار فقط، الكبار المقيدين بعضهم إلى بعض بسلاسل لا ترى. كنا نحن الاثنين وأمي رحمها الله والخادمات، ثم ماتت أمي وتزوجتُ أنا معصومة، التي اختارتها لي فردوس، من أعلى بيوتات مسقط مكانة كما كانت تقول.

لكن معصومة مرضت بالسل بعد العرس بشهر، ولم يسعفها قدرها فتُخلف من بعدها طفلًا، والحق أني أهملتها والتجأت إلى البحر وتجارتي، وعندما عدت من سفرٍ لي، وجدت فردوس قد دفنتها.

تركتُ مسقط، وتركتُ عيني مريم وضفائرها التي كانت تقارب الأرض، إلا أن ضحكتها كانت تزورني متى ما آويت إلى قمرتي لأختلي بنفسي، أو فتحت دفاتري لأسجل الأرقام والملاحظات، وكنت أبتسم لمجرد أن تعنَّ في بالي.

وعندما عدت إلى مسقط، كانت لهفتي عليها أكثر من لهفتي على البيت، وبالتأكيد كانت أكثر من لهفتي على أختي، وعندما وجدت أن البنت التي كانت قد بدأت بترك طفولتها قبل أن أغادر، قد تبدلت وطالت، ولمعت بشرتها واحمرَّت وجنتاها، واستدارت

ثمارها خفق لها قلبي بشدة، وعندما قبّلت كفي وهي تسلم علي، اجتاحتني شهوة جاهدت كي لا تظهر علاماتها عليَّ.

كنت أراقب حركاتها، وضحكاتها، وبريق الذكاء في عينيها، وشفتيها الواعدتين بالسكر، فعرفت أني أريدها كما لم أُرِد أحدًا من النساء، كانت المرأة الوحيدة التي أردتها لي وحدي، أن تبقى فيَّ وأن أبقى فيها، أما بقية النساء فقد كن موانئ، أعبرهن مسافرًا لا يقيم.

أمرت بأن تنقل من المطبخ إلى خدمة الليوان، وأن يُعتنى بها، أردتها قريبة مني، دون أن أخطط لما هو أبعد، على الرغم من أني كنت أعرف وأريد ما هو أبعد.

لكن ذلك كان كل ما أقدر عليه في حينه، إلا أن معارضة فردوس الصريحة لرغباتي استفزتني، ولأول مرة أجد نفسي غير عابئ باعتراضها وغضبها وصراخها، وغير مهتم باتفاقنا القديم حول تقسيم ميراثنا في البيت والتجارة.

نعم، استفزتني إلى درجة أني بعثت لسنجور جمعة، كي يوافيني في دكاني، في صباح اليوم التالي، والرجل لم يتأخر عليَّ، فدخل الدكان أول الصباح باسمًا، وإن كان في عينيه قليلٌ من الخوف، وأنا استقبلته ضاحكًا، وربت على كتفه مطمئِنًا.

وعندما سألته عن أبيها دلشاد وأخبرني بقصته كاملة، لم أكترث لأصله وفصله وأسمائه كلها، لكن غيابه بعد أن شفي هو الذي أقلقني، خاصة أن أحدًا لم يعرف على وجه اليقين أين ذهب الرجل أو ما مصيره، فبعضهم قال إنهم رأوه يركب خشبة النوخذة علي بن

صالح المخيني المتجهة إلى صور، وبعضهم قال إنه توجه للسيب ليعمل في مقاصير السادة ونخلهم، وبعضهم رجح أنه مات مثل أبيه تحت السمرة الملعونة في سيح المالح، لكن أحدًا لم يستطع تأكيد أيٍّ من هذه الروايات.

وعندما طلبت من سنجور جمعة أن يكون وليَّ مريم في عقد الزواج، ضحك ثم استغفر، وعاد واستغفر وحوقل، ثم قال: «متأكد إنك تريد تتزوج بنت دلشاد؟» وعندما أصررت عليه حوقل ثانية، وسألني إن كنت أعرف قصة هاني وشاه مريد، لكني لم أرد أن أعرف أو أسمع القصص، فاستعجلته، عندها اقترح أن يكون عمها عيسى وليها، فهو الأحق بذلك.

وهكذا ودون علم مريم أو فردوس أو حتى ما مويزي، عقدت على مريم بنت فرحان بن غصيب ود السيح، في المسجد الصغير في حارة لوغان، وعقد سنجور جمعة عقدة النكاح، بأمر من عيسى بن عبد الرسول صومار عمها، الذي تردد بادئ الأمر، ثم هزَّ رأسه بصمت موافقًا، وبشهادة حميد بن عبد الله ورجل يدعى الشهم من حارة الراوية، كان مارًّا بحماره عائدًا من الوادي الكبير إلى بيته، فاستوقفه سنجور جمعة وأشهده على العقد.

وعندما عدت إلى البيت دعوت مريم إلى غرفتي، وأخبرتها أني عقدت عليها، وأنها أصبحت زوجتي على سنة الله ورسوله.

مريم لم تنطق بكلمة، وبقيت واقفة في مقابلي، عيناها الكبيرتان تحملقان إلى وجهي، وكأنها غير مصدقة لما أقول.

ثم بدأت في الضحك، وتعالت كركراتها، ثم صار ضحكها ممزوجًا بالدموع، التي كانت تسيل على خدها بغزارة لم أرَ مثلها. لكني لم أعرف إن كانت موافقة أم رافضة، فرحة أم حزينة، راضية أم غاضبة. أمسكتها من ذراعيها لتهدئتها، لكنها استمرت بالضحك حتى تقطعت أنفاسها، ثم صارت تجاهد لتقول شيئًا ما، لكن صوتها لا يكاد يخرج، ولم أفهم شيئًا مما تقول.

بدأت أشعر بالندم على أني ربما تسرعت وأخطأت عندما لم آخذ في اعتباري أنها قد ترفض، فتزوجتها دون علمها غصبًا، خفت أن ترفضني، وأن تهرب، وأنا لا أريدها أن تهرب، ولا أريد أن آخذها غصبًا.

ثم فجأة توقفت عن الضحك، فسألتها: «إنتِ موافقة؟» فهزت رأسها بالإيجاب مثل الأطفال. ثم اقتربت مني، وسألتني: «حبابي، كيف حال أبوي؟» فأخذتها تحت جناحي وضممتها بقوة: «أنا الحين زوجك وأبوك وكل بو تحتاجيه من الدنيا».

ناديت على فردوس وما مويزي، وأخبرتهما أني عقدت على مريم، وأنها منذ اللحظة لها مثل الذي لي في البيت، وأن قدرها من قدري وحشمتها من حشمتي، وأمرت ما مويزي أن تبلغ بقية الجواري والخدم، وأن تعد للعرس بعد جمعتين، وأن تجهز مريم لذلك.

أما فردوس فلم أنظر أثر الخبر في وجهها، فقد غادرت مسرعة، وكأنها تهرب من حريق.

لكني سمعتها تولول في دربها: «فضحنا عبداللطيف.. فضحنا».

فعلت ما وجب عليَّ فعله، فبنت دلشاد حرة وإن ضعف نسبها، وأنا عاشق، ما عاد يطفئ ناري إلا وصلها.

فردوس

تزوجها..

تزوج بنت دلشاد.

لم يتسرَّ بها كما كان يفعل أبي أو كما كان يفعل هو نفسه بالإماء الأخريات، بل تزوجها، لا راعى ذكرى أبيه أو أمه، لم يعد لي ولم يسألني، ولم يستشر الكبار، ولا فكر في سمعته بين التجار، هكذا قرر أن يتزوجها فتزوجها.

فضحنا.. فضحنا عبد اللطيف، وجعل من نفسه أضحوكة مسقط.

حشمتها من حشمتي، يقول، أيظن أنها ستساويني رأسًا برأس؟ فقط لأنه أراد ذلك.

لكنه تزوجها، عقد عليها، ثم جاء ليلطمني بالخبر على وجهي.

تجاهلني، وأشغل جواري البيت بالإعداد لعرسها، أعرف أن الطاووس تتمنى أن تجرعها السم، لكن ما مويزي، عجوز الشؤم،

فرحة وتتمايل طوال النهار، وكأنها ترقص مع الجن، الذين يسكنون جسدها النخر، وخلوف وفرشوه وعساكر، دق الله عظامهن، لم يتوقفن عن طحن الحبوب ودق البهارات وقشد السمن لوليمة العرس.

وأنا كأني لست في البيت، وتلك القملة الصغيرة بنت دلشاد، محجورة في غرفة من الغرف العلوية، قريبة من غرفته وبعيدة عني.

ألقى الكلام عليَّ وكأني من بعض إمائه، واعتبر موافقتي تحصيل حاصل لا أكثر، ثم مشى وتركني جالسة في مكاني، قبضتي متشبثة بالبساط، خوفًا أن تميد بي الأرض فأسقط.

لكن أي سقوط أكثر من هذا يا بنت لوماه؟ أي سقوط أكثر، من أن تصبح خادمتك سيدة، تجالسينها ولا تقدرين على أمرها، وتعملين لدخولها عليك وخروجها شأنًا وأي شأن!

يا ويلي عليك يا فردوس، فتحتِ أبواب بيتك للغريب لتحسني، فجوزيتِ على الإحسان بعضِّ اليد.. كلبة بنت دلشاد، كلبة بنت كلبة.. كلبة بنت كلبة.

وخادماتي، حتى خادماتي، ما عدن يأتين لي فيأخذن مني الإذن في مونة البيت، وصرن يأخذن أوامرهن من عبد اللطيف مباشرة، وأسمع من حجرتي ما مويزي وهي تقول للخادمات: «بيبي فردوس مريضة لا تأذيها». نخر الله عظامك، وأمرضك مرضًا لا تقومين منه يا عبدة السوء، يا أس البلاء ورأسه.

كيف لي أن أواجه خادماتي؟ كيف لي أن آمرهن بعد الآن؟

وعبد اللطيف يقول: احترام بنت دلشاد من احترامه، وقيمتها من قيمته، وساوى بيننا، أنا وهو وبنت دلشاد؟

لم تقع عيناي عليها منذ أن بلغني عبد اللطيف بعقد نكاحه عليها، لكنني أعرف أن ما مويزي مهتمة بتغذيتها، تلك القملة الصغيرة، الجوعانة بنت الجوعى، تسقيها الحليب والعسل وتطعمها اللحم والزبيب، وتدهن جسدها بالمحلب والصندل، وتغرق شعرها بالدهن، وتأخذها يوميًّا إلى الحمام فتفرك جسدها.

لا بد أن ما مويزي قد علمتها فنون الفراش وسحر العبدات، وهو سيدخل بها بعد أيام، ثم سينتفخ بطنها، وستنجب منه أطفالًا يقاسمونني ورث أبي وأمي، الذي لم أسأله يومًا عنه، ولم أطمع يومًا في تقاسمه، بل تركته كله له، واثقة من أنه سيراعي مصالحي كما يرعى مصالحه، وحتى لو أنه تزوج امرأة أخرى وأنجب، سيتزوج امرأة منا، تأتي لتزيد في المال لا لتنهبه، مثل بنت دلشاد.

وما مويزي، تلك العجوز الخرفة، تقضي جلَّ وقتها في غرفة بنت دلشاد، غرفة بنت دلشاد، أقولها غير مصدقة، أصبح لبنت دلشاد غرفة في بيت لوماه وهي التي اعتادت نومة الخيام والعرشان، صارت لها غرفة ومكان ومنزل في البيت الكبير. ما مويزي تكاد لا تخرج من عندها، تدهنها وتمشطها وتجلوها وتعد لها ثيابها لليلة الزفاف.

من أي قماش فصلوا الثوب الذي سترتديه؟ هل اشترى لها الحلي؟ هل بعث سخي إلى تجار مطرح ليبتاع لها الحرير والأطلس؟ أم أنه أحضر الحرير في رحلته الأخيرة من بومبي وخبأه لها؟

لا بد أنه كان يخطط لذلك من قبل.

ولماذا بنت دلشاد؟ لماذا بنت دلشاد؟

هل عشق؟

لا. عبد اللطيف لا يعشق. لا أظن أن يحمله الهوى أبعد عن حاجات جسده ورغباته، فلماذا هي التي اختار أن تكون زوجته؟ بنت دلشاد التي لا تكف عن التردد بين البكاء والضحك بدون سبب مثل المجنونات.

ثم كيف أعمته الرغبة فلم يكترث لأصلها؟

اللعنة... اللعنة عليك يا عبد اللطيف، لا، اللعنة على تلك العاهرة الصغيرة.. اللعنة عليها، وعلى ما مويزي وعلى سنجور جمعة.

تسرَّ بها إن أردت، كل الرجال الذين مثلك يتسرون، يقضون رغباتهم مع عبداتهم، كما كنت تفعل مع الطاووس وغيرها. آخ، ليتني لم أبعد الطاووس عنك، لكن الرجال إن أرادوا الزواج بحثوا عمن تزيدهم قدرًا ولا تنقصهم قيمة.

ما الزائد في بنت دلشاد؟

بلا نسب ولا أصل، ولا مال ولا أهل ولاعزوة، فقيرة بائسة، يشتكي التراب من فقرها.

ما الذي أعجبك فيها؟

وصلت عجفاء ضامرة، ولم تكتسِ اللحم إلا هنا.

فتشتها عندما جاءت وعصرت لحمها، فلم أجد شيئًا يطمع فيه. غذيت في مطبخ فرشوه، فبزغ صدرها، واستدارت مؤخرتها، وصارت نظرة عينيها أكثر جرأة.

آخ يا عبد اللطيف، ما خطر في بالي أنك ستفعلها، لقد اقترحت عليك فاخرة بنت خالتي زباد أجمل نساء صحم، واقترحت كل بنات بيوتات ولجات وحارة البحارنة، وأنت كنت تأخذ كل اقتراح لي بضحك ومزاح، ما لها فطام بنت محمد حسن؟ ما لها خيرية بنت علي رمضان؟ كلهن جميلات ولهن امتداد في النسب يوازي امتدادنا، ولآبائهن القدرة على حماية ظهرك ومساندتك إن خسرت تجارتك.

هذه أيام كساد وجوع كما تقول يا عبد اللطيف، الناس يبحثون فيها عن رزق يكفي بطونهم أو يزيدهم غنًى، وأنت بحثت فلم تجد إلا بنت دلشاد... ما أعجبك من نساء الأرض في مسقط والبصرة والمنامة وصور وبندر عباس ومكران إلا بنت دلشاد؟!

وأنا يا عبد اللطيف؟

أنا؟

لا زوج لي ولا ذرية ولا سند في الدنيا بعد أبي غيرك. أأهون عليك فتساوي بيني وبين رمة الأرض هذه؟

أنا التي لم أخرج عن طوعك يومًا، ولم أطلب أكثر مما كنت تعطيني من مال لتصريف البيت في غيابك، وأقبل طرف عمامتك امتنانًا وشكرًا عندما تعود.

أظننت أني لست مثل بقية النساء بحاجة إلى زوج وبيت وأطفال؟ أتظن أن كل حاجتي حجرة ولقمة وثياب وصيغة وخدم؟

ما له صاحبك حميد بن عبد الله؟

أرقبه من خروق الباب عندما يأتي بأخبارك من الفرضة، أو من فرجة في نافذة المجلس عندما يأتي إليك بدفتر الحساب، ما لك رفضته عندما جاء يخطبني؟

نعم، لقد سمعتك بأذنيَّ هاتين وأنت تخبر ما مويزي بذلك في الليوان، وأنا تحجرت عند الباب لا أعرف أأدخل عليك أم أعود إلى غرفتي، حتى انتهيت وأنت تقول: الرجال زين لكنه ما من ثوبنا.

ما من ثوبنا يا عبد اللطيف؟ ما من ثوبنا؟ وبنت دلشاد صارت من ثوبك الآن؟

الله يسامحك..

الله لا يسامحك يا عبد اللطيف.. الله لا يسامحك.

أكاد أن أغادر شبابي وحظوظي كلها، وأنا في انتظار أن تجد لي رجلًا من مقامنا وقدرنا، فانشغلت بأهوائك ونسيتني.

الله لا يسامحك يا عبداللطيف، لا أنت رحمت ولا أنت تركت لي شيئًا من رحمة الله.



عيسى عبد الرسول

ربما كان بين الخيمة والمقبرة خمس مئة خطوة، خمس مئة خطوة لا أكثر، ومع أن النعش كان خفيفًا، كما لو أنه نعش طفل، فإننا كنا جميعًا نلهث عندما وصلنا المقبرة، حيث كان القبر ينتظرنا، والرجال الذين حفروه يقفون عنده مكسوين بالتراب، في يد هذا مثقاب، وفي يد الآخر رفش، وفي يد الثالث قفير ممتلئ ترابًا.

نزل دلشاد أولًا، ثم تبعه ميرزا حسن، ووقفوا في بطن القبر يمدون أيديهم إلينا، وأنا وسنجور جمعة ناولناهم الجسد الصغير الملفوف في القماش الأبيض.

تناول دلشاد كتفي نورجيهان، وتناول ميرزا حسن قدميها، وسَّداها ذراعها اليمنى، ووضعا رأسها صوب القبلة، فعلا ذلك بتعليمات من سنجور جمعة، الذي كان واقفًا معنا في الأعلى لا يقدر على الهبوط داخل القبر معهما.

مددت ذراعي فصعد ميرزا حسن، ومددتها لدلشاد فتجاهلها، وبقي هناك، يقبِّل وجه نورجيهان ويضم رأسها.

ناديته، وسنجور جمعة أمره بالاستغفار، وقرأ شيئًا من القرآن عله يبدد الحزن، الذي أثقل على قلب دلشاد وشوَّشه، والرجال استغفروا وحوقلوا، لكن دلشاد بقي في القبر، حتى نزلت إليه، ولففت ذراعي حوله، وأجبرته على الصعود، بمعاونة الرجال في الأعلى.

أهلنا التراب على جسدها، ثم رصصنا فوق قبرها الحجارة، ودلشاد واقف في مكانه، وعيناه تتنقلان بين الحجارة ووجوهنا، ثم ناوله أبوها حجر الشاهد، فبدا كمن لا يعرف ما عليه فعله، حتى تنبه فوضعه عند موضع رأسها، وغرسه في التراب، ثم قام، ووقف مع ميرزا حسن ليأخذ العزاء.

غادر الجميع المقبرة والشمس قد انتصفت في السماء، لكن دلشاد قرفص عند القبر وجلس، حاولت أن أقنعه بالعودة معي، لكنه رفض: «روح أنت، أنا ببقى شوية مع نورجيهان، بلحق بكم، ما بتأخر، روح أنت، في قلبي كلام كثير أريد أقوله لها».

تركته، قلت سيختلي قليلًا بنفسه ثم سيلحق بي، لكنني وأنا لم أصل الوادي بعد، سمعته يضحك، ويضحك، توقفت في مكاني واستدرت، فوجدته قد سقط على تراب المقبرة وتمرغ به.

عدت إليه، حاولت أن أوقفه، لكنه لم يستجب لي، وبقي على حاله، يتمرغ بالتراب ويضحك، وقفت هناك أنتظره أن يتعب، وعندما تعب، كان مخاطه ودموعه قد اختلطت بالتراب، وصارت بقعا لصقت بشعر صدره العاري.

حملته على ظهري وقطعت به الوادي، وأنزلته أمام خيمته، قال: عطشان. فناولته الجحلة فدلق ماءها كله في جوفه.

أردت أن أبقى معه، لكنه استلقى منطويًا على نفسه كقبضة يد ترتجف من شدة القسوة والألم، فتركته في مكانه، وأخذت طريقي صعودًا حتى آخر الوادي الكبير، وهناك تسلقت الجبل وجلست تحت سمرة كبيرة، لا يعرف أحد غير الله من أنبتها في هذا الجبل الصلد.

من مكاني كنت أرى حارات البلوش والزدجال ولوغان وحارة الراوية، ونخيل السادة، وآبار الهناقرة، ومزارع البانيان ومعبدهم، وكنت أرى المقبرة، قائمة على مرتفع يطل على تشعبات الوديان، وصرت أتخيلها في وقت السيل، والوادي الصغير والوسطي يتدفقان فيحيطان بها، وأتخيل أهلها، يشعرون بالماء يمضي بمحاذاتهم، وتساءلت، هل يفرح الموتى بالمطر كما يفعل الأحياء؟ هل يرغبون بأن يخرجوا قليلًا ويطلوا على الوادي، كما يفعل الأحياء؟

من مكاني كنت أستطيع رؤية قبر نورجيهان بوضوح، وكذلك قبور حسين ونورية وما زليخة، وتمنيت لو أنهم يقدرون على مواساة بعضهم بعضًا، وأن تقول نورجيهان لما زليخة إنها زوجة دلشاد، وأن لهما ابنة، لم تعرف ولو قطرة من طعم حليبها، فيعرف حسين ونورية أنهما صارا عمًّا وعمَّة، وتضحك ما زليخة، تضحك ضحكتها القصيرة التي تشبه الشهيق.

من مكاني كنت أستطيع تتبع خطواتنا نحن الثلاثة، أنا وحسين

ودلشاد، في دروب الحارات ومغاور الجبال، كنت أرى كل شيء، كل ما حدث لنا، وكل ما أحدثناه في المكان.

بقيت هناك، حتى قاربت الشمس على المغيب، فهبطت، وذهبت إلى خيمة دلشاد فلم أجده، فعرفت أنه ذهب إلى أمي لرؤية ابنته، وبقيت في خيمته، وعندما حلَّ الظلام سمعت وقع قدميه، دخل ونام فنمت إلى جانبه، وبقينا هكذا، ننام في خيمة دلشاد، بينما تعتني ما حليمة بمريم الصغيرة.

كبرت مريم بيننا نحن الثلاثة، وعندما ماتت أمي، انتقلت إلى خيمة أبيها، وعدت أنا إلى خيمتنا، حيث كانت تأكلني الوحشة، فتحايلت عليها بالمشي الطويل حتى التعب، فألفتها وأظنها ألفتني كذلك.

وذات يوم مررت بخيمتهما بعد العشاء وأنا عائد من مشي طويل أوصلني إلى أطراف مسقط، فسمعتها تغني لدلشاد الأغنية نفسها التي كانت أمي تغنيها للأطفال حتى يناموا، فتلصصت عليهما من فرجة بين جرود الخيمة، فوجدتها وقد وضعت رأس أبيها في حجرها وتمسح عليه، وهو مغمض العينين، ربما كان نائمًا، وربما كان مستسلمًا لذلك الصوت الحلو.

في تلك اللحظة فقط تمنيت لو أني تزوجت كما أرادت ما حليمة، فقط كي أجرب تلك النومة في حضن بنت تغني لي، فتبعد عني أثقال وحشتي.

صارت مريم ابنة الوادي، ابنتنا كلنا، أنا وسنجور جمعة ودلشاد،

وربما كل أهالي الحارات، أما مهيتاب وميرزا حسن، فما عادا موجودين، فجنون ميرزا ازداد حدة بعد موت نورجيهان، وقبل أن تكمل الحول في مرقدها، كان هو قد مات ودفن عندها. ومهيتاب انتقلت هي وبناتها من مسقط، وآخر ما سمعته عنهن، أنها زوجت بناتها في المصنعة وبركاء، واستقرت هناك معهن في ساحل الباطنة.

وعندما اختفى دلشاد، بحثت عنه في كل حارات مسقط، وفي السوق الداخلي، ومضيت ألفُّ حارات ميابين والتكية، ووصلت حتى حرامل والبستان، لكني لم أجده، ولا في مستشفى الميشن. ثم خطر في بالي أنه لربما عاد لزيارة قبر نورجيهان، ربما ذهب إليها ليستسمحها في تركه مريم تذهب لتعيش في بيت لوماه، لكنه لم يكن في أي مكان، اختفى وكأنه لم يوجد في مسقط رجل اسمه دلشاد إلا ما تبقى من اسمه على ألسنة الناس.

هو لم يخبرني بشيء، لكني عرفت من سنجور جمعة، كل ما دار بينهما، وربما كان سنجور جمعة على حق، فبلا يد أم ولا عين أب تحيط بها، كيف ستحمي البنت من عيون الآخرين وربما من أيديهم، التي تتحين الفرصة لقطف ثمار إن لم تكن قد نضجت بعد فهي لن تتأخر كثيرًا في ذلك.

كلنا يعرف أن مريم أخذت الكثير من جمال نورجيهان، لكنها لم تأخذ الكثير من سلاطة لسان جدتها مهيتاب، والحمد لله أنها لم تأخذ شيئًا من جنون ميرزا حسن، ولا أظنها أخذت من دلشاد نفسه إلا رقة القلب وتلك الضحكة التي تنفجر كطلقة مدفع، وإن

بدت أنها أكثر مكرًا منه بكثير، لكن ما عسى طفلة ربيت على حليب أمهات كثيرات أن تكون؟!

بحثت عن دلشاد طويلًا، وانتهيت في بحثي عنه إلى الفرضة، وهناك أخبرني أحد العتالين أنه لمحه يصعد إلى سفينة صورية، فعرفت أن دلشاد عاد للهرب، هرب من الراوية إلى لوغان، والآن سيهرب من مسقط إلى صور، أو ربما إلى مكان آخر، من يدري.

وعندما جاء عبد اللطيف لوماه ليعقد على مريم، لم أخبره أني جئت إلى بيتهم أكثر من مرة لأسأل عن مريم، بعد اختفاء أبيها، وأنه لم يفتح لي أحد، فما فائدة أن تقول شيئًا لن يغير من واقع الحال شيئًا.

لم أخبره أن مريم بنت هذه الحارات، وهذه الوديان وهذه الجبال التي تلتف حولها، أنها بنت الجميع، وأن الحليب الذي غذيت به، هو حليب أمهات كثيرات، وأنها لن تكون سعيدة في مكان آخر. فمن أكون أنا حتى أقول أو لا أقول، لرجل غني جاء ليتزوج -على سنة الله ورسوله- كما يقول سنجور جمعة فتاة صغيرة بائسة، يتيمة ولا يعرف أحد في أي البلاد قد انتهى أبوها، بأن عليه أن يعيدها للفقر والجوع وسوء الحال، فقط لأنه كان أخًا لأبيها، وأنه حملها كثيرًا على ظهره، ودار بها في هذه الدروب، وهي تطلق كركراتها الصغيرة، التي كانت تخفف من وحشته.

نعم أنا عمها، لكن بعد اختفاء دلشاد، حتى هذا لم أعد متأكدًا منه، ما كنت أعرفه ومتأكدًا منه أن دلشاد كان سيحب أن يطمئن

على ابنته، وسنجور جمعة يعرف عبد اللطيف لوماه ويأمنه ويستأمنه، ثم إن هناك تلك النظرة الخاطفة التي التمعت في عينيه وهو يطلبها مني، لم تكن لمعة رغبة أو طمع، بل كان فيها شيء من الحنان، وتشبه قليلًا اللمعة في عيني دلشاد.

أمرت بعقد النكاح وتركت مسجد لوغان، وذهبت إلى تلك السمرة أعلى الجبل لأراقب تلك الحارات والدروب ومسارب الأودية، والمقابر والبساتين، وحركة الناس في الأسفل، الناس الذين بدوا من مكاني مجرد حصًى يتحرك.

دلشاد

بتنا في الفندق تلك الليلة، وفي صباح اليوم التالي جاء الطبيب للشيخ، وأخرج من حقيبته السوداء أدوات من الحديد اللامع، فحصه مثلما فحصني طبيب الميشن، ووضع سماعة على صدره، قلَّب جفنيه، ولوَّح أمام عينيه بأصابعه، ثم سأل الشيخ وحمد أسئلة كثيرة، فهمتُ بعضًا منها وغاب عني أكثرها، ثم هزَّ رأسه بيأس، وقال للشيخ: «للأسف لا أملك دواء لك، فعيناك سليمتان في الظاهر، لكنك غير قادر على الرؤية، وهذا أمر محير، ربما يتعلق الأمر بالأعصاب، وهذا أمر لا أتعاطى معه، لذا أنصحكم بالذهاب إلى مستشفى الدكتور ناريان في ميسور، هناك لديهم أدوات جديدة، جلبها الدكتور ناريان من لندن».

ثم أخرج ورقة من جيبه، وكتب عليها شيئًا ما وناولها حمد، الذي خرج معه ورافقه إلى الباب، بينما بقيت أنا واقفًا أراقب الشيخ الجالس على الأرض، كان جامدًا كصخرة، وعيناه مثبتتان على نقطة لا يراها سواه، لكن نفسه اعتملت على وجهه، فتقلَّب

من ذهول إلى غضب إلى حزن في لحظات قليلة، وعندما عاد حمد، بادره بالسؤال:

- مو قال؟

- لازم نسير ميسور.

- تراني سمعته، وسمعته يقول إنه ما في علة، زاد في الكلام شي معاك؟

- لا، لكنه قال ما نتأخر زيادة.

- دبرت أمورك؟

- كل شيء تدبر، وباكر الصبح نسافر ميسور بالقطار.

عندما سمعت كلمة قطار فزعت. أنا أعرف السيارة والمركب، ورأيت في فرضة بومبي ومسقط بواخر كبيرة، لكني لم أسمع عن القطار من قبل، ولم أعرف إن كان حيوانًا أم حديدًا، فسألت حمد، فابتسم:

- هو شيء كما الغول، طويل ويمشي على بطنه وله راس.

- ويلدغ؟

- لا ما يلدغ. الناس تركب بطنه ويشلها من مكان لمكان.

- في بطن الغول؟

- نعم في بطن الغول.

ذهبا إلى النوم، وشعرت بتقلب الشيخ طويلًا في فراشه قبل أن

يتعالى شخيرهما، لكنني لم أنم، لم يشغلني عمى الشيخ ولا حديث الدكتور ناريان ولا حزن حمد، بل شغلني الغول الذي سيبتلعنا في الصباح، ثم سيقذفنا عندما نصل ميسور، ورغم أني كنت أعرف أن حمد يمازحني، لكن الخوف لم يتركني، وصار الغول يكبر ويكبر في رأسي، حتى ما عدت أرى شيئًا غيره.

فكرت في الهرب والنجاة بنفسي، وبقيت محتارًا أأهرب منهم فتتلقاني بلاد لا أعرفها؟ أم أبقى معهم فيبتلعني الغول؟ ثم كيف لي أن أهجر الشيخ الذي كرمني وابنه الذي قربني؟ لكن ما نفعهما لي إن ابتلعني الغول؟ ولماذا يريدان أن يفعلا ذلك؟ ما الذي يضمن أنهما متى ما دخلا بطنه فإنه سيخرجهما في ميسور؟

لكن، لا، لن أترك الشيخ وابنه مهما كان الأمر، خاطبت نفسي مهدئًا: «أنا معهم في هذه، لا يهمني غول أو حوت»، عندها تذكرت حكايات سنجور جمعة وحوت يونس، فقلت: ربما سنخرج من بطن الغول كما خرج يونس من بطن الحوت، فاطمأن قلبي قليلًا، ثم غشيني وجه نورجيهان ورائحتها، وأخذتني هدهداتها إلى نوم خفيف، ما لبث أن تلاشى عندما سمعت نحنحات الشيخ.

بعد صلاة الفجر ركبنا السيارة إلى محطة بومبي أو «السنترال» كما قال حمد لأبيه، وأغمضت عيني حتى لا أصاب بالدوار، وفي ظلام عيني رأيت وجه أخي عيسى وما حليمة ونورجيهان، وعيني مريم المتوسلتين عند باب بيت لوماه، شعرت بالدموع تملأ عيني، وجفناي مطبقان عليهما، وعندما وصلنا لكزني حمد بكوعه،

ففتحت عيني وسالت دموعي، لكني قفزت من السيارة بسرعة فلم ينتبه أحد: «أخاف من السيارات، والتو بدخل بطن الغول، مو ذي الحياة يا رب؟».

بقي الشيخ عابسًا مثلما كان بالأمس، لكنه ما إن سمع همهمتي اليائسة حتى أطلق ضحكة لم أسمعها من قبل من هذا الرجل، الذي كانت أقصى طاقة وجهه ابتسامة صغيرة، لا تكاد ترى.

التفت حمد لأبيه وابتسم مستغربًا مثلي، ثم التفت إليَّ مستفسرًا، هززت رأسي، وذهبت لإخراج الأمتعة من السيارة.

تلفت حولي، فوجدتنا نقف أمام مبنًى كبير، تحيط به الحدائق من كل صوب، وفكرت، ربما كان الغول ينام هنا، وعندما يجوع يأكل من هذه الحدائق. ووجدت الناس يتدافعون في الدخول، وآخرين يحملون بضائع صغيرة وطعامًا يبيعونه للمارة، ورأيت رجلًا يلاعب قردًا مقيدًا بسلسلة، ورأيت آخر يجلس القرفصاء أمام سلة، ويعزف على مزمار، ثم وقبل أن أستدير تجاه الباب، لمحت رأس ثعبان يطل من داخل السلة، جمدت في مكاني، وبدا الخوف يدب في قلبي مرة أخرى، لكن حمد ناولني صندوق سفره فحملته، وتبعتهما بخطوات متثاقلة إلى داخل بيت الغول. للحظة ترددت في الدخول، لكني رأيت وجوه الناس المطمئنة، فارتاح قلبي قليلًا، وحثثت خطاي وراءهما، ودخلنا بيت الغول، فوجدته كبيرًا جدًّا، بسقف عالٍ، أذهلني عن نفسي، وتيقنت أن هذا الغول أكبر حتى من القلعة التي سكنَّاها، وأننا لا محالة هالكون.

كنت أتبعهما بنظري وخطواتي تتابع خطواتهما، مندفعًا طلبا لنجاتي بينهما، حتى سمعت صوتًا هائلًا، يشبه صوت نفير البواخر لكنه أقوى بمرات كثيرة، وشعرت بلفحة هواء ساخنة تهب، فأدركت أن الغول استيقظ. ارتفع وجيب قلبي، حتى شعرت بضلوعي تتكسر من شدته، ثم فجأة اندفع سيل من البشر تجاهنا، ووجدت نفسي أدور حولي مرات عديدة في ذهول، وعندما توقفت بحثت عن الشيخ وحمد فلم أجدهما، كانا قبل لحظة هنا معي، والآن لا أجدهما في أي جهة يذهب بصري إليها.

ناديت عليهما بأعلى صوتي، فبدا وكأن صوتي يذوب ويتلاشى في حركة الناس المندفعة والأصوات التي تتعالى من كل مكان.

ركضت يمينًا وشمالًا، اخترقت صفوف الأجساد المندفعة، نفذت بجهد من بينها، وما إن أجد فسحة في المكان حتى أقف، أقلب بصري علِّي ألمحهما في مكان ما.

تتشابه عليَّ الوجوه، وتذوب السحن في بعضها، رجال ونساء، كبار وصغار، الجميع مستعجل إلى وجهته، منشغل بأمره، وأنا وحدي، أقف في وسط المكان، انتبهت إلى كفي تقبض على صندوق سفر حمد، تسمرت في مكاني للحظات، ذاهلًا حتى عن نفسي، لا أعرف لي وجهة ولا مصيرًا.

بعد دقائق ارتفع النفير مرة أخرى، وتدافع الناس في اتجاه آخر، وخلا المكان أو كاد من البشر، ووجدتني وحيدًا في ذلك المكان الهائل، فعرفت أن الغول ابتلعهما، وكدت أن أفرح بنجاتي، لولا أني

تذكرت أنني صرت وحيدًا، في مكان غريب، لا أملك فيه شيئًا إلا ربما القليل مما أعرفه من اللغة الهندية.

وقفت مدة لا أعرفها في وسط ذلك المكان الكبير، الذي بدا لي في لحظتها أكبر من مسقط كلها، وأنا أصغر من حصاة في سيل الوادي الصغير، صندوق السفر في يميني يزداد ثقلًا، لكن قلبي بالتأكيد كان أثقل منه، ورأسي في حيرته يخفق مثل شراع في ريح البحر.

كان لا بد لي من الحركة، فمشيت متثاقلًا، لا أعرف إلى أين تسوقني قدماي، حتى وجدت رجلًا سألته عن الباب، فأشار إلى مكان ورائي.

خرجت من الباب نفسه الذي دخلنا منه، فوجدت السماء والحدائق والرجال الذين يحملون السلال ويبيعون أكواز الحمص، والنساء اللاتي يبعن عقودًا من الزهور الصفراء، ورأيت الرجل الذي يلاعب القرد، بحثت عيني عن صاحب الثعبان، لكني لم أجده، فعرفت أنه ما كان إلا حيلة لاستدراج الناس إلى بطن الغول، ووجدتني أجلس على جانب السلم، فرحًا بنجاتي، أحتضن صندوق حمد وتغرقني موجة هائلة من الضحك.

مريم دلشاد

طرح مئة قرش فضة في حضني قبل أن يكشف الغطاء عن وجهي، وقال هذا مهرك، وناول قطعتين لما مويزي، فقبَّلتْ يمينه، وأقفلت الباب وراءها وغادرتنا.

كنت أرتجف، ولا أظن رجفتي كانت من خوف، فوضع كفيه واحدًا على رأسي والآخر على كتفي، وسمَّى باسم الرحمن، وأظن أنه قرأ شيئًا عليَّ حتى هدأت.

جلس إلى جانبي على السرير، وأدار وجهي ناحيته وقال: «بدر التمام.. أنت بدر التمام». فضحكت، أحاطني بذراعيه، فشعرت بأن الدنيا بدأت تتسع، وأن قلبي يرفرف بقوة؛ ويكاد يكسر ضلوعي ويفر منه مثل حمامة.

اندسست تحت جناحه، وشممت عطره، فتعالت كركرة من بطني حتى رئتي، وضعت يدي على فمي محاولة الإمساك بها، لكنها أفلتت «خليها». فتركتها تطير لتملأ الغرفة وربما البيت كله، كنت أضحك وهو ينظر إلى وجهي مبتسمًا، ثم صار يضحك

مثلي، تقلبنا على الفراش حتى ارتفع عنا الضحك، فنظرت إلى وجهه وقلت:

- حبابي أنا خايفة.

- تخافي مني؟

- لا ما منك. من ما مويزي.. قالت بتضربني إذا ضحكت في فراشك.

- لا تخافي.. قولي لها عبد اللطيف يحبني ويحب ضحكي.

كانت أول مرة أسمع فيها عن الحب، ربما كان نفسه ما تدعوه ما مويزي العشق وتصفه محذرة وكأنه مرض، وعبد اللطيف يسميه الحب، فيحس قلبي أنه الدواء.

قبلني عبد اللطيف فلم أفهم، ثم قبلني مرة أخرى فما عدت أريد أن أفهم، بل أردت منه أكثر. كانت رائحته حلوة، رائحة هيل وقرفة وقرنفل وزعفران، وأردت أن أستنشقه كله، وأن أسحب رائحته كلها إلى داخلي، فتمتلئ رئتاي بها.

كانت الساعة تقارب الضحى عندما دقت ما مويزي الباب علينا وأدخلت صينية الإفطار، وعبد اللطيف خرج مسرعًا إلى الكنيف وهو يردد في اضطراب: «ما سمعت أذان مسجد الزواوي ولا مسجد علي موسى». ولأول مرة أرى سن ما مويزي الوحيد يضحك، حتى أني خشيت عليه من السقوط.

ألبستني ما مويزي ثوبًا جديدًا، وقالت لي: «انتبهي على القروش

والفضة، لا تخرجي بها كلها قدام الحريم، عيونهن تكسر الحجر وتذيب الحديد». «تزيني ولا تكثري. وخبي الباقي في مكان ما يدله أحد».

لم أفهم ما تقصد، وفي الليل أخبرت عبد اللطيف، فقال: «اسمعي كلامها وناصفي الشي، نصف للناس ونصف ما حد يعرف عنه». ودلني على حفرة وراء المرآة ذات الطاووس التي أمشط أمامها شعري وأضع عندها الكحل والداروف.

- هنا خزنتك.. ما يدري بها غيرك.

- ليش؟ شي لصوص في ولجات؟

ضحك عبد اللطيف:

- يا بدر التمام، اللصوص أكثرهم في ولجات، ومسقط دايمًا منهوبة، مرات لصوصها منها وفيها، ومرات تغزا من الخارج، ومرات من داخل البلاد، يحاصروها ويدخلوا وينهبوا كل شي في دربهم.

- حتى بيت لوماه؟

- حتى بيت العَلَم نهبوه.

وضعت رأسي على كتف عبد اللطيف، فأخذ يخبرني عن «دخلة مسكد»، كان يصف ما جرى وكنت كأني أراه يحدث أمام عيني، فصرت أغطيها بكفي، وأغوص أكثر فأكثر في حضنه.

- كيف طلعوهم من مسكد؟

- بالفلوس... كل شي في العالم تحركه الفلوس، لازم تخبي فلوسك وفضتك، فهمتي؟ هي عزتك بعدي.

منذ تلك اللحظة صرت أضع كل ما يعطيني إياه عبد اللطيف في تلك الحفرة، ولم أكن أظهر أمام فردوس والخادمات إلا الحرز والبناجري وخواتم الكيرات في أصابع قدمي.

انقضت أيام العرس، فعاد عبد اللطيف إلى حركته خارج البيت، وعدت أنا إلى مطبخ فرشوه، ولكني الآن السيدة ولست مساعدة الخادمة، فصرت أقيس لها المونة وأفحص المقادير، وآمر بما يطبخ، وآكل ما أشتهي.

وكنت أتعلم منها الطبخ أيضًا، حتى صرت أعد الطعام بنفسي وهي تساعدني وتحضر لي، وصار عبد اللطيف لا يأكل إلا من يدي، أما فردوس فرفضت طعامي مثلما رفضتني.

في البداية حزنتُ قليلًا ثم ما عدت أبالي، إلا أن ما مويزي قالت لي: «الإحسان يخرج الغول من جحره». فداومت على إرسال السخونة والحلوى لها.

أحيانًا كان عبد اللطيف يقضي العصر في قهوة الشمخي في السوق الداخلي، ولا يعود إلا بعد أن يصلي المغرب في مسجد علي موسى. ومرة عاد مبتهجًا، وأرقدني على زنده وغنى لي، وقال إنه في سفرته القادمة سيحضر سنطورًا إلى البيت مثل ذلك الذي في القهوة، وإني سأسمع معه أم كلثوم وفتحية أحمد وسيد درويش وعبد الوهاب.

- إيش السنطور؟ ومن هم هذيلا اللي سميتهم وبتجيبهم لين داخل البيت من رجال وحريم؟

- السنطور صندوق، عليه قيوان يلف كما الرحى، وله فم كبير تخرج منه الأغاني، وأم كلثوم والثانين مغنين من مصر يسجلوا صوتهم على القيوان.

- ومصر وين؟

- مصر بعيدة.

- انزين كيف بيجيوا في الصندوق؟

لم أعرف إن كان من ذكرهم يغنون كما تغني ما مويزي وفرشوه وخلوف وعساكر وهن يطحنَّ الحب؟ أم كما كانت تغني أمهاتي البلوشيات وهن يضفرن شعري ويغنين لتلك البلاد البعيدة التي جاء آباؤهن منها؟

لم يجب عبد اللطيف على سؤالي، لكنه قال كلامًا كثيرًا عن الصوت والصندوق والبحر، وأنا لم أفهم شيئًا مما قال، ثم عاد إلى الغناء بصوت هامس في أذني، فقبلته وتركته ليأخذني في روائح الهيل والقرفة.

عبد اللطيف لوماه

غريبة فردوس، لا صراخها يطاق ولا صمتها يحتمل.

صمتت وكأنها غادرت البيت في تلك اللحظة نفسها التي دخلت فيها بمريم، فحلَّ الوجوم على البيت، مع ذلك فقد أخبرتني ما مويزي أنه عندما خرجت مريم لاستقبال النساء المهنئات في الليوان، لم تترك فردوس مكانها في وسطه، بل استقبلت النساء بالبخور ورش ماء الورد، وأسبغت المعاني على مريم، وفصلت لها نسبًا من كذب، أدهش مريم وما مويزي معًا.

لكن ما إن انفضت النساء حتى عادت إلى غرفتها وعزلتها وصمتها، مدعية المرض، وأمرت الطاووس أن لا تُدخل عليها أحدًا، حتى أنا.

وعندما بدأت مريم بالطبخ رفضت الأكل، فأمرت فرشوه أن تعد لها طعامًا يخصها وحدها، مع ذلك كانت لا تأكل إلا القليل. وقالت ما مويزي إنها صارت تخشى أن تكون فردوس مريضة بالفعل.

استدعيت ما مويزي إلى غرفتنا، وسألتها عن صمت فردوس، لكن مريم المنشغلة بتطريز قماط للطفل الذي في بطنها، أجابت عن السؤال الذي ترددت ما مويزي في الإجابة عنه: «زوِّجها.. زوجها، ما كذا ما مويزي؟ زوجها. وبتتشافى فردوس».

بعد صلاة العصر، في مسجد علي موسى، التقينا أنا وحميد بن عبد الله، وجمعة رمضان وخلف بن صالح وعيسى حمدان ومبروك جمعان، وآخرون تناثروا على دكك الخشب، يشربون القهوة، ويتحدثون عن الحفل الذي يقيمه السلطان للكولونيل بيسكو مساء الغد.

«ما ينلام السلطان تيمور لما تنازل للسيد سعيد عن الحكم..».

«السيد سعيد ذكي، يحسبه الإنجليز ساير بومبي يرد أبوه، وهو عاقد النية يرجع ومعاه ورقة التنازل عن العرش باسمه، فما يقدر يضاده في الملك حد من إخوته أو عمومته».

«الإنجليز ما يهمهم من يحكم البلاد.. يهمهم من يخدمهم ولا يكسر لهم كلمة».



«لكن أيش طمعهم في البلاد؟».

«الإنجليز تهمهم الهند وتجارتهم».

«البلاد في كساد».

«نسيتو النفط؟ من زمن أبوه وهم يدوروه وكل مرة يطرشوا حد يسبره في الصحراء».

«السلطان وارث حمولة ثقيلة من أيام جده، دين للإنجليز والبانيان، وكما تعرفوا هو مديون حتى لبعض تجار مسقط ومطرح، وفوقها حروب قبايل وهَمّ الإنجليز».

«أنا ما أعرف إن كانوا الإنجليز أصدقاء ولا سادة!».

«يعتمد على مصالحهم في كل وقت.. والأكثر إنهم سادة ولو ما حد يريد يقر بهذا الشي».

«بتظنوا إن القادم خير؟ ولا هي مشاكل وحروب وجوع وبس؟».

«يقولوا الخير في بطن الشر ونحن تجار، وفي كل الأحوال بنعرف كيف نستفيد».

كنت أجلس متربعًا على خشب الدكة، عندما بدأ مبروك جمعان بسرد حكايته عن دخلة مسقط التي شهدها بنفسه كما يقول، الحكاية التي يرويها للمرة الألف ربما.

غارقًا في أفكاري كنت وبين شفتي عصا الرشبة، أعب منها وأطلق الدخان من فمي ومنخاري، ساهيًا عن الحكاية كلها.

«لا يغركم كبر سني الآن، كنت في عز شبابي، ربما أقل من العشرين يومها، وما كنت أعرج وأسحب رجلي كذا، كنت قوي كما الأسد ونشيط كما الحصان، وكنت أحرس سيدي بعيون صقر، مفتوحة ما تغفل، أعلق خنجري في خاصرتي، وفي يدي صمعي ما تفارقها. نعم، كنت هناك وحضرت ذاك اليوم مع السلطان، وشفت كل شي بعيني اللي ما تبقى من بصرها شي.

نعم أقصد ذاك اليوم، اليوم اللي وصل مسقط فيه شيخ الحرث واللي معه من القبايل.

قبل وصولهم بليلة، تقريبًا عند المغرب، وصل طارش من عند راشد بن عزيز والي سمائل برسالة لسيدي، قال له تحذر، رجال الحرث ومعهم من بدو الشرقية وصلوا عندنا بالعشرات ولكنهم قاصدين مسقط.

لكن سيدي ما خَوَّنْ، علاقته بالحرث زينة، ولو إنه صارت من مدة جفوة بينه وبين الشيخ صالح بن علي، على أمرٍ بينهم، الله أعلم به، يقولوا إنه حبابي ما عجبه منه شي، فقام حرض عليه القبايل يعزلوه عن رئاسة الحرث، الله أعلم.. الله أعلم.

الخاتمة، سيدي نام ليلته مرتاح، والصبح لقينا الشيخ ومحسن بن عامر الحارثي ومعاهم الجحافي حمود بن سعيد، ومن معهم من الرجال ينتظروا في البرزة، لاقاهم سيدي وأكرمهم، يعرفهم أُصَالْ، شيوخ أولاد شيوخ.

ناشدهم وسألهم عن بلدانهم وعن الشيخ صالح وصحته وعن كافة الشيوخ، وأخذ علوم البلاد والعباد، وبسط لهم وغدَّاهم، وبعدين استأذنوا يريدوا يرجعوا إلى بلادهم في القابل، فسمح لهم وعطاهم اللي يعطيهم إياه عادة، من قروش وبر وسكر.

الخاتمة، الرجال خرجوا من عنده مودعين، والنية إنهم يأخذوا دربهم إلى القابل، لكنهم تأخروا في مسقط، وكانوا والله أعلم يسبروا البلاد والعسكر، ورجالهم بدءوا يدخلوا مسقط من مطرح،

مرة ماشيين ومرات على خيولهم وجمالهم، وكل مرة نفر أو نفرين، ويتوزعوا في حواريها ودروبها، والسلطان غافل.

جاني عسكري من عساكر الحماية، وخبرني عن انتشار رجال القبايل والبدو في مسقط، وحركة الشيخ ومن معه حول القصر والقلاع، وطلب أبلغ سيدي، وأنا أخبرت سيدي لكنه نهرني، فأخبرت سيدي تيمور، قلت بيسمع منه، لكن عندما نبهه سيدي تيمور، ضحك، وقال: بينا وبينهم عهود ومواثيق ونحن التو في صلح، ووصلوا عندي ضيوف، وهم قبايل والضيف ما يخُون ولا يخَوَّن.

لكن القبايل كانت مرتبة أمرها تنقلب على السلطان، وبعدين عرفنا إنه السلطان حمد بن ثويني عاطنهم مال وسلاح، ما كفته زنجبار، يريد ياخذ مسقط، ويتسيد على الجميع، كما تسيد أبوهم سيدي سعيد بن سلطان.

الخاتمة، إن واحد من الخونة، ما أريد أطري اسمه، لكنه كان مع السلطان، وخلاف اشتريوه بالمال، قام وحادث الحراس ولهَّاهم، ودخل القصر من غير ما حد يحس به، ومن تناصف الليل، فتح بيبان القصر من الداخل، فدخلوا الرجال يريدوا يقتلوا السلطان أو يأخذوه رهينة، ويجبروه يتنازل عن الحكم، ويرفعوا على القصر علم الإمامة.

سمعت صوت الرصاص وأنا واقف عند باب سيدي أحرسه، ترددت أدخل على سيدي ولا ما أدخل؟! لكن سيدي ما أمهلني،

فتح الباب وقال: «سمعت الرصاص يا مبروك؟ كأنه كلام الحراس صح، والجماعة جايين في شر».

حمل سيدي سلاحه، وركبنا الدرج نريد السطح، ومعنا بيبي علياء بنت ثويني وأختها البيبي ثريا.

القمر كان مغرَّب، وما بقى منه إلا ضو نشوف به خطونا، فقمنا نركض من سطح لسطح ونقفز من بيت لبيت، السيدات يذخرن السلاح ونحنا نرمي، نجاوب الرصاص بالرصاص، حتى وصلنا سطح الوكالة، هناك السلطان طلب من الإنجليز يتدخلوا ويحميو مسقط، لكنهم قالوا له: الحماية بس لك ولأهل بيتك، فرفضها، ومسح الدم من وجهه بكفه، وقال: خسران من يتكل على الكفار.

الخاتمة، سيدي صابته شظية في جبينه، وأنا صابتني رصاصة في فخذي هنا، نعم هنا، لكننا نحن الأربعة بقينا مندسين فوق السطوح، نتنقل بين سطح القصر وبيوت مسقط، حتى طلع الفجر وتلهيوا المهاجمين بقتال الجنود، ركضنا صوب الجلالي، وطلعنا الدرج لين البرج.

كان سيدي محمد بن تركي محتمي بالميراني يقصف منه، ونحنا نقصف من الجلالي، نوجه المدافع على رجالهم، لكنها ما خلت شي، حتى القصر صابته المدافع، والظاهر إننا قصفناه حتى تخرقت جدرانه.

الخاتمة، رجال القبايل خربوا القصر وكسروا أثاثه وكل شي فيه، والباقي إما باعوه أو حرقوه، بعدين رفعوا العلم الأبيض، وكأنه

الإمام حل مكان السلطان فيه، وبقى العلم يرفرف ثلاثة أسابيع، والإنجليز رافعين يدينهم، ما ساعدوا السلطان في شي، وحجتهم رعاياهم وسلامة رعاياهم، حتى الخوجات عطوهم علم يرفعوه فوق سورهم في مطرح، والتجار الهنود هربوهم في قوارب لين المكلا.

تحصنا في الجلالي نحنا وبعض الجنود من الحضارم وأهل نجد، كنا خايفين تخلص علينا الذخيرة، ورجالهم يحوموا تحت القلعة، ما قادرين يوصلوا لنا، وإذا اقترب منهم واحد قنصناه.

بقينا على ذا الحال أيام، ما يسمع في مسقط غير نقع المدافع وصوت الرصاص، حتى وصل بني بو علي والهشم وبني راسب من صور عن طريق البحر، ودار بينهم وبين رجال القبايل والبدو قتال، وصل فيه الدم لين رز بيبان البيوت في ولجات وحارة الهنود.

أكثر من عشرين يوم ونحنا والعسكر نطلق من الجلالي، ورجال السلطان يحاربوا في السكيك والحارات لين قبضوا الباب الصغير وقلعة الراوية، خلاف بديوا رجال القبايل يتراجعوا، عرفوا إنهم خسروا وإنه السلطان وراه رجال وقبايل، وحتى إذا خذلوه الإنجليز ما بيبقى وحده.

الخاتمة، قام الإنجليز وصلحوا بين السلطان ورجال الحرث، وطلبوا من السلطان يعفو عن الشيخ ورجاله، لكن الشيخ اشترط يعطيه اثنعشر ألف قرش، ولا يقطع عنه البهطة.

الخاتمة، رجعنا مع السلطان القصر، ولقيناه منهوب ومحروق، أما مسقط فبقيت النيران مشتعلة فيها مدة ثلاثة أيام».

أنهى مبروك حديثه، الذي وافق عليه بعض الرجال الأكبر سنًّا بهزات من رؤوسهم، وتحمس له بعض الشباب، أما أنا فلأني سمعت الحكاية منه ومن والدي مرات ومرات، ما عدت أكترث أو أهتم بما يقول.

ثم إنها حكاية تُستدعى كلما أراد أحدهم أن يشعر بشيء من القوة، خاصة عندما يزداد القلق في مسقط ويتعاظم، أو أراد أن يخفف عن نفسه حقيقة أن مسقط خاضعة لتحكم الوكيل البريطاني، وأن قوة الإنجليز بأسطولهم وتجارتهم، تخنق البلاد والعباد وحتى السلاطين.

الجميع يعرف أن مشكلة السلطان مع الإنجليز قبل القبائل، وإن كان هذا أمرًا لا يحب أحد الخوض فيه حتى في الجلسات الخاصة، والجميع يدري أن مشكلة القبائل مع السلاطين سببها الإنجليز وتحكمهم في البلاد، والجميع يعرف أن هذا التحكم، جعل القبائل العربية في داخل عمان تثور على حكم السلاطين مرة ومرتين وعشرًا، خاصة إن لم يستطيعوا أن يوفروا أموال الترضية أو البهطات التي يشترون بها صمت بعض القبائل وولاءاتها المتغيرة.

ثم إن الإنجليز لم يرتاحوا، حتى قسموا البلاد بين الإمامة والسلطان، مثل ما قسموا عمان بين زنجبار ومسقط، يريدون أن

يزيدوهم ضعفًا على ضعفهم، وكل واحد منهم يدعي القوة، وهم كلهم لا يقدرون على تحريك أقدامهم خطوة واحدة، من غير أوامر الإنجليز، حتى اجتماعهم في السيب، وحتى المعاهدة بينهم، وقعها الباليوز بدلًا من السلطان، ووقعها المشايخ بدلًا من الإمام.

نعم، من بيده المال والسلاح يملك القوة ويحكم، أما الحق والعدل والأمانة، فهذا كلام.. مجرد كلام.

لكن في تلك اللحظة لم تكن أحوال البلاد ولا التجارة ما يشغلني، ولا حتى تولي السيد سعيد الحكم بشكل كامل ورسمي، وكل المشاكل التي تنتظره ولا تخفى على أحد.

كنت مشوشًا، وبدأ الغضب يتسرب إلى نفسي، وإن حاولت أن لا أظهر منه شيئًا. لكن ربما تسرب بعض منه إلى حميد بن عبد الله، الذي كان يجلس إلى جانبي، فسألني هامسًا عن سبب شرودي وتعكر مزاجي.

عندما لم أجبه بأكثر من هزة رأس نافية، طلب مني مغادرة القهوة معه، ومرافقته إلى «الحصاتين»، مكان كنا نقصده صغارًا، بين مدرسة بيت الزواوي وجبل الصيرة الشرقية، حيث كنا نلعب، ونلقي من على حوافه خيوط الصيد، ونجلس بالساعات منتظرين علوق السمك في صناراتنا، ومراقبين حركة القوارب والسفن والبوارج البحرية بين الصيرة الشرقية والصيرة الغربية، متخيلين مغامراتنا في البحار العالية، والمرافئ التي سنزورها، متى ما كبرنا وصار أهلنا يثقون بنا بما يكفي كي يكلفونا بالعمل.

كان العصر ما زال في أوله، فأخذنا طريقنا عابرين السوق الداخلي، وحارة الهنود، وبيت الوكالة البريطانية، حتى وصلنا إلى الساحل الصغير تحت قلعة الجلالي، وهناك جلسنا صامتين على صخرتين متجاورتين، ثم خطر في بالي أن أسأل حميد عن حياته وعن نيته في الزواج.

لكني ترددت عندما تذكرت أني لم أجبه أبدًا على طلبه الزواج بفردوس، لا بلا ولا بنعم، وأن الرجل قدَّر صمتي واحترمه، ولم يراجعني في الأمر من حينها، ورغم أن علاقتنا فترت في ذلك الوقت، فإنها عادت إلى طبيعتها مع الأيام.

ثم بعد مدة تزوج بامرأة من خلالوه، أنجبت له ولدًا لم يعش طويلًا، ثم سمعت أن امرأته أصيبت بلوثة، وصارت تجوب أزقة مسقط تبحث عن صغيرها، ثم وجدوها ذات يوم، وقد سقطت من على حافة الجبل وتهشمت تحته. ربما ظننت أنه نسي الأمر وتجاوزه، وربما أردت ذلك، فلا شيء أثقل من الأمور العالقة بين صديقين، مضطرين إلى العمل معًا طوال الوقت.

نعم كنا صديقين وأكثر، وإن كنا لا نقول ذلك، لكنني ما كنت لأجرؤ أن أشكي أمور بيتي لصاحبي، وكان عليَّ أن أجد وسيلة تخرجنا من مأزق فردوس.

كان كلام مريم يرنُّ في أذني، وصدقًا كنت قد بدأت أشفق عليها رغم عنادها وجبروتها، وبدا لي أن فكرة زواجها بحميد ليست سيئة، على الأقل ليست كما كانت قبل سنين.

نعم نحن لا نلتقي لا في الأصول ولا الفروع، وهو ليس صاحب مال وليس من تجار مسقط، لكنه رجل شريف وأمين ونبيه، تربينا معًا ودرسنا معًا، ويعمل معي منذ سنين طويلة، ثم إن حضور فردوس الصامت كالقبر في البيت، صار لا يطاق حقًّا، ومزعجًا، ولو أن مريم لا تتشكى أبدًا.

حميد بن عبد الله

يرى عبد اللطيف في السلطان سعيد أملًا في الخروج من تبعية الإنجليز، إلا أني أظنها ستستمر، ما دام العمانيون في تناحر وخلاف، وحتى اتفاقية السيب لا أظنها ستصمد، أمام الجوع والخوف والجبروت.

لقد عرفت عبد اللطيف منذ أن أدخلني عمي صالح مدرسة الزواوي، حيث تعلمنا القراءة والكتابة والحساب، ومنذ وفاة عمي، لم يستأمن عبد اللطيف أحدًا على دكانه غيري، وهناك خدمت تجارة بيت لوماه، كما خدم عمي من قبلي، وجدي من قبل عمي.

لا يذهب عبد اللطيف في تجارة بين المرافئ، فأنا وهو نعرف أن أغلب سفره للمتعة، فالذين يمسكون بأمور التجارة بين شطي الخليج والهند، هم الهنود، الذين كانوا تجارًا وسيبقون كذلك، ما داموا تحت الحماية الإنجليزية، ويعاملون معاملة الرعايا في الموانئ الخاضعة، ولا يدفعون سوى الخمس كضرائب على بضائعهم، بينما يدفع التجار العمانيون العشر، وسيظلون هم

أصحاب المال والتجارة، وسيبقى ولاؤهم للبيسة والربية لا للبلاد والعباد.

لم يبقَ الكثير من التجار العرب في مرافئ مسقط ومطرح، فالعمانيون منذ أن رفعت عليهم الضرائب، توقف أكثرهم عن التجارة، ولم يعد هناك من يرتاد البحر إلا النواخذة والبحارة، الذين بقوا على ولائهم للماء، وتركوا الريح تأخذهم في سفرات طويلة، بين سواحل الهند وإيران ومدن ساحل عمان والبحرين والكويت والعراق، حاملين البضائع بين الموانئ.

كبرنا معًا، أنا وعبد اللطيف، هذا حقيقي، وتقاسمنا أشياء كثيرة، مغامرات وسكرًا، مسرات ومشاكل، وأفراحًا وأتراحًا، ولكنه عاش في بيت لوماه، بين أب مسافر أو منفي وأم رؤوم وعدد لا يحصى من الخدم.

بينما كبرت أنا يتيمًا، فأبي مات غريقًا في «طوي صاميح»، وتقول حكايات مسقط إن رجلًا من أهل الوادي الصغير، حدث أنه كان مصابًا بالإسهال في تلك الليلة، وكان يقضي حاجته في الوادي، شاهده يعود مترنحًا من حفلة زار في إحدى مغاور الوادي الكبير، ثم بدأ في الركض والزعيق، أن هناك ضبعةً تطارده، ورمى بنفسه في طوي صاميح، إلا أن أمي كانت دائمة الإنكار لذلك، وظلت تؤكد أنه كان لا يفوت فريضة في مسجد الوكيل.

لكن هذا كله لا يهم، فأنا لا أتذكر منه شيئًا إلا سبابه لأمي، عندما كان يعود مخمورًا من سهراته، وتدعي هي أنها نائمة، لكنه

كان يسحبها إلى داخل الخيمة، ثم يسقط فوقها، أما أنا فكنت أبقى متيبسًا على الدعن في الخارج، أسمع سبابه ونخيره وأصوات رفسه ولطماته، حتى يفرغ منها وينقلب على ظهره فيتعالى شخيره، عندها تخرج أمي، وتضطجع إلى جانبي، تحاول كبت شهقاتها، وأنا أحرص أن لا أحدث حركة، كي لا تنتبه إلى أني أعرف ما يحدث في الداخل. كنت أخشى أن تغضب، لكني كنت أخشى أكثر أن يؤلمها أن تعرف أني أعرف.

وعندما مات، تزوج عمي بأمي رغم أنها تكبره بسنوات، وصرت ولده، وانتقلنا من حارتنا في الوادي الكبير، إلى بيت في أطراف حارة البحارنة، حتى نكون أقرب إلى السوق وبيت لوماه.

وعمي لم يكن يطيق الشراب، وينظر إلى السكارى كالقردة والخنازير، وأنا لم أرَ خنزيرًا في حياتي قط، ولا أظنه رأى واحدًا كذلك، والقرد الوحيد الذي رأيته كان لهندي يلاعبه عند الفرضة.

لكنه كان عندما نعود من خمارة ديسوزا برؤوس خفيفة، مترنحين وغارقين في الضحك، يترك عبد اللطيف، الذي يصر على إيصالي إلى البيت حتى تكون صحبته شفيعًا لي، ليذهب إلى ولجات محفوفًا بالأدعية والأماني الطيبة، ثم يتفرغ لجلدي بخيزرانته الرفيعة، حتى يجنبني مصير أبي، أو هكذا كان يقول لأمي عندما كانت تحاول أن تقف بين عصاه وظهري.

مع ذلك، لم نتوقف عن الذهاب معًا إلى الخمارة إلا بعد أن سألت عبد اللطيف أن يزوجني أخته. لم أكن قد رأيتها إلا صدفة،

بل لمحت عينها وجزءًا من وجهها، وهي تطل علينا من شق في نافذة المجلس المطلة على الليوان، ويا لها من عين تلك التي جفلت ما إن التقت عيني!

تشتت ذهني، ولم أستطع الإجابة على أيٍّ من أسئلة عبد اللطيف وهو يشير بإصبعه إلى الأرقام في الدفتر، ثم استأذنته وغادرت على عجل، دون حتى أن أقدر على اختراع حجة، أي حجة وإن كانت واهية.

تركته في المجلس، وهربت إلى شوارع ولجات، ورأسي من فرط خفته يكاد يطير، وعندما وصلت البيت واستلقيت على فراشي، هاجمتني تلك العين بشراسة، ونهشت قلبي، واستقرت فيه.

لأشهر بعدها حاولت طرد الفكرة من رأسي، لكني وفي لحظة سكر عظيمة خطبتها من عبد اللطيف.

أتذكر أننا كنا خارجين من الخمارة، وأن دروب مسقط تلقفتنا من عند بيت السيد نادر إلى أسفل قلعة الجلالي.

كنت قد أثقلت قليلًا في الشرب، وكان عبد اللطيف مثلي، وعندما جلسنا على صخرتينا أسفل الجلالي، قلت له: أريد أتزوج فردوس، وبكيت، نعم، أتذكر أني بكيت، وأني مسحت دموعي بطرف كمي.

عبد اللطيف لم يحاوبني، ولم يسألني شيئًا، ولم يلتفت إليَّ، حتى أني ظننت أنها كانت أضغاث سكر لم تحدث، فلا أنا خطبت ولا عبد

اللطيف سمعني، وحتى هذه اللحظة ما زلت في شك من أمري، هل خطبت فردوس أم أني حلمت بذلك فقط؟ هل تلك الدموع كانت حقيقية؟ أم أنها رطوبة البحر؟

بعد ذلك بمدة خطبت لي أمي خديجة بنت مرهون من حارة خلالوه، كانت امرأة طيبة، لا يرتفع لها صوت، ولا تتكلم كثيرًا، ولا تنظر إلى وجهي.

أنجبت لي صبيًّا، أسميناه سالم، لكنه مرض فجأة، أصابته الشهاقية، فظلَّ يشهق ويشهق حتى احتبس الهواء في صدره ومات.

كان عمره خمسة أو ستة أشهر، عاش حياة قصيرة جدًّا، أكثرها في البكاء والمرض، لكنه أحيانًا كان يهدأ ويضحك لي، وعندما يضحك كان قلبي يسيل من بين ضلوعي مثل الماء.

دفنته دون أن أعرف دبيب خطواته على الأرض، ودون أن أسمعه ينطق إلا بابا بابا، تماسكت كما يجدر برجل مثلي أن يتماسك، لكن أمه غادرتها السكينة وطار عقلها، وصارت تهيم على وجهها في سكك مسقط وحواريها تبحث عنه، ثم اختفت تمامًا، وعندما وجدناها بعد أيام من البحث، مهشمة وقد أكل الدود منها ما أكل، قالوا: قتلت نفسها ولا تجوز عليها الصلاة، لكني حاججت الإمام بأنه ما على المجنون حرج، فصلينا عليها، ودفناها عند ابنها في مقبرة صغيرة وراء بيوت خلالوه.

عبد اللطيف لوماه

دخلت المجلس فوجدت خادم السلطان سليم بن مطر، الرجل الذي رأيته مرات كثيرة في السوق، أو صادفته في دروب مسقط حاملًا رسائل السلاطين، أو ذاهبًا كرسول من القصر إلى بيت الوكيل أو الجمرك.

كان واقفًا، رافضًا الجلوس، أو حتى قبول فنجان القهوة الذي يقدمه له سخي، وسخي يقلب بصره بيني وبين الرجل الذي يماثله في اللون لكنه يتعالى عليه، قال لي بعد السلام: «حبابي يأمرك تحضر بعد صلاة العشاء في بيت البرزة»، قلت: «هي والله»، فسلم وخرج.

عرفت أنها دعوة لحضور حفل العشاء المقام لضيفه، الكولونيل بيسكو في بيت البرزة، لإقرار حكومة الهند جلوس السيد سعيد على العرش خلف أبيه، ومباركته له، كما سمعنا في الأحاديث التي تسير في السوق.

قبل المغرب أخرجت لي مريم ثياب الوجاهة، فلبست العباءة

ولففت على رأسي عمامة من الكشمير، وتمنطقت بخنجري، وتعطرت بالعود والمسك، وخرجت بعصاي بعد أن قبلت ما بين عينيها.

في الدرب بين ولجات والباب الكبير التقيت فريد عبد الله الزواوي وحسن عبد الرسول المسقطي ويوسف بن هاشم الطيواني وصالح داد الله.

كلهم كانوا معي في مدرسة الزواوي، وكلهم كانوا يعملون في التجارة، قليلها أو كثيرها، ولكن لم يكن هناك من هو راضٍ عن حال البلاد، أو لم تتأثر تجارته بالكساد، ولم يكن هناك من هو رافض لتخلي السيد تيمور عن الحكم لابنه سعيد، لكننا كنا نعرف أيضًا أن الحل هو أن يقدر السيد سعيد على القبض على مالية مسقط، والاستقلال بقراراته عن سلطة الإنجليز.

مشينا في نقاشنا، حتى وصلنا إلى عند بيت السيد نادر، فلقينا جماعة من التجار الهنود ووجهاء مسقط وتجارها، فترافقنا حتى بيت البرزة الملحق بقصر العلم.

دخلنا والسلطان وضيفه لَمَّا يدخلا بعد، فأشار علينا الخاصة من خدم القصر بأماكن جلوسنا إلى جانب أعمام السلطان وإخوته والوجهاء، فجلسنا على يمين المجلس، والتجار الهنود على يساره.

التهينا بالأحاديث حتى دخل السيد، يتبعه ضيفه وصف من ضباط البحرية البريطانية، وقفنا في استقبالهم، وبدا لي أن السلطان قصد أن يسبق ضيفه ومن معه بخطوة أثناء دخولهما.

حيَّانا السلطان بهزة خفيفة من رأسه وابتسامة صغيرة لا تكاد ترى، وجلس والكولونيل في صدارة المجلس، هو على كرسي العرش إلى جانبه علم السلطنة الأحمر، والإنجليزي على كرسي أصغر، وإلى جانبه علم الإمبراطورية العظمى بصليبه الأحمر المختبئ في الأزرق المتعامد.

لم أقابل السلطان من قبل، ولا أظن أنه يعرفني إلا اسمًا يمثل ما تركه أحمد فضل لوماه من تاريخ شقي ومال وتجارة، لكني كنت قد رسمت له في ذهني صورة تليق بما سمعناه عن إعداد السيد تيمور له من تعليم في الهند وبغداد، وما خبرناه منه عندما ولاه أبوه رئاسة مجلس الوزراء، وأنابه عنه في تصريف أمور مسقط أثناء غيابه الدائم في الهند، والثقة الكبيرة والتامة، التي جعلت سلطانًا من سلاطين مسقط يتنازل طوعًا عن عرشه لابنه، دون أن يرثه أو يغدر به أو تراق في أروقة القصر قطرة دم.

هل كانت ثقة فعلًا؟ أم أن الرجل قد ملَّ من العرش والحكم والإنجليز والمؤامرات واسترضاء القبائل وحياة مسقط الراكدة؟ أو ربما هو تاريخ اتفاقيات ومعاهدات أجداده مع الإنجليز، وما ينوء تحته من ديون لا تسدد إلا بديون جديدة؟

بعد لحظات رأينا تبادل الرجلين لأحاديث ومجاملات لم نسمعها، ثم وقف الإنجليزي وألقى كلمة، يعلم الله أني لم أقبض منها إلا القليل، ولكني رأيت السيد سعيد يهز رأسه مستحسنًا.

ثم قام السلطان فألقى كلمته:

«... وإني من صميم قلبي أشكر صديقتنا الدولة البريطانية، لما خلصت لي من المحبة وأكدت ما بيني وبينها من الصداقة، والتي ما برحت عواطفها ومساعداتها مستمرة لنا منذ عصور أسلافنا، لتحقيق آمالنا وتثبيت دعائم حكومتنا واستقلالنا».

كنت أرى الرجل القابع عند بيسكو يهمس له مترجمًا ما يقوله السلطان، وبيسكو يهز رأسه بين الفينة والفينة مستحسنًا، وأنا أتأمل الكلام في عقلي وأفكر، هل يمزح السيد؟ أم أنه يسخر؟ أم أنها مقتضيات السياسة؟

«فلا أزال أنا وأعمامي وسائر رجال حكومتي، شاكرين لرجال الدولة البهية، مؤكدين روابط الصداقة والاتحاد، واثقين من أن بريطانيا ستقبل إظهار شعورنا عن الصداقة المؤكدة، وتكون مطمئنة بصداقتنا ومودتنا على الدوام».

إنه يُلبس السخرية لباس الجد، وإلا منذ متى كانت بريطانيا صديقة؟ ومنذ متى صدق السلاطين ذلك؟ أوَ ليست هي شركة الهند الشرقية والسيطرة على التجارة والموانئ، وما تفرضه المصالح في هذه البحار؟

أوَ ليسوا هم أنفسهم تجار الدم وهم من يبيحون التجارة متى ما ناسبتهم ويحرمونها متى ما أضرت بمصالحهم؟

أوَ ليسوا هم من صنع الميتفورد وغيره من السلاح، وصدَّروه لنا في تجارةٍ ربحها الأول لهم، حتى استخدمه الهنود والأفغان في الثورة ضدهم فحرموا بيعه إلا عن طريق مستودع مسقط؟

وقبل ذلك ألم يحرموا التجارة في الرقيق بعد أن استكفوا منها، مقابل تعويضات سخيفة للسلاطين، واستغلوا الهنود كعبيد صدروهم من بومبي وكالكت وجوا لإعمار بلادهم؟

أو ليسوا هم من وقع المعاهدات مع السلاطين، ثم تخلوا عنهم في أكثر اللحظات حرجًا وانتظروا أين تميل الكفة معهم أم مع مناوئيهم فيسندون الأقوى؟ أنسي السلطان قصة جده معهم في دخلة مسقط، عندما رفضوا مناصرته على الحرث؟ أم نسي تهديدهم لجده بقصف مسقط عندما تعامل مع الفرنسيين؟

لا، لا، لا بد أن السيد يمزح.

لأني أظن أني رأيت في عينيه ذكاء وحزمًا وعزمًا وشدة بأس، ولا أعرف إن كان الإنجليز الذين يظنون أنهم قد ربوه على أيديهم وعلموه تحت إشرافهم، مدركين لما يجول في خاطره، هل سيكون طوعهم أم أنهم سيرون منه ما لم يروه من أبيه من عناد وصعوبة مراس؟ هل سيندمون على موافقتهم السلطان تيمور على توليه الحكم بدلًا منه؟ أم أنهم سيطوِّعونه فيصبح حاكمًا صوريًّا لا حول له ولا قوة؟

هل قلت: بدل؟ نعم، بدل هو للسيد تيمور، الذي عافت نفسه الحكم لكثرة تدخلاتهم في شؤون البلاد، وتلاعبهم بسلطاته.

لا أعرف، لا أعرف، لكن بدا في كلامه وسكوته كمن يفكر فيما هو أبعد من الكلام الذي يقال.

حافظ طوال الوقت على ابتسامته، وبقي هاشًّا باشًّا للجميع،

لكن تلك النظرة التي في عينيه كانت لشخص يقوم بحساب دقيق ولأمد بعيد جدًّا.

مريم دلشاد

لا أعرف كيف تلد النساء الأخريات، لم يخبرني أحد ولم أشهد على أحد، أما أنا فقد ولدت من شدة الضحك.

كنت أشعر بأن ظهري سينفلق وأن بطني سينشق، فيخرج مني شخص آخر يماثلني في الحجم أو ربما أكبر، مع ذلك حالما يمر الوجع، ترتفع كركرة من بطني فأضحك.

ما مويزي كانت تنهرني وتقول: «خلي عنش الضحك»، فردوس تقول: «استغفري واذكري الله يا بنت»، أما عبد اللطيف فقد قبضت على كفه مستعطفة، فرفض الخروج رغم إلحاح القابلة شريفة بنت حسن، ورغم أني طردته لاحقًا في موجة ألم عظيمة، إلا أنه لم يترك مكانه، وبقيت يدي في يديه غير عابئ بكلام فردوس وما مويزي.

فاجأني تدفق ماء رحمي، وأنا أعد السخونة الحمراء لعبد اللطيف، كانت فرشوه واقفة بملاسها الضخم إلى جانبي، فتيبَّستُ في مكاني، نظرت إلى عند قدمي فوجدت الماء وقد بدأ يختلط بالدم،

أشرت بإصبع مرتجف: «فرشوه، الدم، ولدي مات؟» فصرخت فرشوه: «لحقوني.. بيبي مريم توضع».

لا أعرف كيف تجمعت الخادمات عند الباب، ولا كيف أزيحت القدور ولا كيف أطفئ الموقد، ولا من بلَّغ عبد اللطيف في السوق، ولا كيف وصلت ما مويزي وفردوس، ولا أعرف بأي سرعة وصل سخي إلى بيت القابلة فأحضرها دون إبطاء.

لكن في لحظة ازدحم المطبخ الصغير بالأصوات والأنفاس والأعين، وأنا ازدحمت بالألم، شعرت أن كل شيء يؤلمني، كل شيء.. كل شيء، حتى ظننت أني سأموت، كنت أخاف أن أنشق فيخرج الطفل من ظهري.

ثم كنت من شدة الألم أضحك وأضحك.

كنت أتقلب بين صراخ وبكاء وضحك، وأسمع فردوس تقول لعبد اللطيف: «والله هذي البنت فيها جنون».

في البداية حاولت النساء إخراجي إلى غرفتي لكني رفضت، ماذا لو تحركت فسقط طفلي، وانفلق رأسه على الأرضية تحتي وأنا أمشي فمات.

كانت فرشوه قلقة من ولادتي في المطبخ، وسمعتها تقول إني سأنجس مطبخها بدمي، «تشعل بك النيران يافرشوه». كدت أن أصرخ، لكن ما مويزي سبقتني ونهرتها فسكتت.

وعبد اللطيف ورائي، لا يقول شيئًا بل يمسح عرقي عندما

يشتد الألم، أو يضحك معي عندما لا أملك ما أدفع ضحكتي به، أو يعيد ترتيب الوسائد التي أحضرتها عساكر على عَجل من الليوان وراء ظهري.

أسمع القابلة تقول: «زفري.. زفري.. زفري».

كان شيء ما يتجمع أسفل ظهري، وكان الثقل يكبر ويضغط بين فخذي.

«زفري.. زفري.. زفري».

القابلة تضغط على بطني، ثم تدخل يدها في رحمي، ثم تصرخ فيَّ: «زفري.. زفري.. زفري».

«خلي عنش الضحك التو»، تنهرني ما مويزي.

«زفري.. زفري.. زفري».

الألم كان شديدًا، فضحكت وضحكت، ثم صرخت صرخة عظيمة فانزلقت تلك الكتلة من المخاط والدم إلى الدنيا، عندها فقط توقف الألم، كل الألم، انتهى وكأنه لم يوجد قط، وتوقف معه الضحك.

سمعت القابلة تقول: بنت، وتناولها لما مويزي، وما مويزي تناولها لعبد اللطيف فيحمد الله، وفردوس تمصمص شفتيها وتقول: «مثل أمها».

ثم ارتفع اسم الله في دعاء النساء من حولي، وهن يقبلن يد سيدهن وسيدتهن فردوس مهنئات ومباركات.

أما أنا فتركتهم وغبت في رقدة طويلة، لم أستيقظ منها إلا على فم نهم يرضع صدري الذي تضاعف حجمه ووزنه في شهور الحمل.

أسماها عبد اللطيف فريدة على اسم أمه، وأنا لم أعرف أمي كي أطالب بتسميتها عليها، فأسميتها في المناغاة فرود.

كان عمر فريدة قرابة الشهر، وكانت نائمة إلى جواري، وما مويزي تجبرني على أكل حلوى الثوم ولقمة العذاب، وشرب حساء الدجاج بالقرفة والفلفل الأسود والثوم. قالت: الثوم والفلفل يطهران جسدي ويذهبان الدم الفاسد. وفي لحظة، وأنا ساهية بين رشفتين، انتبهت لطيف أبي يجلس إلى جانبي يمسح على رأس فريدة ويضحك بكل وجهه، وهي تضحك له.

صار يزورني كل يوم، فيضاحكني ويلاعب الصغيرة، ثم يلملم ضحكته ويرحل.

أعرف أني أراه في رأسي، لكن شوقي إليه ينكر ذلك، فيجعلني في انتظاره وكأنه سيدخل عليَّ حاملًا ابتسامته التي ينشقُّ لها قلبي.

ثم غاب عني فما عدت أنام، وبين لحظة وأخرى أمسح دمعة تفر دون أن أقدر على منعها، كان شيء لا أعرف ما هو، يعصر قلبي فتسيل عيني، وكنت أمسحها حتى لا ينتبه لها أحد، انعقدت نفسي وجافاني الضحك، ولم أعد أجد في فريدة ولا عبد اللطيف ما يسليني عن الأسئلة.

وعندما كان عبد اللطيف يضع الرضيعة في حضنه، ويداعب

قدميها، ويشمهما، ثم يعضهما ويقبلهما، كنت أعود إلى خيمتنا وأبي يحاول أن يحنِّي قدمي استعدادًا للعيد، فأفرح كما تفرح البنات عندما تلمس برودة الحِناء أقدامهن الصغيرة، أتكركر ثم أستغرق في ضحك طويل، وأنا أمني نفسي بأقدام حمراء تركض على وهج حصى الوادي ولا تبالي.

ولكن ذلك الوجع القديم يعود، لماذا لم يعد للسؤال عني؟ لماذا طوال كل هذه الشهور لم يدق الباب ولو مرة واحدة؟ لماذا تركني في هذا البيت الذي وجدت فيه كل شيء إلا هو؟

أم أنه فعل ولم يفتح له أحد الباب؟ هل سمعوا دقاته أم أنه كان أضعف من حمل حلقة الحديد والدق بها؟ أم هل رأوه وتركوه لساعات يدق الباب ويدق ويدق؟ هل خافوا فعلًا أن يأخذني؟ إلى أين يأخذني؟

أم أنه اطمأن لبيت لوماه فعلًا فتركني ولم يعد؟

أين أبي؟ هل نسيني؟ هل مات؟

هل سينسى عبد اللطيف فريدة في يوم من الأيام؟ وأنا، هل سأضطر يومًا إلى ترك فريدة في بيت غريب مثلما فعل أبي؟

عبد اللطيف لم يكن ينتبه لأسئلة قلبي، وأنا لم أجرؤ على سؤاله، أسمع كلام ماموزيزي: «يوم يقبل عليش حبابش لا تعطيه ظهرش». فأكتم وجعي عنه حتى لا يتركني لفردوس ويديها وجنونها.

«لا تنكدي على حبابش»، فأضاحكه حتى لا يمل عبوسي.

«كلمتش هي والله»، أطيعه حتى لا يراني عاصية ناكرة.

«مازحيه بقدر ولا تغضبيه»، أسليه وأضاحكه حتى لا يغضب قلبه علي.

«الرجال يحب الحرمة اللينة»، وأنا لينة حتى أنه يطويني على يديه.

في العلن وأمام الناس كنت أفعل ما تقوله ما مويزي ناصحة، لكن بيننا كنت أفعل به ما يحلو لي، وكان يعجبه ما أفعله به، أغاضبه وأصالحه فيهيم بي، وأدير إليه ظهري فيلتصق بي.

أتدلل عليه غير قاصدة إلا لهفته عليَّ، ثم أقبل عليه كما يقبل هو عليَّ، كل يوم بشوق جديد.

وعندما نكون معًا داخل غرفتنا، والباب مغلق، وضوء السراج ينوس على الجدران، يركع عند قدمي يقبلهما فأصبح سيدته، ينام في حضني فأصبح أمه، يسند ظهري إلى صدره فيصبح جداري ومتكئي، يرفعني فأصبح طفلته، أستنشقه فيصبح هوائي.

نتداخل فلا نعود نعرف أين ينتهي واحدنا وأين يبدأ الآخر.

في العلن هو سيدي، ولكني سيدته إذا ما أغلق علينا الباب.

هذا كان حالنا قبل أن ألد فريدة ويحل كل هذا الثقل على قلبي، والآن لا أجرؤ على سؤاله عن أبي، هل هو بخير، هل هو مريض، وإن كان بخير، لماذا كان عمي عيسى من أمر بعقد النكاح؟

أين أبي يا عبد اللطيف؟ كدت أن أسأله، لكني لم أفعل.

فردوس

لا أعرف لماذا ذهبت إلى المطبخ وحضرت ولادة مريم.

لكني سمعت تراكض الأقدام في الدهاليز وتملكني الفضول، أوقفت عساكر وهي تركض إلى ليوان لإحضار وسائد تسند إليها ظهر مريم، وعندما بلغتني بأن المخاض فاجأ مريم في المطبخ وأنها ترفض الحراك من مكانها الذي بركت فيه، صرخت على سخي أن يذهب لإحضار القابلة، وأن لا يبلغ سيده حتى ينتهي كل شيء.

كنت أرتجف، لا أعرف إن كان خوفًا، أم ارتباكًا من فكرة أن يولد طفل في بيت لوماه. للحظات وقفت في وسط الليوان حائرة، أأذهب إلى مريم أم أعود إلى غرفتي؟

أأكذب وأعود لتمثيل دور الحماة الطيبة أمام القابلة كما فعلت أمام نساء مسقط عندما جئن مهنئات؟ حتى لا يجد الناس فرصة للشماتة في بيت لوماه وفيَّ؟ أم أدَّعي مرضًا وأبقى في غرفتي حتى ينتهي كل شيء وأسمع صراخ الطفل؟

الطفل الذي ستنجبه مريم دلشاد لعبد اللطيف لوماه، الطفل الذي سيحمل اسمنا ووسمنا الذي على صناديق البضاعة والسفن، كما سيحمل في السر اسم دلشاد الذي بلغني أنه ابن لقيط من لقطاء مسقط.

مرت سنة على عرس مريم، في البداية غضبت ولزمت غرفتي، لكني تنبهت إلى أني بذلك أعطيها البيت كله وأحبس نفسي في حجرة منه، لن تلبث إلا أن تضيق بي، فخرجت من غرفتي، وأخذت مكاني.

وفي البداية رفضت الأكل الذي تطبخه، لكن عساكر قالت لي إن مريم أخذت الصنعة من فرشوه وزادت عليها، فصار عبد اللطيف لا يأكل إلا من يديها، فانتابني الفضول، فقلت لها:

- كاذبة يا عساكر، فرشوه أحسن طباخة في مسقط.

- والله بيبي، لو ذقتي طبخ بيبيتي مريم بتقولي مثلي.

تمنعت في بادئ الأمر، ثم طلبت منها أن تحضر لي القليل من سخانتها وخبيصتها كي أذوق وأرى، طبعًا دون أن يعرف أحد خصوصًا مريم.

لعن الله فرشوه التي علمتها صنعة الطبخ وأسراره، فأنا لم أذق في حياتي كلها وفي كل بيوتات مسقط خبيصة أو سخانة ألذ مما تصنعه بنت دلشاد، مع ذلك بصقته أمام عساكر، وأظهرت أنه لم يعجبني.

بقيت على رفضي لكل ما تعده مريم، وفي رمضان رددت لها الصحون دون أن تمس واكتفيت بما تطبخه فرشوه، لكنها لم تتوقف، واستمرت صحون الهريس وطاسات السخانة الحمراء تصل إلى غرفتي، فصرت آخذ القليل مما ترسله، ثم ما عادت الصحون ترجع إلا خالية.

مع ذلك، بقيت لا أتعامل معها إلا من خلال الخادمات، وحتى عبد اللطيف لم أعد أراه إلا صدفة في الدهاليز، فأحييه ولا أطيل الكلام معه.

إلا أنني عندما سمعت تنادي الخادمات وصريخهن بأن مريم تلد، لم أنتبه إلا وقدماي تأخذانني إلى المطبخ، فوجدت البنت في حال غير الحال، بياضها تحول إلى حمرة، وعيناها مثل جمرتين، وصراخها يملأ المكان والدم تحتها.

خفت، نعم خفت عليها، خفت على الطفلة التي دخلت بيت لوماه، نحيلة باهتة، تحمل كل جوع مسقط في عينيها.

فصرت لا أعرف ما أفعل، أمرت فرشوه بإخلاء المكان، وما مويزي التي كانت مدهوشة من تصرفاتي، استجمعت نفسها وأمرت بغلي الماء.

وضعت الوسائد وراءها، ومسحت على وجهها بماء نظيف، ولا أعرف كيف خرجت مني تلك الكلمة:

«لا تخافي.. لا تخافي يا أمي».

نطقت بالكلمة وتوقف كل شيء في المطبخ، فرشوه وما مويزي ومريم وعساكر، فتجمد وجع مريم، وتوقفت حركة فرشوه وما مويزي حملقت إليَّ، وعساكر التي كانت على وشك الخروج إلى الحوش بهتت في مكانها، وأنا بقيت عالقة للحظة في نظراتهن، ثم نهرتُهن وطلبت منهن العودة إلى أعمالهن.

دخلت شريفة بنت حسن بِصرَّتها، وقبل أن تستقر بين رجلي مريم لتفحصها، كان عبد اللطيف قد دخل، فعرفت أن سخي لم يطع الأمر.

حاولت شريفة بنت حسن وما مويزي أن تخرجا عبد اللطيف، قالتا إنه من الشؤم أن يحضر الولادة، وإنه عيب على الرجال، وإنه وإنه... تشبثت مريم بيد عبد اللطيف، وعبد اللطيف جلس خلفها، وأسند ظهرها، ومسح جبينها بطرف مصره.

بطرف عيني كنت أراقبه، فأرى ذلك الحنان الذي انسكب منه على مريم، وأدركت لحظتها ما فعله عبد اللطيف عندما تزوجها، فهمت السبب الذي جعله لا يكترث لحديث مسقط، ولا لي ولا لغضبي.

وعندما وضعت المولودة في حضن أمها والتفَّت ذراعا عبد اللطيف حولها، وقال: نسميها فريدة، طفا على قلبي ذلك الوجع القديم الذي كان يملؤه، طفا فرأيت صورة أبي وهو يغادر البيت ولا يعود إلا بعد سنين طويلة.

في تلك السنين كبرنا، وعندما عاد كانت ظهورنا قد استقامت

ونحن نكبر متكئين على فريدة عبد الرسول أحمد، ومحاطين بعناية شمسة وحنانها، مع ذلك فالحاجة والشوق إليه لم ينتهيا، ورغبتنا في أن يبقى معنا لم توفَّ، إذ تركنا وعاد إلى البحر والمرافئ مرات ومرات، حتى دفن وحيدًا وغريبًا في بندر عباس، ولم يمنحنا أي فرصة لأن نودعه، مثلما لم يمنحنا أي فرصة لأن نشبع من حضوره.

سمعت صوت عبداللطيف يهدهدها بأغنية من أغاني شمسة:

كوكوختي.. كوكوختي

وينو أختي؟ بالحلة

ويش تاكل؟ باجلة

ويش تشرب؟ ماي الله

وين تنام؟ بأرض الله

كوكوختي... كوكوختي.. كوكوختي..

تلاشى صوته في غصة قديمة، وارتفع كفه ليمسح عينيه من أثر الدموع.

في تلك اللحظة فهمت عبد اللطيف وحاجته إلى مريم، حاجته إلى أن تبقى في حضنه، أن يحميها كي يداوي ربما عجزه عن حماية شمسة التي هربت، وأخذت معها كل الأغاني التي كانت تهدهدنا بها حتى ننام.

عرفت حاجته إليها هي بالذات دون نساء مسقط، ودون نساء المرافئ التي يزورها، فهمت أن هذه الطفلة أخذت قلبه كله بتلك

العينين الضارعتين إلى الحنان والعطف، وأنه وجد فيها كل الذي كان بحاجة إليه.

وشعرت بشيء من الغضب لأني عكسه تمامًا، لم أجد رجلًا ليعوضني غياب أبي، لكنه غضب لم يطل، إذ وضع عبد اللطيف فريدة في حضني، وقام حاملًا مريم إلى غرفتها وهي نائمة لا تدري عن نفسها شيئًا.

وضع طفلته في حضني، ولم أعرف ماذا أفعل، فرفعت عيني مستغيثة بها مويزي وفرشوه وعساكر، تلاقت أعيننا وبدلًا من أن يمددن إليَّ يد العون ضحكن، فضحكت معهن حتى دمعت عيناي، كلنا لم نعرف ما الذي يضحكنا، لكن فرشوه وبعد أن تمالكت نفسها قالت: «أظنها بيبي مريم عديتنا بضحكتها».

مريم دلشاد

لم تُجدِ كل الرُّقى التي قرأتها ما مويزي عند رأسي، ولا ساعدت ملازمة عبد اللطيف لي في تخفيف الحزن الذي أصابني، حتى صرت لا أطيق طفلتي ولا أقبل لمسها، فأخذتها فردوس في حضنها واهتمت بها، ولم تكن تحضرها إلي إلا للرضاعة.

كنت أرضعها مضطرة تحت إلحاح عبد اللطيف وما مويزي، أما أنا فلم أكن أجد في ذلك إلا عناء وألمًا، يقولون ستموت الطفلة من الجوع، وأنا أرجع إلى خيمتنا في الحارة فأجد الجوع حاضرًا، وأبي حاضرًا، ولكن ومنذ أن وصلت بيت لوماه ودخلت مطبخ فرشوه، افتقدت ذلك الخواء العظيم الذي كان يملؤني دون أن أشبع فعلًا.

أحدث الشبع جوعًا آخر، جوعًا لا أستطيع فهمه، وبقي الخواء على حاله، كاملًا ومستديرًا وفارغًا، ولم يكن ليملأ مكانه إلا الجنين في بطني، والآن وما إن خرجت الطفلة من رحمي حتى امتلأت بالخواء ثانية، الخواء الذي لا يملؤه إلا حضور أبي أو الجوع.

قالت ما مويزي لعبد اللطيف عندما غلبتها الحيلة: «حبابي بيبي مريم تحتاج تزور أبي الشقص، تاخذ له صحنين حلوى وخبزتين تنور، وتربط على شجرته الخلق، وتتغسل بماي الطوي وتتمسح به وتصلي ركعتين، عسى الله يرفع البلاء عنها وترجع لها ضحكتها».

ما إن سمعت بأبي الشقص، حتى نظرت إلى عيني عبد اللطيف متوسلة أن يسمح لي بزيارته، فربما إن مضيت إلى الوادي الوسطي مررت بحارتنا، فلقيت أبي، أو أجد من أسأله عنه.

بعد تردد وافق عبد اللطيف أن نزور أبي الشقص بعد أن أغتسل من أربعين النفاس، على أن تصحبني ما مويزي وعساكر وسخي، وأن نعود قبل المغرب، حتى لا أبطئ على فريدة فيؤذيها الجوع.

ألبستني ما مويزي البرقع الذي أنفقت أيامًا كثيرة في تطريزه، ورغم مقاومتي، أحكمت ربطه على رأسي، ثم وضعت على رأسي شيلة كبيرة فغطت كامل جسدي، أما هي وعساكر فلم تبدلا ملابسهما، وبقيتا كاشفتي الوجه، وأنا لم أفهم لماذا أغطي وجهي الآن وقد كنت لا أفعل في حارتي، ولم أجد من يفعل ذلك حتى من النساء الكبار. وعندما سألتها، قالت إني الآن سيدة من سيدات بيت لوماه، والسيدات لا يكشفن وجوههن للمارة. لم أفهم علاقة وجهي ببيت لوماه ولا بالمارة، لكني سكت ولبسته.

خرجنا قبل صلاة العصر، وكانت هذه أول مرة أخرج فيها من بيت لوماه بعد زواجي، وأظن أني لو تركت لأخرج وحدي

لضعت، ولانتهيت عند البحر الذي أشارت ما مويزي إليه وهي تقول ونحن نركب الحمير أمام البيت: «البحر على يمينش وباب ولجات على يسارش»، وأنا خلف كل تلك الأغطية، أتمايل ولا أعرف يميني من يساري.

اكترى لنا سخي ثلاثة حمير، وسار أمامنا من ولجات إلى الوادي الوسطي، فخرجنا من باب ولجات، وسرنا حتى وصلنا إلى حارة الراوية، من هناك مشينا في بطن الوادي الكبير حتى وصلنا إلى الوادي الوسطي، حيث صارت المقبرة على يسارنا.

في سيرنا مررنا على أناس كثيرين، عرفت أكثرهم ولم يعرفني أحد منهم، وإن عرف بعضهم ما مويزي وعساكر، تبادل الرجال السلام مع سخي، ونزلت ما مويزي أكثر من مرة هي وعساكر وسلَّمن على نساء لم أعرفهن، أما أنا فبقيت على حلس حماري، ملتفة في ثيابي وبرقعي.

لزمت صمتي، غير راغبة في تبادل الحديث مع أحد، وغير راغبة في عيون الناس التي ستفحصني وتقيسني وتزنني، وربما استكثرت عليَّ ما نلت من حظ، ولا أظن أني كنت سأطيق أي كلام يأتي مباركًا أو مواسيًا.

كل ما كنت أريده هو أن أرى أبي، أو أن يخبرني أحد عنه، أما زيارة أبي الشقص فما هي إلا حجة ما مويزي كي تمنحني فرصة للحصول على إجابة، دون أن أضطر إلى سؤال عبد اللطيف، فيضيق خاطره، كنت أعرف ذلك، وكأنه منذ اللحظة التي أخرجتني فيها

من محبسي، صار هناك تواطؤ بيننا، فصرت إن فكرت أنا في شيء، نفذته هي.

نعم ما زلت خائفة من سؤاله عن أبي، كنت أخاف معرفتي كما كنت أخاف الاستمرار في جهل مصير أبي، وكنت خائفة من صدقه، وكنت أخاف أن يضطر إلى مداراة الحقيقة عني، كنت خائفة من كل شيء، لكن أكثر شيء كنت أخافه، أن يخبرني بموت أبي فأكرهه، وكان هذا الخوف يتمدد فيَّ ويعصر قلبي.

دخلت المقبرة، وسلمت على أهل القبور كما علمتني ما مويزي، واتجهنا نحو الأعمدة الأربعة التي تحفها الأشجار التي تشرب من بئر أبي الشقص. اقتربت من أعمدة مجلسه، ومررت بكفي عليها، متحسسة الرمل والحصى الذي بنيت به تلك الأعمدة، التي رأيت نساء حارتي يتبركن بها إن احتجن إلى طفل أو زوج أو رزق أو رفع ضرر، دون أن أفهم لماذا، لماذا هذا الرجل ومن يكون؟ وما الذي فعله كي يصبح من أولياء الله؟ من هم أولياء الله الصالحون؟ وإن كانوا صالحين، وإن كان الله سيستجيب لهم لماذا لم يرفعوا الضر عنا، نحن الفقراء؟ ثم لماذا على الجوعى أن يتقربوا لهم بالحلوى وهم لا يملكون ما يسدون به أفواه صغارهم الباكية؟

تمسحت بالأعمدة، وعقدت على أغصان السدرة خلقًا اقتطعتها من بعض ثيابي، ونذرت كل نذوري عن أبي، توضأت بماء البئر، وصليت ركعتين، وترحمت على الموتى، لكنني لم أشعر بالراحة، فعدت وركبت حماري.

مشينا في بطن الوادي، ثم صعدنا المنحدر الصغير، كنا نحاذي حارة لوغان في سيرنا، عندما لقيت سنجور جمعة خارجًا من المسجد الصغير الذي يصلي فيه، هبطت من على الحمار بقفزة واحدة، وذهبت أقبل يده.

«با سنجور با سنجور»، كان الرجل مدهوشًا من هذه المرأة المتبرقعة، التي هجمت على كفه تقبلها. ولكنه ما إن رأى ما مويزي وسخي ورائي، حتى فهم أننا من بيت لوماه، وعرف أني مريم.

- مريم.. كيف حالش؟ سمعنا زادت معاكم بنت؟ متباركين بإذن الله.

- مشكور با سنجور لكن أبوي وين؟

- الحمد لله أبوش بخير.

- وينه؟ ليش ما يجي يزورني؟ ليش عمي عيسى هو اللي زوجني عبد اللطيف؟ أبوي وين؟

- ما نعرف.

- كيف ما تعرف؟

- سمعيني، ما حد يعرف دلشاد وين.. حد يقول سافر مكران.. حد يقول راح مع التجار صور.. وحد يقول وصل زنجبار.

- أبوي سافر؟

- الناس شافوه يركب الخشبة مع النوخذة المخيني.

- وما سأل عني؟

نظر سنجور جمعة إلى وجه ما مويزي لائمًا:

- سأل عنش.. من عاد له نظره، سار بيت لوماه ودق الباب لين تعب وما حد فتح له.. وراح، وما سمعنا منه ولا عنه، بعدين جات الأخبار، وقالوا سافر، تتذكري قصة...

لم أقف لأسمع قصة با سنجور، بل تركته وامتطيت حماري. وفي طريق عودتنا إلى البيت، بقيت ساكتة، وما مويزي لم تحاول أن تتحدث معي، ثم بدأ الثقل الذي على قلبي يرتفع عندما أدركت فجأة أن أبا الشقص قبل نذري، وأني وجدت الذي كنت أبحث عنه، وجدت جواب السؤال الذي ظل يأكلني كل هذه المدة.

عرفت أن أبي لم ينسني، وأنه لم يتوقف عن حبي، بعد ذلك لا يهم أين يكون، ولا ما يفعل. صرت أعرف أنه بخير، وأني بخير، وأنه لم يتخلَّ عني، فامتلأ ذلك الخواء العظيم في داخلي وشبعت.

عندما وصلنا البيت وجدت عبد اللطيف يذرع الليوان بخطوات واسعة، وفردوس جالسة وفريدة تبكي في حضنها، ركضت إلى ابنتي في لهفة تجاوز عمرها الوقت الذي تركتها فيه، لهفة تساوي كل الأيام التي مضت، فأخذتها من فردوس، ووضعتها في حجري، وأخرجت صدري وألقمتها إياه، كانت تشهق من كثرة بكائها وحرقتها، حتى أنها رفضت صدري، ولفظت حلمته بطرف لسانها غاضبة، وأكملت بكاءها.

ربما كانت مثلي تشعر بأنها متروكة ومُهملة، لكني لم أتركها لغضبها، بل دسست حلمتي ثانية في فمها الصغير، حتى هدأت وقبلتها، ثم انشغلت بمصها، وبعد أن شبعت، لفظتها بطرف لسانها، ونظرت إلى وجهي، وابتسمت لي.

شبعت فريدة مني ونامت، وأنا شبعت من زيارتي لأبي الشقص، فنمت بمحاذاتها.

ما مويزي

عقدت مريم الخلق على أغصان سدرة أبي الشقص، وتمسحت بأعمدته، وتوضأت بماء بئره، وصلت ركعتين، ثم راحت تطوف بالقبور، عرفت أنها تبحث عن قبر أمها، الذي كحال كل القبور لا علامة له، غير شاهد صغير بلا كتابة. وما إن وجدته في طرف المقبرة، حتى جثت عنده، وبسطت كفيها، ثم رفعتهما إلى السماء.

كنا في طريق عودتنا، عندما صادفت سنجور جمعة، فهبطت من على حمارها، وركضت إليه، وسألته السؤال، الذي كانت تخفيه وتخافه، وكنت قد وصلت عندها عندما سمعته يقول إن أباها دق الباب، ولم يفتح له أحد، ورأيت لوم عينيها لي، وكأنها تحملني اختفاءه وحزنها.

ماذا عساي أن أقول لأخفف عنها؟ هل أشرح لها قوانين البيت مرة أخرى؟ هل سأعيد عليها، أن من يدخل بيت لوماه لا يخرج منه، حتى يتطبع بطباع أهله فيضمنوا صمته وكتمانه، فلا ينطق لسانهم خارجه بما يدور داخله.

من أين لها أن تعرف قواعد البيوت العالية؟ بنت دلشاد، الطفلة، التي لم تعرف السر، ولم تحتج إليه في حارتها، بخيامها المتلاصقة، التي لا يداري فيها شيء عن أحد.

من أين لهذه الطفلة، التي صارت امرأة وأمًّا في بيت لوماه أن تعرف، أن خشب أبواب بيوت ولجات، يخزن الأصوات في لحمه، ولا يطلقها أبدًا.

أنا لم أخفِ شيئًا عن دلشاد، لم أخدعه، ولم أقل له إلا ما أقوله لكل من أتى بنفسه إلى بيت لوماه، واستجار به من الجوع أو الخوف.

نعم، أعرف أن الأحرار غير العبيد المشترين، لكنهم في بيت لوماه لا يختلفون كثيرًا، لولا أن سيدي عبد اللطيف قرر أن يغير ذلك فتزوج مريم، لكن حتى سيدي أحمد كان يعرف ذلك، إلا أن ذلك لم يمنعه من أخذ شمسة إلى فراشه وهي حرة، شمسة التي مثل قرص الذهب، آه عليك يا شمسة، من يعرف أين صرتِ الآن؟!

أتذكر الليلة التي أحضر فيها جوهر شمسة إلى البيت، ترتجف والماء يسيل من شعرها الأصفر مثل سلاسل الذهب.

كانت ليلة هطل فيها المطر غزيرًا بعد أن انقطع عن مسقط لسنوات، حتى فاضت وديانها وأخذت في دربها خيامًا وبشرًا ومواشي من عند الجبال حتى البحر.

قال جوهر إنه لقيها تكاد تقترب من حافة الوادي، لولا أنه سبق قدمها قبل أن تزلَّ فيه وتغرق.

صرفته سيدتي دون أن تسأله عن شيء، وأجلست البنت في حضنها، وأمرتنا أن نحضر رزًّا سكبت عليه سمنًا كثيرًا وسكرًا، وبدأت تضع لقيماته في فم الطفلة المرتجفة، ثم أمرتني بأخذها إلى الحمام وإلباسها ثيابًا نظيفة كانت لبكرها زمزم، التي توفيت قبل سنين.

نامت الطفلة، وباتت سيدتي في شك عظيم، فالبنت لا تشبه أحدًا نعرفه، كلامها مثل كلام أولاد العرب، لكن العربية التي تتكلم بها لا تشبه كلام أحد من أهل مسقط، ولها بياض العجم وحمرتهم، ومقلتاها مثل الغيم، وتلبس ثيابًا غير التي تلبسها البنات هنا.

سألتها عن اسمها، فتلعثمت، ثم نطقت باسم غريب، هزوز، قالت، لكنه اسم لم نسمع مثله أو ما يشبهه من قبل، فلم يساعدنا في التعرف على أصلها ومن أين أتت.

وفي الصباح أمرت سيدتي جوهر أن يتقصى أكثر عن حال البنت، ويعرف إن كان أحد في حارات مسقط وبيوتاتها، قد فقد بنتًا صغيرة.

وعندما عاد جوهر دون خبر، سألت سيدتي البنت، لكنها بين شهقاتها وبكائها لم تقل كلامًا مفهومًا، فصبرت سيدتي عليها حتى هدأت.

بعد أيام من الصبر، وسؤال جوهر في مسقط، حاراتها ومينائها، وعودة السيدة إلى سؤال البنت مرات، عرفنا أنها جاءت بسفينة من

البصرة، وأن أمها تعمل عند مغنية اسمها منيرة هزوز، وأنهم غنوا في بيت قريب من البحر، وأنها أثناء الحفل انشغلت بملاحقة قط، فتاهت في أزقة مسقط، ولم تعرف كيف تعود إلى البيت، ثم عندما أمطرت السماء قطع عليها الوادي طريق العودة.

أكد جوهر كلام البنت، وقال إن العسكر يقولون إن الوادي جرف بنتًا عراقية إلى البحر، وإن أمها كادت أن تجن، وإن السفينة التي جاءت بالمغنين، قد غادرت إلى بندر عباس صباح الأمس.

سيدتي دعت الله أن يهدي محمد حسن، تاجر الحبوب، الذي يستضيف المغنين والمغنيات في مجلسه بين الحين والآخر، ثم قلبت عينيها بين وجه شمسة وجوهر.

اقترح جوهر أن يأخذ البنت إلى العسكر في الفرضة، لكن سيدتي خافت على الطفلة من الحبس والأذى، وقررت أن تبقيها في البيت، حتى يعود سيدي من رحلته إلى صور فتستشيره، لكن قبل أن يعود سيدي جاء جوهر بخبر شؤم من الفرضة، حيث سمع أن سفينة المغنيات قد تحطمت في عاصفة قبل أن تصل شاطئ بندر عباس.

كان اسمها قسيمة، لكن سيدتي أسمتها شمسة، وفي هذا البيت كبرت، وصارت صبية جميلة، ولها من اسمها نصيب كامل، بشرتها بلون الحليب الصافي لا تشوبها شائبة، وشعرها سلاسل ذهب.

وعندما رزقت سيدتي بعبد اللطيف، كانت شمسة بنت عشر سنوات، ثم جاءت فردوس بعده بسنتين، وشمسة تقترب من البلوغ، فرعتهما بمحبة الأخت الكبيرة وحنانها.

تعلق عبد اللطيف بشمسة أكثر من تعلقه بأمه، خاصة بعد تقلب مزاجها، بسبب نفي سيدي أحمد إلى مصر، وصار لشدة حنانها ورأفتها به، لا يفارقها، وكان يتبعها أينما ذهبت في أرض البيت، وهي تلاعبه وتلاطفه، وتركض وراءه وتختبئ منه، أو تضعه بين قدميها وترفعه عاليًا فيضحك، وفي الليل كان ينام في حضنها.

ما زلت أتذكر صوتها، الذي يتقلب في الشبه بين المزمار والناي، وتبتدع به أغاني لعبد اللطيف وهي تهز مهده لينام:

دللول يالولد يا ابني دللول

عدوك عليل وساكن الجول

دللول يمه دللول

دنام والنومة عوافي

ثم وعندما استدار عودها واكتملت امرأة، طلبها جوهر لسخي ابنه، لكن سيدتي نهرته، وشمسة لم تفهم كيف لعبد أن يطلبها لولده، وهي التي تلتمع كالشمس من شدة بياضها، حتى وإن كانت بلا أهل، وانتسبت إلى البيت بحبل من العطف لا أكثر.

منعت سيدتي شمسة من الخروج أو مخالطة الخدم، لكن ذلك لم يُنجِ شمسة من مصيرها.

فقد واقعها سيدي حال رجوعه من منفاه، وكانت تلك أيام جوعه الكبير للنساء، فلم يبقِ منا واحدة لم يأخذها في فراشه، أو يداهمها وهي تغتسل في الحمام.

إلا أن شمسة لم تكن عبدة مثل بقيتنا، ولم يكن يمتلكها سيدي ليتسرَّى بها دون عقد نكاح، ولهذا جن جنون سيدتي عندما علمت بأنها حبلى، ولم تصدق أن سيدي فعلها، فكادت تجن من الغضب والحسرة.

أرادت أن تجبرها على الزواج بسخي لتداري ما فعله سيدي ولا تكون فضيحة في مسقط، إلا أن الحمل لم يكتمل إذ تعاونت جسرة وحناة، سريات سيدي الأثيرات، فركلنها وهي تغتسل في الحمام حتى أسقطت ما في بطنها، وكادت هي نفسها أن تموت لولا لطف الله.

أنا لا أعرف إن كان لسيدتي دخل في ذلك، لأني لم أشهد شيئًا بعيني، لكن سيدتي -غفر الله لها- بعد كل ذلك الحب الذي كانت تخص به شمسة كرهتها كرهًا شديدًا، جعلتها لا تتورع عن إهانتها ووصفها بأقذع الأوصاف، وجلدها أمام الخدم، ثم أمرتني بحبسها في بيت العقاب وتجويعها.

كان عبد اللطيف في السابعة من عمره، ولكنه كان شاهدًا على ما حدث، فلقد رأى جوهر وهو يسحب شمسة بشعرها، وشمسة تركل الأرض بقدميها، تحاول الفكاك منه، وكان يركض وراء جوهر، وكاد أن يضربه بكوب معدن كان في يده، لولا أن البيبي ركضت وراءه، ومنعته وسحبته تجاه غرفتها وهو يبكي بأعلى صوته.

حُبست شمسة في بيت العقاب، وحرمت من الأكل، ولم تكن

تعطى إلا القليل من الماء حتى لا تموت، فذبلت في الحبس، وانتشرت القروح على جلدها الأبيض الناعم، فتحول لونه.

لم أتحمل رؤيتها هكذا، فأسررت إليها وأنا أسقيها الماء بأني سأخاطر، وأترك باب البخَّار مواربًا، وأن عليها أن تنتظر حتى ننام، ثم تتسلل وترتقي الدرج حتى السطح، ثم تهرب وتلتجئ إلى مبنى الوكالة البريطانية.

تسللت شمسة عند منتصف الليل، وهربت من البيت قافزة سطوح بيوت ولجات حتى وصلت إلى سطح مبنى الوكالة البريطانية، فتعلقت بالسارية، واستجارت بالعلم البريطاني.

هروب شمسة أحدث فضيحة في مسقط، إذ وجد الإنجليز ضالتهم فيها، ليسيئوا إلى سيدي الذي كانوا على خلاف قديم معه، فأبلغت القنصلية السلطان، الذي أجبر سيدي على التخلي عن شمسة، فحررتها من بيت لوماه.

سمعت أنها تنصرت بعد مدة، وصار اسمها شانون، وأنها تعلمت المداواة منهم، فصارت تساعد الطبيب في الميشن للعناية بالمرضى، ثم سمعت أنها رحلت إلى العراق، وانقطع كل خبر عنها.

منذ ذلك اليوم يشترط بيت لوماه أن من يدخله برضاه لا يخرج منه إلا برضا أهل البيت، حتى وإن مات فيه ودفن، وأن على القادم إليه أن يعرف ذلك قبل أن يتخطى العتبة، وأنا أخبرت دلشاد وابنته بذلك قبل أن يسلمني إياها، فسقط حقه فيها، لكن من يقنع مريم بهذا؟

عبد اللطيف لوماه

بين ورقتي بيذام خبأت البائعة حفنة ياسمين، طلبت بيسة ثمنًا لها، فنقدتها بيستين، وعندما وصلت إلى البيت، طلبت من عساكر أن تشكه في عقد صغير لسيدتها، التي صارت فتاة حلوة ولها ضحكة رنانة، شقية مثل ضحكة أمها، ولا تكف عن الحركة والركض في حوش البيت وممراته.

كنت عائدًا من السوق، عندما صادفتها في أسمالها، فترجتني أن أشتري منها الياسمين، كانت تبدو متهافتة، وكأنها ستسقط من فرط الجوع، أو ربما من تعب المسافة التي قطعتها من البستان حتى ولجات.

يا الله، ما الذي يمكنني فعله لفقراء مسقط الذين يزدادون فقرًا يومًا بعد يوم، حتى عجَّت بهم الطرقات، وضاقت بهم الحارات.

صرت أرى البؤس في كل مكان، ومنذ أشهر وراديو قهوة الشمخي يصيح بأن العالم يحتشد لأجل حرب جديدة، أي بؤس أكثر من هذا ستأتي به الحرب؟ وأي كارثة تنتظرنا في مسقط،

والسلطان سعيد عالق بين ديونه المتوارثة وشح الموارد وصراعه مع الإمامة؟

أجلس في الليوان، فتقبل عليَّ فريدة وقد علقت ضمة الياسمين عند منابت ضفيرتها، وعلى جبينها دهن خطان أصفران من الصندل، وكحلت عيناها بالإثمد.

تجلس واضعة ركبتيها عند ركبتي، آخذ أصابع كفها اليمنى، وأطوي أصابعها واحدة واحدة، وأنا أعلمها الأرقام، واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ثم تمضي أصابعي ركضًا على باطن كفها وذراعها: «وين بيت الفار؟ وين بيت الفار؟» حتى تصل إلى إبطها: «هنا بيت الفار».

ترتفع الضحكة من عينيها المترقبتين، فتتوالى كركراتها وهي تتلوى في حضني.

أضحك معها وأنا أضمها بقوة، فأنسى للحظات، دكاني وتجارتي، والحرب ومشاكل مسقط والعالم كله.

أردت أن أسألها عن أمها، لكني سمعت خطوات مريم تسبق سؤالي، تأتي وتضع صينية الرز محلاة بمرقة سمك غليظة، تجلس وتأمر فريدة بأن تذهب لدعوة عمتها إلى صينية الغداء.

كانت مخازني لم تزل ممتلئة بالرز والحبوب والبهارات والسكر، وأفكر بأن أنقل جزءًا منها إلى مخازن البيت، فلو قامت الحرب فعلًا، فكل سفننا ستكون مهددة، وتجارتنا ستؤول إلى الكساد، وإن

استمر الوضع طويلًا، ستشح المونة في البلاد، وسيجوع الناس فوق جوعهم هذا.

جاءت فردوس، لكنها لم تمد يدها إلى الطعام.

- إنتِ صايمة؟

- ما مشتهية الغداء اليوم.

- سمي وكلي، اليوم شي ويمكن باكر ما شي.

- بعيد الشر، باكر كما أمس، وكل يوم برزقها، أنت بس امسك يدك.

ضحكت مريم، حتى كادت أن تغص بما أكلته:

- يا الله، أنا جيت من جوع، ما كليت العيش إلا هنا، وما شبعت إلا هنا، وما شفت حد يخاف يخلص العيش إلا هنا.

رنت كلمات مريم وفردوس في أذني، فحرصت على نقل مؤونة كافية من الرز إلى مخازن البيت، وطلبت منها أن تنبه الخادمات أن لا يستخدمنها إلا بعد أن يتوقف التموين من الدكان، وأن يبقين الأمر سرًّا، فمن يعلم ما سيؤول إليه الوضع في مسقط، إن شحت المونة.

مع ذلك، فلقد طلبت مني أن أبعث بشوال من الرز إلى حارة لوغان، حتى يفرقه سنجور جمعة صدقة على أهل الحارة، ورغم أني لم أوافقها في البداية، ونبهتها إلى احتمال كساد التجارة وشح المونة بعد أشهر، فإن مريم إن أرادت شيئًا تضرعت بدموعها، وهذا ما

لا أحتمله، فأمرت خلف بن سويلم بأخذ شوالين بدل واحد، وتوزيعه على الحارات الفقيرة في الوادي الكبير.

بعد أيام سمعت أن السلطان سعيد دخل في مفاوضات مع الإنجليز حول إعلانه الحرب على هتلر وألمانيا، وأظن أنه يقصد الضغط على الإنجليز، والاستفادة من حاجتهم إلى استخدام الأراضي التي يحكمها، خاصة وأنهم قبل سنين أقاموا مدرجات لطياراتهم الحربية في بيت الفلج ورأس الحد ومصيرة وصلالة.

سربت بعض شروط السيد سعيد مع ما يتسرب من أخبار بيت العَلم ويتناقله العامة، فصارت حديث قهوة الشمخي لأيام:

«السلطان سعيد مفاوض صعب»، «رجل متمهل وما يتخذ قرارات مستعجلة»، «طالب عليهم تعويضات شهرية بمئات الآلاف»، «وما يحق لهم مخاطبة الشيوخ قبل لا يرجعوله»، «وما يمنعوا التموين من بومبي»، «جاية سنين جوع».

الجميع يعرف أن السلطان بحاجة إليهم في قمع ثورات القبائل عليه، كما حدث مع الجنبة في صور ومع بني سعد في الباطنة، لكنهم الآن في موقف الحاجة إليه، لذا لن يرفضوا أيًّا من شروطه.

يسير الكلام بين الجالسين في القهوة، بين مؤيد لهتلر ومؤيد للإنجليز، وبين كاره لكليهما، أما أنا فلم يكن يهمني من كل هذا سوى الحال التي ستؤول إليها مسقط، هل ستتعرض لهجوم بالطائرات؟ أي غلاء وجوع سيحل بالبلاد؟ والتجارة بين مسقط وبومبي وإمدادات الغذاء، هل ستكون آمنة؟

في هذه الأحوال على المرء أن يكون حذرًا، فيسمع أكثر مما يتكلم ولا يصدق شيئًا، فمن يعرف كيف هي لعبة الحرب، ومن يعرف من سيتحالف مع من في قادم الأيام، أو إلى ماذا سينتهي كل هذا؟

كان كل تاجر من الجالسين على الدكك، غارقًا في أفكاره وهو يرتشف قهوته، وبدا لي أن الجميع يحسب خسائره منذ الآن.

لكن لكل حال مصالحه وتجارته أيضًا، كنت أعرف ذلك، وكنت أحدس ببناء قاعدة للإنجليز قرب واحد من مدارج الطائرات الرئيسية التي سيحتاجون إلى توسعتها في هذه الظروف، فإن دخلت بريطانيا العظمى الحرب، فستحتاج إلى دعم كبير لتحريك جيشها وتأمينه في الشرق، وعمان ببحارها وشواطئها ستكون خيارهم الأمثل، وفي تلك الحالة ستكون حاجة الإنجليز إلى الأنفار كبيرة، وهذه فرصة لتشغيل الكثير من العاطلين الذين يقضون نهاراتهم متسولين للأعمال في أسواق مسقط الراكدة، وهي بالتأكيد فرصة كبيرة للتربح من هذه الحرب.

ومع أنها فكرة تبهج الخاطر، فإنني تركت القهوة وأنا أشعر بثقل في قلبي، وتوجهت في مشيي نحو المكان الذي كنا نقصده أنا وحميد، عندما كان يفيض بنا الهم ونحتاج إلى الكلام بعيدًا عن الآخرين، لكن حميد لم يعد هنا، ترك مفاتيح الدكان والدفاتر عند عقيد الأنفار واختفى.

رغم مرور كل هذه الأعوام على رحيله لم أتعود على وحدتي بين الرجال في القهوة، وبالتأكيد لن أتعودها هنا في مكاننا، جالسًا

على هذه الصخرة، أقابل مدخل الميناء، الذي لا بد أن السفينة التي حملته قد مرت من خلاله، نحو البحر.

كانت فردوس أول من فكرت في إخباره برحيله، وأحسست وأنا أخبرها بأنها انهدت فجأة، وأن جدارًا في أعماق قلبها تصدع، لكن أختي المكابرة لم تسمح بظهور ذلك على وجهها، الذي استحال إلى حجر، هزت كتفها وتركتني واقفًا في وسط الليوان، وغادرت إلى غرفتها، إلا أن ما مويزي التي ظلت تنام لأيام عند عتبة بابها، أسَّرت إليَّ بأنها كانت تسمعها تبكي كل ليلة، لكنه حال لم يدم، ومثله مثل كل شيء آخر، كان مآله النسيان، أو هكذا بدا لنا على الأقل.

بعد مدة تجرأت مريم، وأخبرتني بما نسجته من حيلة لتزويج فردوس بحميد، وكيف أنها ومنذ أن لاحظت تعلقها بفريدة، تمنت لو أن لها أطفالًا وبيتًا يخصها، كنت أعرف أن كلام مريم يتلون بين صدق وكذب، فحتى أنا كنت أشفق على فردوس من تعلقها بفريدة، لكني كنت متأكدًا أن مريم أيضًا كانت تريد أن يكون البيت كله لها، وربما أردت أنا ذلك أيضًا، أردت لفردوس أن تخرج من البيت، فيصبح لها بيت وأطفال وزوج، وأستريح أنا من مشاكلها مع مريم والخادمات.

استدعيت ما مويزي التي طلبت مني المسامحة، ثم أخبرتني أن حميد كان مترددًا في طلبه فردوس مرة أخرى، خوفًا من أن أفعل ما فعلته في المرة الأولى ولا أرد عليه.

غضبت من مريم وهجرتها، ونمت في المجلس لأيام، لكني في الحقيقة كنت غاضبًا من نفسي أكثر.

كيف لم أرَ ذلك؟ كيف لم أنتبه إلى أنك لم تنسَ يا حميد وإن تناسيت؟ وأن تلك النظرة التي ألمحها في عينيك عندما ألتفت إليك بغتة، لم تكن نظرة اليائس، بل نظرة الترجي والانتظار.

سنوات طويلة بقي في خدمتي، لم يراجعني أو يعاتبني، أظهرت له أني لم أسمعه، وأظهر لي أنه لم يقل.

مرت أيام وأنا غير مصدق رحيله، لكني راجعت السجلات في الفرضة، وعرفت أنه رحل مع سفينة تابعة للشركة البريطانية الهندية للملاحة، ثم وبعد شهور من اختفائه، وصلني خبر مع بعض المسافرين أنه شوهد يتجول في أسواق البصرة، ثم أخبرني والات شاه بأنه صادفه عند بوابة الهند في بومبي، وأنه كان يرتدي البنطلون والقميص وسترة من الكتان كما يفعل الإنجليز، وأنه كان يحمل كاميرا مثلهم، ويلتقط صورًا كما يفعلون في رحلاتهم، وسألني من أين له المال؟ كان يعرض به، وأنا أعرف أن حميد لم يسرق مني بيسة واحدة.

أغيب في التذكر ثم أعود إلى المرفأ الخالي أمامي، إلا من سفن تابعة للبحرية الملكية البريطانية، وبضعة قوارب صغيرة.

هل سننجو من هذه الحرب؟ وإن نجونا من القنابل هل ستنجو مسقط من الجوع؟

حميد بن عبد اللّه

كانت خطة ما مويزي بسيطة، أخطب فردوس من أخيها، وهي ومريم تتكفلان بإقناعه.

لكنها لا تدرك أن الصعوبة كلها هي أن أقدر على حمل نفسي مرة أخرى على طلب ذلك من عبد اللطيف، ثم ماذا عن فردوس، هل هي راغبة فيَّ مثلما أنا راغب فيها؟

كانت ما مويزي واثقة جدًّا حتى شككت أن عبد اللطيف هو من أرسلها إليَّ، لكن عبد اللطيف لا يعرف هذه الأمور، هذا كيد النساء ومكرهن.

تركت الدكان وأنا لا أعرف إن كان عليَّ أن أعود إلى البيت أو أذهب إلى الفرضة، فأراقب الحمولة الجديدة القادمة من الهند، وأحاول أن أعب من هواء البحر قدر استطاعتي، وأتلهى عن الفكرة التي بذرتها ما مويزي في رأسي.

أأذكِّر عبد اللطيف بما نسيه؟ وأذكر نفسي بكل ذلك الألم وأنا

أنتظر هذا الرجل أن يجاوبني، يومًا بعد يوم كنت أرى الأمل يخفت ويخفت حتى تلاشى تمامًا.

تريدني ما مويزي أن أغامر بفعل ذلك ثانية، أن أضيف سقمًا جديدًا على أسقام روحي.

فكرت كثيرًا في الزواج، لكني بقيت معلقًا بخيط من أمل، فعلَّ عبد اللطيف يتذكر أني خطبت فردوس في تلك الليلة ويرد عليَّ.

لكن هل خطبت من عنده في تلك الليلة أم أني كنت أحلم؟ ولو أني عدت وخطبتها الآن، هل سيوافق؟

ولماذا سيغير موقفه يا ترى؟ وأنا ما زلت ذلك الرجل نفسه المتحدر من حارة من حارات مسقط الفقيرة المندسة بين الوديان والجبال السود، والذي مات أبوه غارقًا في سكره.

نعم، ما زلت ذلك الولد اليتيم نفسه الذي رباه عمه وتربى هو في خدمة بيت لوماه، وكان ينتظر أن يشتري له عبد اللطيف اللدو من عند بهادر في السوق الداخلي، لأنه لا يحب الأكل وحيدًا، وأنا لا أملك ما أحمله من البيسات في جيبي، فأشتري مثله الحلوى التي يتناولها بنهم.

لم يتغير شيء سوى أني كبرت أكثر ومراجعة دفاتر تجارته أكلت عيني، هل سيزوجني أخته؟ أم أنه لن يسمعني هذه المرة أيضًا؟ وأنا؟ هل سأقدر على ادعاء أني لم أقل شيئًا وأبقى على حبي وإخلاصي لبيت لوماه أبد الآبدين؟

لكن، هل حدث ما حدث تلك الليلة فعلًا؟ هل طلبت من عبد اللطيف أن يزوجني أخته؟ هل جرؤت فعلًا على طلب مثل هذا؟ وعبد اللطيف.. لماذا لم يرد عليَّ؟

سبع سنوات مرت وهو لم ينطق بكلمة، تزوجت وأنجبت وجُنت زوجتي وماتت، وهو اكتفى بالمباركات والتعزيات، وعندما جاء لتعزيتي في خديجة انتحى بي جانبًا، ووضع في يدي قروشًا من الفضة، كي أقيم العزاء أو ربما كي لا أحزن.

أحقًّا باستطاعة القروش أن تُذهِب خسارات قلبي؟ أني غير ملتفت إليَّ؟ قليل وبالكاد أُرى؟ هل ستمنحني القروش هيئة ومعاني؟

ليته قال: لا، وساق أي سبب كان للرفض، حتى لو قال لي: الزم قدرك واعرف أنك لست من ثوبنا، كنت على الأقل سأعرف أن لي ثوبًا وأني منظور.

ليته قال لي أي شيء... أي شيء، كان كل ذلك سينتهي.

لكنه تعمد أن لا يلتفت إليَّ حتى وأنا جالس إلى جانبه وأطلب منه أخته للزواج، لم يلتفت، لم يتحرك، قسمات وجهه كانت هادئة، وظلت عيناه معلقتين بالصيرة الغربية، ثم قام فتبعته، تركته عند باب بيتهم، وترنحت في طريقي كله إلى الحارة.

اللعنة، كنا سكارى، فهل طلبت بنت لوماه من أخيها فعلًا؟ أم أن كل ذلك حدث في رأسي وحدي؟

من الأفضل أن لا أكررها ثانية، ذاك الوجع لن يحتمل مرتين، وأنا لا أريد أن أخسر عبد اللطيف، ولا بيت لوماه ولا لقمة العيش التي توارثناها، ولا نية لديَّ في أن تستيقظ مسقط ذات يوم فتجد دروبها وقد زادت مجنونًا آخر، أو جثة تطفو على وجه بحرها.

ذهبت إلى الفرضة، وركبت القارب إلى السفينة، وهناك وقفت على توزيع البضاعة، تلك التي سننقلها إلى مسقط، وهي قليلة مقارنة بتلك التي سنرسلها في القوارب إلى مطرح، فتصل إلى قوافل الجمال التي ستأخذها إلى نزوى وعبري عبر سمائل.

كانت هذه أول بضاعة تصلنا دون أن يكون عبد اللطيف من ذهب في سفر لها، أرسل رسالة إلى وكيلنا في بومبي، فحمَّل السفينة بحمولة من الرز والبهارات والأقمشة.

لكن لعبد اللطيف ما لا أعرفه من الخبايا، ويدهشني دائمًا بقدرته على معرفة السوق وما يحتاجه، ومعرفته ما لا يعرفه غيره من تبدل الأحوال.

ربما لأنه ورث التجارة أبًا عن جد، أو ربما لقربه من البانيان وتعامله الطويل معهم وفهمه لأساليبهم، أو ربما كان لعلاقاته مع الإنجليز دور في ذلك، لا أعرف.

أما أنا فكاتب الحسابات الذي يعرف الأرقام والحساب، لكنه لا يملك أن يقول رأيه، ولا يسأله أحد، وحتى إن سئلت فماذا عساي أقول؟ وإن قلت من ذا الذي سيعمل برأيي؟

أنا حميد بن عبد الله، كاتب الحسابات الذي لم ينتبه له أحد حتى الآن، نعم لم ينتبه له أحد قط.

هذه هي الفكرة التي نبتت يوم أن تجاهلني عبد اللطيف، وظلت تكبر مع الأيام، وتقرضني ببطء من الداخل، هل ستتلاشى لو أني ذكرت عبد اللطيف ووافق على زواجي بفردوس؟

عند الضحى، عدت مع أحد القوارب المحملة إلى الفرضة. كان القارب يتحرك ببطء مثقلًا بحمولته، والمجدِّفون في صخبهم العادي، أما أنا فسار فكري مع حركة القارب في الماء، متأرجحًا بين كلام ما مويزي وترددي وشكوكي وخوفي.

ماذا لو أني أطعت ما مويزي وجرؤت على تذكير عبد اللطيف ثانية؟ ماذا لو غامرت بما تبقى من عقلي وقلبي؟ هل سيجيبني هذه المرة؟ هل سأتزوج فردوس؟ وهل إن تزوجتها أصبحت واحدًا من بيت أحمد فضل لوماه؟ هل ستنسى مسقط حكايات أبي وجنون زوجتي؟ وهل ستنجب فردوس ولدًا يضحك لي ويمسك طرف عصاي ويكبر أمام عيني ويرثني؟ ما الذي سيرثه الولد مني؟ ربما لا شيء.. لكن من فردوس.. سيرث ما تركه أحمد فضل لوماه لأمه، وما زاد عليه عبد اللطيف.

وصلنا إلى الفرضة، ودفعت العشور على البضائع بحسب ما قيده كاتب الجمرك في دفتره ونحن على السفينة، ثم وقفت على إنزال البضاعة من المراكب، وأمرت عقيد الحمالين أن يدبر إيصالها إلى مخازن لوماه خلف السوق.

كان الوقت قد قارب الظهر، وارتفع صوت الأذان وأنا أمضي في دروب ولجات حتى أصل المخازن التي أوشكت أن تكون فارغة، وأفتحها قبل أن يصلوا، وأشرف على تخزينها في الأماكن الصحيحة. وأنا مسرع في طريقي مخترقًا حارة البانيان، التقيت رجلًا إنجليزيًّا يمشي بصحبة امرأة لا بد أنها زوجته، سلمت عليهما بابتسامة، فردتها المرأة بابتسامة، بينما أشاح مرافقها بوجهه عني.

استرعت مظلة المرأة انتباهي، كانت مختلفة عن مظلات البانيان السوداء، هذه كانت نظيفة جدًّا، وبيضاء بشكل لا يصدق، تمامًا مثل نورة البيوت، وكان هذا البياض يسحبني وراءه كالمجذوب، دون أن أقدر على المقاومة.

مشيت وراءهما، أو في الحقيقة وراءها، ووراء المظلة، فالرجل ما عاد منظورًا عندي، ثم عند نهاية الزقاق توقفت، وتظاهرت بأني أفحص دفتر تقييد البضاعة الذي كنت أحمله، بينما كنت أفحص تلك المظلة البيضاء ومقبضها الخشبي، والمرأة النحيفة التي تقف تحتها، بوجهها الأبيض كالقرطاس وأنفها الصغير المدبب وعينيها الزرقاوين كالبحر، أي والله زرقاوين، كبحر مسقط عند انتصاف النهار، أزرق بلا رحمة.

كانت ترتدي ثوبًا أبيض من القطن الهندي الخفيف، عقد خصره بشريط أزرق، وفي قدميها حذاء جميل مدبب المقدمة، وتعتمر قبعة صغيرة زرقاء تميلها على الجهة اليسرى من جبينها، وتحمل حقيبة بيضاء كأنها صندوق صغير.

تخطياني وهما منشغلان بتأمل عِمارة البيوت على جانبي الزقاق، فصرت أمشي وراءهما من سكة إلى سكة، حتى وصلا إلى بيت الوكيل البريطاني، وقبل أن يدلفا إلى داخل البيت، التفتت المرأة إليَّ، وابتسمت بعذوبة جمدتني في مكاني، وأنا أراها تختفي داخل باب القنصلية الكبير. لا أعرف كم بقيت في مكاني لا أرى إلا ابتسامتها وهي تغيب، حتى نبهني صوت عتَّال يطلب مني أن أتحرك من وسط الدرب، فعدت أدراجي إلى السوق.

لم تكن أول إنجليزية أراها، فقد تعودت رؤية النساء الإنجليزيات في مسقط بين الحين والآخر، خاصة أولئك اللائي يأتين مع أزواجهن عابرات إلى البصرة أو البحرين أو بومبي، فيقمن مدة في بيت الوكيل البريطاني، ثم يرحلن.

رغم أني لا أتذكر أني ركضت، إلا أني وصلت السوق وأنا ألهث، وشعرت بعطش شديد، وكأني شربت مجة من ماء البحر، فتحت أبواب المخزن، ودلقت كل ماء الجحلة المعلقة في جوفي، ثم خرجت إلى الدرب، ووقفت أنتظر وصول الحمالين، وما إن أكملوا رص البضاعة في جوف المخزن المظلم، حتى نقدت عقيدهم الأجرة، وأغلقت المخزن وعدت إلى البحر.

وقفت وظهري إلى جبل الصيرة الشرقية، من مكاني أرى المنارة أعلى طرف جزيرة مسقط، متأملًا زرقة البحر التي مثل زرقة عينيها.

عيناي معلقتان بحركة الأشرعة تحت الشمس، والموج يداعب أجساد السفن الداخلة والخارجة من المضيق، الذي يقع بين الصيرتين،

والنوارس التي تحلق في أسراب قريبة من صفحة الماء، أو تقف منفردة مثل نقاط بيضاء على أطراف الصواري.

ولأول مرة يخطر سؤال السفر في بالي، وتذكرت وقوفي وعبد اللطيف بعد خروجنا من مدرسة الزواوي، بالقرب من هذا المكان، نحلم ببلدان كثيرة وموانئ بعيدة، نجرب فيها حظوظنا، ونكتشف نساء وبلادًا وروائح ومذاقات.

كبرنا فسافر عبد اللطيف كثيرًا، بينما بقيت أنا وراءه، أرعى دكانه ومخازنه وأضبط أرقامه ودفاتره.

هو رأى الدنيا كلها، البصرة وبندرعباس والمنامة والكويت، وكراتشي وبومبي وكالكت وعدن وزنجبار، وأنا بقيت أتردد بين أزقة حارات ولجات والهنود والسوق، وأقنع بالاستماع إلى حكاياته عندما يعود من سفره.

لا أظن أن عبد اللطيف كان يذهب قاصدًا التجارة، بقدر قصده المتعة والفرجة، التي تعودها، فما عاد يطيق مسقط أكثر من شهرين أو ثلاثة، ثم يسلم نفسه لسفينة من السفن، يرحل معها ويعود مع غيرها.

يأتي ببضاعته التي يتفق عليها مع وكالات البانيان هنا، فيحملها من هناك، وهو يعرف أنه لا حاجة له بالسفر، لكنه كما يقول ورث هذا التوق من أبيه، ولا أظنه يكذب.

أتساءل أحيانًا كم سيتحمل بقاءه في مسقط؟ وإلى متى سيكتفي بحياته الجديدة؟ متى سيعود البحر إلى مناداته؟

وأنا هل هناك مكان آخر لي في هذا العالم، بحظوظ أخرى، ينسيني حكاية أبي السكير، ويبعدني عن السؤال المر الذي تريدني ما مويزي أن أعالجه بإعادته مرة أخرى على عبد اللطيف؟

هل هذه كل خياراتي؟ وكل ما هو ممكن، فردوس وعبد اللطيف وبيت لوماه، فأعود لأسأله بمذلة متجددة:

«هل تزوجني أختك يا عبداللطيف؟».

اللعنة عليك وعلى أختك، وعلى ما مويزي التي تظن أني رجل بلا كرامة، اللعنة عليك وعلى تجاهلك الطويل لي يا عبد اللطيف... اللعنة.



ما مويزي

كانت أمي عند انتصاف كل شهر تحل ضفائري، ثم تغسل شعري بالماء والسدر، وعندما يرتفع القمر في السماء، تغلق عليَّ بفخذيها القويتين، وتدهنه بدهن جوز الهند ثم تطيبه بالذرور، ثم تمشطه بمشط خشبي ذي أسنان حادة، تغرسه في تشابكه وخشونته، حتى تستطيع فكه وتطويعه، بعدها تضفره في ضفائر صغيرة وكثيرة.

يتعبني جلوسي الطويل ويقيدني، وكنت أريد أن أهرب منها فأقف على السطح، متكئة على حاجزه مع بقية الصغار، فأنظر كيف ينسكب ضوء القمر كله على الماء، وكيف تلتمع القوارب والسفن في بحر صور.

لكن أمي كانت بعد أن تنتهي تضمني وتحبسني بين ذراعيها بقوة، وتغني لي بالسواحلية أغنية ورثتها عن أمها، وأمها ورثتها عن جدتها.

ثم تقول لي تذكري دائمًا أنك مويزي، وتشير إلى القمر في السماء.

جُلبت أمي إلى صور من المصنعة، وجُلبت أمها إلى المصنعة من زنجبار، لكن أمي لم ترث من السواحلية إلا الحكايات، وكانت تخبرني قصصًا كثيرة، عن تزاوج الأرض بالسماء، عن إنجاب الليل للنجوم، وعن المطر والقمر والشمس والثعابين والنمل والضفادع، حكايات لم أسمعها عند أحد، وكنت أحكيها لفردوس وعبد اللطيف عندما كانا صغيرين، خاصة حكاية قطرة الحليب.

«أول كانت هناك قطرة حليب كبيرة، منها خلق دندري، ودندري خلق الحجر، والحجر خلق الحديد، والحديد خلق النار، والنار خلقت الماء، والماء خلق الهواء. بعدين رجع دندري وهبط، وسوا من الماء والهواء والحديد والحجر والنار إنسان، ولكن الإنسان تكبر. فخلق دندري العمى، العمى غلب الإنسان، ولكن العمى تكبر، فخلق دندري النوم، فغلب النوم العمى، ولكن النوم تبطر وتكبر، فخلق دندري الخوف، فغلب الخوف النوم، والخوف تبطر، فخلق دندري الموت، فغلب الموت الخوف، ولكن عندما تكبَّر الموت، هبط دندري واستوى رب، والرب غلب الموت».

كنت أحكيها كما سمعتها من أمي، وكان عبد اللطيف وفردوس يحبان سماعها، فيطلبانها ليلة بعد ليلة، حتى سمعتها سيدتي، فنهرتني وقالت إن هذا كفر، فتوقفت وصرت أحاول أن أغني لهما، لكن صوتي كان يخرج من حلقي مثل الصفير، حادًّا ومزعجًا، ولا يشبه صوت شمسة الذي مثل هديل الحمام، فكانت

فردوس تضع أصابعها في أذنيها، بينما يتجرأ عبد اللطيف أكثر، فيضع كفه على فمي ليسكتني.

لا أعرف كم كان عمري عندما تم بيعي لحبابي أحمد في مسقط، فجسمي الذي كان ضئيلًا، طال فجأة وأنا في صور، وصرت امرأة كاملة هناك، لكن أمي كانت قد بدأت باللطم على وجهها قبل ذلك بمدة طويلة، وهي تقول: سيأخذونك يا مويزي، سيأخذونك مني ولن أراك، وسألتها إلى أين؟ فقالت: لا أعرف.

أنا وعَدت أمي أني لن أدعهم يأخذوني، لكنها كانت تعرف ما لا أعرفه، فلم تتوقف عن البكاء أبدًا.

وعندما أخذوني، بدا وكأن كل بكائها قد انتهى، ووقفت أمام الباب جامدة، وكأنها جذع نخلة مسند إلى الهواء، وهم يجروني وأنا أصرخ وأرفس الرمل بقدمي.

كان الوقت عند المغيب عندما تحركت بنا الخشبة من صور، كنا نساء كثيرات وأطفالًا والقليل من الرجال. بقي الرجال على السطح مع البحارة، بينما أنزلنا نحن إلى العنبر، وقبل أن يضعونا في العنبر السفلي رأيت الشمس تذهب في البحر وتتلاشى، فدخلنا في ظلمة داخل ظلمة.

في العنبر تقاربت الأجساد وتعارفنا، بيتًا بيتًا، النساء الكبار بدون هادئات كمن عاش هذا الفراق من قبل مرات ومرات، لكنهن كن يُحكِمن القبض على أطفالهن خوف أن يهربوا منهن أو يضيعوا، أين يضيعون ونحن نتراص في هذا المكان الضيق الخانق؟

بعد أن أوغلت السفينة في البحر وغاب الضوء تمامًا، التمعت العيون والأسنان، وسمعت صوت نقر على خشب المركب، ثم ما لبثت الأغاني أن تعالت، أغانٍ بلغة خليط بين العربية ولغة لا أفهمها، ولكنني أعرف أنها السواحلية.

لكن الأطفال ما لبثوا أن بدءوا بالاستفراغ، ورائحة القيء التي اختلطت برائحة الصل والخشب فاحت، فأحكمت تغطية أنفي وفمي بالليسو، وحاولت أن أتحرك بعيدًا، فصرت أزحف تجاه الدرج الذي هبطنا منه، عل نسمة من هواء نقي تساعدني على احتمال هذه الروائح التي تدير رأسي.

مع الوقت بدأنا بالتعود على حركة البحر ورائحة القيء العالقة في الهواء، وشعورنا بالبؤس، وأنا بدأت أفهم أن التعود سيكون هو طريقي لتجاوز أي شيء وكل شيء.

حينها لم أكن أفهم كيف لي أن أتعود أن لا أرى أمي، أن لا أشم رائحتها، أن يمضي اليوم دون أن أسمع صوتها، مع ذلك تعودت، لكن التعود أمر يختلف عن النسيان، يختلف تمامًا، لذا بقيت تفاصيل أمي عالقة في ذهني، كل تفاصيلها، مواراتها لضحكتها بظاهر كفها، الطريقة التي تزم شفتيها بها عندما لا يعجبها شيء، حركة كفها وهي تضرب بها فخذها أثناء الكلام، وأكثر ما بقي عالقًا في ذهني هو صورتها عند الباب، جامدة لا يتحرك منها شيء سوى ارتجافة شفتيها، والدموع التي تفور من عينيها، ويداها مسبلتان إلى جانبيها دون حركة، ثم سقوطها على

ركبتيها، كان ذلك السقوط آخر ما أتذكره من أمي، ودائما ما أراه في أحلامي.

عندما وصلنا إلى مسقط، وزعنا على بيوت كانت قد اشترتنا من قبل، كان جوهر هو من استقبلني في الفرضة، وأشهر صك شرائي ليثبت ملكية سيدي أحمد لوماه.

وأنا لم أكن قد رأيت صكًّا من قبل، ولم أكن أعرف أني مملوكة لأحد، وأني أُباع وأُشترى مثل الأشياء الأخرى التي كنت أذهب إلى السوق لأجلها، كنت أسكن وأمي في بيت السركال، كنا كثيرين، بيضًا وسودًا، سادة وعبيدًا، لكننا كنا نلعب معًا، ونضحك معًا، ونتسابق على الرمل معًا. صحيح أننا لم نكن نأكل كلنا معًا من الصينية نفسها، ولم نكن كلنا نؤدي الأعمال نفسها، وكنت أعرف أنهم سادة، وكنت أعرف أني عبدة، كنت أسمع الكلمة، كانت تقال لي ولأمي وللأخريات، لكنني لم أكن أعرف أن ذلك يعني أني أُباع وأُشترى مثل الأشياء في السوق.

وعندما عرفت فهمت بكاء أمي، ولاحقًا فهمت أنها لم تكن تَبكيني وحدي، بل تبكيني وأمها ونفسها وربما كل النساء الأخريات.

مشى جوهر، فمشيت وراءه حتى البيت الكبير، الذي كان خاليًا في وقت وصولي إلا من بيبي فريدة وخادماتها، أما سيدي أحمد فكان غائبًا في سفر ما.

في بيت السركال كان الجميع يناديني: «غبشوهْ»، لكن عندما

سألتني سيدتي فريدة عن اسمي قلت لها: مويزي. فأنا لم أحب غبشوه يومًا، ولم أفهم لِمَ ينادوني بذلك الاسم الذي لم تختره أمي لي.

صار اسمي في مسقط مويزي كما أحببت، وبعد أن أنجبت سيدتي منحني عبد اللطيف «ماه»، الذي نطقه وهو يحاول تلمس وجهي، وأنا ألاعبه وأقضم أصابعه البيضاء الصغيرة مثل أقلام السكر، فصرت ما مويزي، ثم جاءت فردوس فقلدت أخاها.

وهكذا عرفتني مسقط «ما مويزي»، الأم التي لم تتزوج ولم تنجب ولم ترغب في ذلك يومًا، حتى عندما أراد سيدي أن يغصبني على الزواج بجوهر، وضربني لأيام بسوط من جلد البقر، لم أقبل وهددته باللجوء إلى سارية العلم البريطاني إن هو فعل، فزوجوه جسرة وأنجبت له سخي وأختًا له أسموها بياحة، باعها سيدي لرجل في مطرح وهي بنت سبع سنين، أما أنا فلم يلمسني سواه، ولم يفعل ذلك إلا مرة واحدة، خرج منها بكدمة في باطن فخذه.

مع ذلك لم أستطع إلا أن أحب فردوس وأخاها، وكل ما قدرت عليه هو أن لا أتزوج ولا أنجب، موفرة على نفسي آلام أمي وجدتي من قبل. وحاولت مع حميد بن عبد الله، لأجلها ولأجل عبد اللطيف ومريم، ورجائي أن تنال ما تريده، فنتخلص من حزنها، الذي صار يكبر ويتحول غضبًا، لا تجد من تنفسه فيه غير الخادمات.

لكن حميد منذ أن ذهبت إليه في الدكان، وعرضت عليه محاولة خطبة فردوس ثانية، ووعدته أن سيدي عبد اللطيف لن يرد طلبه، اختفى ولم يستدل على مكانه أحد.

فردوس

كرر عبداللطيف السؤال عليَّ ثلاثًا، أتقبلين بموسى حسن زوجًا لك على سنة الله ورسوله؟ لكنه لم يجرؤ على النظر إلى عيني ولو مرة واحدة، فهو يعرف أن فردوس الآن ما هي إلا طيف فردوس التي كانت قبل سنين سيدة بيت لوماه، تملؤه بضجيجها وأوامرها، وأن الرجال كل الرجال صاروا سواء عندي، مع ذلك أجبته بنعم واضحة لا لبس فيها.

قبل سنوات بلغني عبد اللطيف بسفر حميد، فسألته لماذا يخبرني بذلك، فتلعثم، وغادر دون أن يجاوبني.

ما معنى أن يغادر حميد بن عبد الله فجأة؟ وما علاقة ذلك بي؟ وكيف عرف عبد اللطيف أن الأمر يهمني؟ هل عرف أني أعرف أن حميد خطبني؟ أم أن ضميره أثقله فجأة!

آلمني الخبر، وربما بكيت، لكن ما آلمني حقًّا، أني عرفت بالصدفة أيضًا، وعبر الأصوات المتسربة من غرفتهما ما خططت له مريم ونفذته ما مويزي.

كانت تتكلم ويقطع كلامها البكاء، وهي تحاول أن تشرح له، كم تحبني، وكم تشفق عليَّ من البقاء في هذا البيت بلا زوج ولا ذرية، وكيف أنها عندما عرفت أنه سبق لحميد خطبتي، أرسلت له ما مويزي لتشجعه على محاولة ذلك مرة أخرى، وأنها كانت ستتكفل بإقناعه، وسمعت عبد اللطيف لأول مرة يرد عليها بغضب، لكنه كان غاضبًا لأن حميد تركه، ترك دكانه ودفاتره بسبب قلة عقل مريم، وظل يكرر «خسرت صديقي بسببكن»، ولم يذكرني لحظة على لسانه.

عدت إلى غرفتي وأنا أرتجف من الألم والغضب والإهانة، ولم أعرف ما أوجعني أكثر، شفقة مريم، هروب حميد، أم حب عبد اللطيف لنفسه ودكانه ودفاتره فقط؟

لكني داريت وجع قلبي بالصمت والانشغال بفريدة، حتى سكن الجرح وتحول ندبة أحملها وأسترها عن عيون الآخرين، ومع الوقت صرت أشعر أن البيت يضيق، فصرت أقضي أغلب الوقت مع فريدة على السطح، أراقبها وهي تركض وراء الحمامات، أو تركض إلى حضني خوفًا من النوارس.

وعندما جاءت خالتي زباد من صحم لخطبتي لابنها، موسى ابن الحاج حسن، لم أعارض فكرة زواجي برجل متزوج، ولم أمانع فكرة انتقالي إلى صحم، كنت أريد أن أذهب أبعد ما يمكن عن بيت لوماه الذي تضاءل مكاني فيه.

أنا لا أعرف موسى حسن إلا من كلام خالتي، كما لم أعرف

حميد بن عبد الله إلا من كلام أخي، ولم أره إلا مرة أو مرتين سرقة، من خروم النافذة، إلا أن قلبي مال إلى حميد، ثم فرَّ معه عندما رحل.

وعندما أعلنت خطبتي تمنيت لو أن مريم تقرضني شيئًا من ضحكها، فأداري به خوفي وآلامي التي تراكمت في السنوات الأخيرة، إلا أن ما مويزي قالت وهي تطبطب على خوفي: «يا بنتي، يقول صاحب المثل: يوم ما يطيعك الزمن طيعه». وأنا استسلمت للزمن، وتركته ليأخذني حيث يشاء.

بقيت في مسقط ثلاثة أشهر، أعد نفسي كعروس بالثياب والحلي، وعبد اللطيف أحضر القاضي، وقسم ميراثنا كما في الشرع وأعطاني حقي من ورثي نقدًا، لكنه لم يبقِ لي بيتًا أرثه عن أبي في مسقط، وكأنه لم يرد أن يكون لي مكان هنا، لو أنني ولأي سبب عدت إليها أنا أو أيٌّ من أولادي، كأنه أراد أن يقطع كل علاقة لي بالمكان، وأنا لم أعترض، فما عاد لي في مسقط ولا في بيت لوماه ما يغري بالعودة.

بعد ثلاثة أشهر جاءت خالتي وزوجي وأخواته وعماته، ومعهم قافلة من الخدم نساء ورجالًا، ليأخذوني إلى صحم.

رافقتني الطاووس وما مويزي، أما عبد اللطيف فقبلني بين عينيَّ عند باب البيت، وبكت فريدة كثيرًا وقالت: «خذيني معك عمتي». لكني قبلت خديها وهمست لها، وأنا أعرف أني كاذبة بأني سأعود قريبًا، أما مريم فوقفت تمسح دموعها بظاهر كفها، ثم احتضنتني طويلًا، فشعرت بقلبها يرفرف بين ضلوعها فرحًا،

ثم أفلتتني، فأخذتني النساء ملتفة في شالي الأخضر إلى القافلة، وأجلسنني على حمار عالٍ جنب حماري زوجي وخالتي.

غادرنا ولجات وسرنا في دروب مسقط حتى وصلنا الجفينة، فارتقينا العقبة ونزلنا في ريام، وعند بوابة مطرح تركنا الحمير وركبنا النوق، ومن هناك انطلقنا إلى وجهتنا الأخيرة، نبات في مكان ونسري من مكان، عابرين سيوحًا عظيمة، مارين بخيران تتكاثر فيها أشجار القرم والهوام، وسبخات شاسعة مقفرة، وقرى صغيرة من خيام السعف، تكاد أن لا ترى فيها بيتًا واحدًا من الطين، إلا في السيب وبركا، حيث تكثر المزارع والقرى.

وصلنا صحم قبيل غروب يوم الأحد، فحددت الجمعة التي تليها للضيافة والزفاف، فانشغلت النساء بطحن الحبوب وإعداد ما تتطلبه وليمة العرس، وفرغت أرض بجانب البيت لاستقبال فقراء القرية للغداء، أما الأقارب وضيوف خالتي، الذين جاؤوا من القرى المجاورة، فقد فرش لهم في الليوان السجاد والمخدات الملونة.

أعدت لي غرفة للزفاف، بطنت جدرانها بالحرير الأخضر والمرايا، وفرش فيها السجاد الفارسي، ووضعت الكراسي والمخدات الملونة والتحف، وفي وسطها وضع سرير من الخشب، له إطار عند الرأس ويقابله مثله عند القدمين، منقوش بتصاوير الطواويس والورد، ورفع على الإطارين عمودان حملا إطارًا كبيرًا من الخشب، علقت عليه أقمشة منسدلة من القطن الأبيض الخفيف والمطرز بخيوط الذهب.

أعدتني النساء للزفاف، أخذنني إلى البحر، وغسلنني بمائه حتى يذهب عني التعب، ثم سكبن على جسدي قربًا من الماء العذب حتى يعدن لجلدي الطراوة والفرح، ثم مشطن شعري وجعلنه ضفائر عقدن في أطرافها ليرات من الذهب وأوراق المشموم الأخضر، ونثرن في مفرقه ذرور المسك والعنبر، ووضعن الحناء في كفي وقدمي، حتى احمرت أطرافي وفاحت حركتي بالرائحة، ووضعن المرود في عيني وكحَّلنني بالإثمد، ووضعن مسحوق الداروف على شفتي، فصارت بحمرة ثمرة البيذام، وألبسنني ثيابًا مطرزة بخيوط من الذهب.

في اليوم الأول أنشدت النساء الجلوة، وطرحن عند قدمي القروش والدنانير، ثم غنت الجواري ورقصت النساء، في حوش بيت جدي لثلاث ليالٍ متوالية، وأنا كنت أراقبهن من غرفتي في الطابق العلوي، فأرى تمايلهن وحركة أقدامهن على الأرض، يلمسنها بخفة وكأنهن يخفن عليها من الدوس.

ثم قبل دخول موسى عليَّ بقليل، جاءت خالتي ووضعت في عنقي عقدًا طويلًا، من ثلاثة صفوف من اللؤلؤ، يتوسطها رأس طاووس من الذهب مرصع بالألماس والزمرد، وحلقًا يشبهه، ووضعت خاتمًا كبيرًا من الياقوت في بنصري اليمين، وخمسة أساور من الذهب في كل رسغ، وقالت إن هذه هدية العريس أحضرها كلها من البحرين لي، ثم وبصوت هامس: «طيعيه وبيطيعك»، وخرجت.

كل شيء في صحم يذكرني بأمي، باب بيت جدي الضخم

بنقوشه البارزة وحلقاته الثقيلة من النحاس، الليوان ونخلة الخلاص التي تتوسطه، الدعون ونومة السطح في القيظ، وحتى الوجوه، كل الوجوه هنا فيها شيء من وجه أمي، والبحر.

نعم في مسقط بحر وهنا بحر، لكن بحر مسقط محاصر بقلعتين، أما بحر صحم فحُرٌّ لا حدَّ له إلا السماء.

جئنا إلى القيظ أول مرة في صحم عندما كان عمري حوالي ثماني سنوات وعبد اللطيف ابن عشر، كانت أمي في شوق شديد إلى أهلها الذين لم تزرهم منذ أن عاد أبي من منفاه، فانتهزت رحلة من رحلاته، وطلبت منه أن تزور أهلها في غيابه فلم يعترض.

كنا نقضي صباحنا في النخيل، نرقب حركة القيظ الدؤوبة في المزارع، وفي المساء كنا نذهب إلى الساحل. لكن في أحد الصباحات، دخلت ماسة بنت فريش، الخادمة الصغيرة لجدتي صبيحة، إلى الليوان وهي متقطعة الأنفاس من الركض، وهي تصرخ: «البحر سيَّح جرام». لم أكن أعرف ما هو الجرام، لكننا ذهبنا معها أنا وعبد اللطيف وبقية أطفال البيت، ومشينا وراءها صوب البحر، قاطعين المزارع والسبخات، وعندما وصلنا إلى الساحل وجدنا سمكة كبيرة جدًّا، قد تمددت على الرمل وفاحت رائحتها. خمنت أنها قد تكفي أهل صحم كلهم عدة أيام، لكني سمعت رجلًا يخبر ابنه أن العنبر يخرج من هذه السمكة، فدهشت كيف للعطر الذي تتطيب به أمي أن يخرج من كتلة الزناخة تلك.

لم أكن الزوجة الأولى لموسى، لكني لم أمانع، فأم أولاده «لولوة»

ابنة شريكه البحريني، الشيخ فاضل المطوع، وقد اشترط عليه أن لا تغادر بلدها ولا تتغرب.

بعد مدة تعودت على سكنى بيت جدي في صحم، وصارت خالتي تتركني أدبره، وأنا أعرف أن عينيها ترصداني، فليس أقوى من أمي رحمها الله إلا خالتي، والجميع كان يعرف ذلك.

أحببت صحم، وموسى كان رجلًا طيبًا، نصحني بأن أشتري بنصف مالي مزرعة كبيرة، كان يعمل بها عشرات من العبيد في زراعة الليمون والنخيل، أما النصف الآخر فقد وضعته بين يديه، فنمَّاه بتجارته في البحرين والكويت والبصرة.

كان يحمِّل سفنه بالليمون اليابس والغليون والتمر، ويرحل. وفي كل مرة يعود فيها من البحرين يحضر لي هدية، ربما كانت اعتذارًا على طول الغياب أو على القلب الذي ليس كله لي، لا يهم. وبعد إنجابي توأميَّ فضل ونجمة أهداني قلادة كبيرة من الذهب، شكلت من أسماك صغيرة لها عيون من الياقوت، قال إنها تسمى شبكة الصياد، فشعرت بأني سمكة من تلك الأسماك الصغيرة، وأن زواجي شبكة من الذهب.

ألفت صحم وأهلها، ورغم أن أمي واحدة منهم فإنهم جميعًا كانوا يسمونني المسقطية، في البداية كنت أستفز وأغضب، لكنني بعد حين تعودت ذلك، ورغم أني لم أزر مسقط منذ زفافي، فإن تفاصيل بيتنا ظلت معلقة في قلبي، خطوات أخي وروائح طبخ مريم وكركرة فريدة، وضربة النوبة، وأصوات أجراس السفن وهي

تدخل الميناء، ورائحة رطوبتها، وقيظها الخانق الذي كنا نهرب منه إلى السيب وبركاء، وأحيانًا صحم نفسها.

بعد أن صار عمْر فضل ونجمة ثلاث سنوات طلبتُ من موسى أن أذهب لزيارة أخي، كان الشوق قد استبد بي لرؤية عبد اللطيف وفريدة وحتى مريم اللعينة وما مويزي، التي رجعت بعد أن اطمأنت لمكاني في بيت خالتي.

اشترط موسى أن أنتظره فيرافقني إلى مسقط، قال هي فرصة كي يتكلم مع عبد اللطيف في أحوال التجارة، وربما يحاول إقناعه بفتح وكالة مشتركة لهما في البحرين، وتغيير نوع التجارة، فكما يقول موسى إن تجارة البحرين صارت كبيرة بعد النفط، وإن الحاجة تعدت في سوقها الليمون المجفف والغليون، وإنهم صاروا يستجلبون بضاعة جديدة لم نعرفها في عمان بعد.

كبرت فريدة في غيابي، وصارت صبية حلوة، وفرحت بفضل ونجمة فأخذتهما في حضنها، ولم أعد أراهما إلا عندما تذهب إلى بيت المعلمة أو تنام، أما مريم فلم يزد فيها شيء، وكنت أدهش من أنها ما زالت تضحك ضحكتها المدوية نفسها، رغم أن الحياة لم تتورع عنها، فأخذت منها أجنتها الواحد تلو الآخر، فلم يولد لها طفل بعد فريدة.

عاد موسى بعد أسبوع إلى صحم على أن يعود بعد شهر ليأخذني معه، وقال لي هامسًا وهو يغادرني: تجهزي فهذه المرة سآخذك إلى البحرين، فأنا لم أعد أطيق فراقك أبدًا.

لم أكن أريد الذهاب إلى البحرين، ولا أن أكون في مكان فيه زوجته الأولى، لكن موسى عنيد، وقال لي إنه يريد لأولادنا أن يدخلوا مدارس البحرين، ثم يكملون تعليمهم في بيروت ومصر.

يفكر موسى كثيرًا، وفي الوقت الذي يريد عبد اللطيف أن تنتهي الحرب دون خسائر كبيرة، كان موسى يفكر في الأرباح التي سيجنيها بعد الحرب في البحرين، كنت أظن أخي تاجرًا حذقًا، لكن موسى كان مغامرًا أكثر منه، والتجارة مثل الحياة، مغامرة بلا حد.

خلف بن سويلم

لم أتعلم في مدرسة القرآن غير القرآن، الذي تعلمته وحفظته على يد المعلم حمدان بن سليمان، أما الحساب والأرقام والأوردو فقد تعلمتها في السوق، في مخازن لوماه وعلى يدي حميد بن عبد الله، الذي وجدني ذات يوم جالسًا على دكة أمام قهوة الحاج مياه، وفي يدي رسالة وصلتني من قطر، ولم أجد من يقرؤها لي.

جلس إلى جانبي، وسألني مشيرا إلى الرسالة في يدي، إن كنت أجيد القراءة، فقلت له إني أحفظ القرآن غيبًا، ثم سألته إن كان يعرف القراءة، فمد يده وأخذ الرسالة:

«... وبسبب قلة الأشغال وانعدام المال، فإننا لن نستطيع أن نرسل لكم شيئًا هذه المرة، ولعل الأمر يكون في تحسن، ونجد عملًا ونرسل لكم روبيات تسد ما علينا من دين».

ناولني الرسالة، فطويتها في قبضتي، وأنا أفكر فيما عساي أفعل مع الديَّانة الذين يحومون حول نخيل أبي، وماذا أقول لأمي

التي تنتظر هذه الرسالة منذ أن سافر سعود، أأقول لها رهن النخل وسافر، والآن هو هناك بلا شغل وبلا مال.

كنت جالسًا بمواجهة دكان الحلاو جائعًا، ورائحة السكر والسمن تفوح فتسكرني، فصرت أرى حركة أهل السوق ولا أراها. أما حميد بن عبد الله فكان يجلس إلى يساري، مواجهًا لبيوت التكية التي تتسلق عقبة جبل السعالي، ينظر إليها شاردًا وكأنه يفكر في أمر أو يتأمل في شيء.

طال الصمت بيننا، ثم استدار بغتة، وسألني إن كنت أعمل في الزراعة، فأخبرته أن لنا مزرعة في البستان ورثناها عن أبينا وأني وإخوتي نعمل فيها. لم أخبره عن الديون والرهن، أو عن وعود سعود بالمال الوفير الذي سيجنيه من عمله في قطر.

قام وطلب مني أن أذهب معه، فمشينا حتى السوق الداخلي، ثم طلب مني أن أذهب إلى الفرضة، فأحضر له ثلاثة عتالين أشداء وعربة، وأعود إليه في دكان لوماه.

- لكني ما أشتغل معكم.

- ما تبغى تسترزق؟

بالطبع كنت أريد الرزق وأبحث عنه، فقمت إلى الفرضة، وانتقيت ثلاثة من العتالين كان واحد منهم يجر عربة.

وعندما رجعت إليه، تبعته والعتالين إلى المخازن، فأمرنا بتحميل العربة بشوالات من الرز والبر، وأخذها إلى حارة لوغان، وأن

أسلمها سنجور جمعة، وأقول له هذه صدقة عبد اللطيف لوماه، عن بيبي مريم وابنتها فريدة، ثم أعود مباشرة إليه.

لم أكن أعرف أحدًا ممن ذكرهم، إلا لوماه، فاسمه معروف في كل أنحاء مسقط، ولم أكن أعرف المكان المقصود، لكنَّ العتالين يعرفون مسقط شبرًا شبرًا، ويعرفون أين تقع لوغان بالتأكيد، أما أنا فكنت مجرد مرافق، يتأكد من وصول الشوالات وتسليمها إلى سنجور جمعة.

وجدنا سنجور جمعة في المسجد يقيم صلاة الظهر، فانتظرناه، وتحلَّق حولنا الرجال والنساء والأطفال، وزاد اللغط، وتزاحم الناس، وصاروا يمدون أيديهم لتلمس ما في العربة، فأمرت العتالين بأن يقفوا على جانبي العربة، بينما حميت أنا مؤخرتها.

لم يطل سنجور جمعة في صلاته، فيبدو أن أحدًا قد بلغه بما يحدث في الخارج، وعندما خرج، بلغته رسالة حميد بن عبد الله، وأمرت العتالين بإنزال الأشولة، وهممنا بالمغادرة، فاستوقفني الرجل وسألني، إن كانت مريم وابنتها بخير، فقلت له: لا أعرف، وغادرته، وأصوات الرجال والنساء والأطفال تتعالى خلفي.

عدت إلى حميد بن عبد الله، فنقد العتالين نصيبهم من البيسات، وناولني روبيتين، وقال لي: تبدو نبيهًا وأمينًا، فعد إليَّ في الغد حتى نتأكد من ذلك.

وافقته بهزة من رأسي، ثم مضيت إلى التنور، فاشتريت خبزًا

وحلوى من عند الحلاو بطرف السوق، ووصلت البيت قبيل المغرب، وأنا أتأبط ربطة الخبز، وأحمل في يدي ماعون الحلوى.

منذ مدة لم تفرح أمي، ولم أرها تأكل بشهية كما أكلت الحلوى وهي تلفها بالخبز، فقد أخبرتها بأن سعود بخير، أرسل رسالة، وأرفق بها القليل من المال، وأنه وعد بإرسال مبلغ أكبر مع شخص مؤتمن قارب رجوعه من قطر، ليساعد في فك الرهن، وأنه يسلم عليها كثير السلام، وأنه طلب مني أن أشتري لها الحلوى وخبز التنور حتى تأكل وتستعيد صحتها وتفرح.

لم أخبر أمي عن حميد بن عبد الله ولا عن دكان لوماه، لكنني عدت في اليوم التالي إليه، وبدأ حميد بن عبد الله بتعليمي الأرقام والحساب، أما الأوردو فتعلمتها من التجار البانيان، الذين كان يبعثني إليهم لتوصيل المال أو جلب البضاعة أحيانًا.

وهكذا تعلمت منه كل ما أعرف، لكنه لم يخبرني بشيء عن نيته في ترك العمل والسفر، بل جاءني في أحد الأيام، وسلمني الدفتر والمفاتيح وغادر، ظننته ذاهبًا في أمر ما، وسيعود مع نهاية اليوم، لكنه لم يعد. بحثت عنه في كل مسقط، وبقيت أبحث عنه، حتى بلغني عبد اللطيف لوماه بأنه وجد اسمه مقيدًا في سجل المسافرين إلى البصرة.

انتظر عبد اللطيف عودة حميد قرابة سنة، وصار يشرف على الدكان والدفاتر والمعاملات بنفسه، وعندما يئس من عودة حميد عيَّن صالح بن أحمد من حارة ميابين، كماسك للدفاتر، وصرت أنا عقيد الأنفار.

كانت قد مرت سنتان على بدء الحرب، صحيح أنه لم يصب مسقط شيء من القنابل طوال هذه المدة، لكنها كانت تزداد غلاء، والناس يزدادون فقرًا، والمؤونة في شح دائم.

وعندما أخذ عبد اللطيف من الإنجليز مقاولة الأنفار، ذهبت إلى سداب والبستان وحرامل وبر الجصة وقنتب، كان الناس في أمس الحاجة إلى العمل، لذا لم تنقضِ بضعة أيام حتى اكتمل العدد، فأبحرنا إلى مصيرة، وقضينا في البحر يومين كاملين، رافقتنا فيها الحيتان وأسراب الدخس، وحاذينا الشاطئ، ولمحنا من البعيد قريات وقلهات وصور ورأس الحد.

وصلنا مصيرة، فوجدناها شاطئًا أجرد كأن لا حياة فيها، وفي البداية لم نشاهد إلا الغيالم الكبيرة، تخرج من البحر، وتزحف على الشاطئ.

تعلمت الـ«يس سير، نو سير»، وأنا أسوق الأنفار ليعملوا تحت الشمس الحارقة وإمرة الضباط، الذين يتحدثون من طرف أنوفهم، ويأمرون فيقع الخوف في القلب من نظرتهم، دون أن يرفعوا أصواتهم بالزعيق.

كان لكل واحد منهم شارة ورتبة، ولكل واحد منا إزار وخرقة على رأسه، وفي يديه قفيره وفأسه. نستيقظ قبل بزوغ الشمس، ونبدأ في العمل مباشرة بعد فناجين القهوة وأكل ما تيسر من التمر، ونستمر في قلع أشجار السمر ونباتات الرمرام والثمام والنزاع وشجرة الضب، ثم نقوم بنقل الصخور وتسوية الأرض.

كنا نعمل حتى قرابة الضحى، وعندها نأخذ استراحة لمدة قصيرة، ثم نعود إلى العمل حتى صلاة الظهر، فنصلي ونتناول غداءنا من تمر وقهوة على عجل، ثم نعود ثانية إلى العمل حتى قرب أذان المغرب، عندها يقوم صالح بن علي وخميس بن سعيد وناهم بن صبيح بتحضير مراجل الرز ومرق السمك الذي يجلبه لنا الصيادون من القرية عند البحر.

نعم، كنت عقيد الأنفار، لكني كنت مثلهم أحمل الفأس والقفير، وأغيث من يسقط منهم بالماء، وأساعد أحيانًا في تحضير وجبة الغداء، والأهم من ذلك كنت أهدئ من الغضب الذي يولده التعب المستمر والبعد عن الأهل والجوع للنساء.

كنا جميعًا كالسجناء في سيح شاسع، مراقبين بجنود ورشاشات لا نراها، لكننا كنا نعرف بوجودها ونحسُّه، فكنا نؤدي أعمالنا ولا نحاول الخروج من رقعة الأرض المحددة لسكننا.

لم تكن هناك أيام راحة، والعمل يمتد من بزوغ الشمس حتى غروبها، لولا أن كنا نؤمر فنذهب إلى البحر للاغتسال مرتين في الأسبوع عند غروب الشمس، فنستحم مستترين بالظلمة، نذيب تراكم التعب في تدافع الموج وملح البحر، هكذا كنا نستعيد شيئًا من النشاط، ثم نعود إلى خيامنا، فنأكل وجبتنا الوحيدة، وننام كالقتلى حتى ما قبل الشروق.

تنصب الشمس المتعامدة على رؤوسنا طوال الوقت، وبسرعة كانت أجسادنا تفرغ من الماء ولا تجد كفايتها من التعويض، فالماء

الحلو قليل، وكان الكثير منا يسقطون، فنغيثهم بما توفر من الماء، ونسحبهم إلى الظل حتى يستعيدوا وعيهم، ثم يعودون إلى السيح والشمس.

جهزت المدرجات، فبدأت الطيارات ذات الجناحين تحلق فوقنا، وكانت هناك طيارات كبيرة كأنها قوارب تهبط في البحر وتقترب من الساحل، وتحمل في بطونها مؤونة ورجالًا كثيرين، كانوا بحاجة إلى السكن، فعملنا في إعداد الثكنات لهم من المواد التي جلبوها معهم عن طريق البوارج والطائرات.

كان السيح مشاعًا للذئاب والحصينيات والأفاعي، ولكن لم يكن يخيفنا شيء مثل هدير الطائرات، التي كانت تحلق قريبة من رؤوسنا أحيانًا، حتى أننا كنا نظن أن الإنجليز سيستخدموننا كأهداف يتمرنون عليها، وعندما يحدث ذلك كنا نركض في المكان غير مدركين الاتجاهات، بينما كان الضباط الإنجليز يضحكون من خوفنا ويتسلون به.

ومع أننا كنا في وسط قاعدة جوية، فإننا لم نكن نعرف شيئًا من أخبار الحرب، إلا ما يتسقطه خالد محمود من داخل الميز، وهو يخدم الضباط.

خالد كان شابًا فطنًا نبيهًا، لقط الإنجليزية بسرعة، وصار يفهمها ويتحدثها مثلهم، وعندما كانوا يريدون أن يبلغوني بأمر يصعب على عربيتهم إيصاله، يستخدمونه كوسيط بيننا.

اختار الإنجليز خالد وشابين آخرين في مثل سنه للمساعدة

في ميز الضباط، كان الشابان يعملان مساعدين للطباخ جوشن في مطبخ القاعدة، بينما كان خالد يقدم الطعام إلى الضباط، وينظف خلفهم في الميز ويرتب غرفهم.

لكنهم جميعًا كانوا يعودون ليلًا إلى خيامنا، ويحدثوننا عما يرونه داخل الثكنات، عن طعام الإنجليز الذي يتذوقونه خلسة، ثم يبصقونه عندما يتذكرون أنه ربما كان مطبوخًا بشحم الخنزير، وعن المشروبات الحرام التي يتجنبونها، ورغم أنه أحيانًا كانت تفوح منهم روائح غريبة، إلا أننا كنا نصدقهم، وعن صور النساء التي يتبادلها الضباط في بطاقات صغيرة.

خالد كان حييًا، يميل إلى السكوت، وكان يبتسم لحكايات زميليه، لكنه لم يكن يؤكد أو ينفي حكاية صور النساء حتى عندما سألناه، كونه الأقرب إلى الضباط، وبالتأكيد رأى شيئًا منها.

لكنه أحيانًا كان يحضر لي معه أصابع سوداء، يقول إن الإنجليز يتناولونها مع القهوة بعد العشاء، وإنهم يعطونه منها أحيانًا فقط ليشاهدوا تقلب وجهه عندما يتذوقها فيضحكون.

خالد لم يكن يحبها، لكني جربتها، فوجدتها حلوة لكنها لا تشبه التمر في شيء، فحلاوتها مختلطة بمرارة، وتذوب متى ما وضعت في داخل الفم، لم تكن سيئة، لكنها لا تشبع.

سألته عن اسمها، فقال: «شاكليت».

أحبه الإنجليز، ربما لأنه كان نبيهًا وعرف كيف يقول ما هو

أكثر من «يس سير ونو سير»، وربما لأنه كان مطيعًا، ولا يعصي لهم أمرًا، وكان بالإضافة إلى ذلك يقارب لونهم في البياض، جميل الطلعة، فارع الطول، وله عينان نديتان وكأنهما مبتلتان بالدموع طوال الوقت.

كلنا كنا نحب خالد، حتى وإن قسا بعض الأنفار عليه وهم يراقبونه يغتسل في البحر، فلا يتورعون عن إطلاق أسماء النساء عليه، عندما ينظرون إلى بياض جسده، الذي لم تلوحه الشمس مثل أجسادهم في السيح، وكان هو يفهم ما يريدون قوله لكنه يتجاهله.

قضينا حوالي سنتين في مصيرة، وعندما عدنا إلى مسقط، وجدنا صالح بن أحمد عند الفرضة، وأخذ يعدُّ الأنفار معي، ثم قيدهم في دفتره اسمًا اسمًا، وسلمهم أجرتهم.

كنا مئة ناقص تسعة، ستة أخذتهم الشمس، واثنان غرقا، وواحد أخذه الإنجليز.

فخالد لم يعد معنا، فقد وجده أحد الأنفار ملقًى على وجهه عند البحر، وعندما كنا نغسله ونعده للدفن، وجدنا الرصاصة التي ثقبته من الظهر إلى البطن، مع ذلك لم يقل أحد شيئًا، ومات خالد في الكلام كما مات وحيدًا على الرمل، دون أن يفهم أحد ما حدث له، ودون أن يقول الإنجليز لي شيئًا أكثر من أنه سرق مسدس الضابط الذي كان كثيرًا ما يستدعيه لخدمته في المساء، وأردى نفسه به.

أخبرت صالح بن أحمد عن خالد، أخبرته أنه لم يقتل نفسه كما أبرق لهم الإنجليز، أخبرته بالرصاصة التي جاءته من الخلف،

أخبرته أنه كان منا إلا أنه لم يكن يشبهنا، كان هادئًا، حييًّا وعفيفًا، ولكنه لم يكن يحب الشاكليت الذي يحبه الإنجليز.

عبد اللطيف لوماه

حدث كل ما توقعته، فلم يكد يمر وقت على إعلان الحرب بين إنجلترا وألمانيا، حتى أقام الإنجليز قاعدة لهم في مصيرة، مثل تلك التي في رأس الحد وصلالة، وتعاقدوا معي على ذلك، فبعثت مئة نفر في مركب إلى هناك، لتمهيد الأرض وتسوية المدارج لطياراتهم وإقامة الثكنات، وما زالوا حتى اللحظة هناك يحفرون ويبنون، ويخدمون الإنجليز والأمريكان الذين انضموا إليهم.

يرسل إليَّ خلف بن سويلم برقية من مصيرة في اليوم الأول من كل شهر، ليطمئنني على العمل والأنفار هناك، فأعرف من أسقطته الشمس ومن أكله البحر.

كنت أبعث صالح بن أحمد إلى أهالي الأنفار بأجرتهم، وما تيسر من المؤونة أحيانًا، حتى دخلت اليابان في الحرب، وصارت تهاجم كل سفينة للإنجليز، ثم صارت لا تفرق بين سفن الإنجليز وسفن التجار العرب، فأغرقت سفنًا صورية كثيرة، وهكذا توقفت التجارة، وامتنع توريد البضائع من الهند، وشحَّت المؤونة، واضطررنا كتجار

إلى رفع أسعار السكر والبر والرز والتمر والليمون، ومع الوقت لم أجد بدًّا من كف يدي عن مساعدة الناس.

لجأت الحكومة إلى التجار لشراء كل ما في مخازنهم من مؤن فتوزعها على الناس، فلم أعتذر عن ذلك، بل بعت لهم كل ما في مخازني، من سكر وبُر ورز، بعد أن ضمنت تموين بيتي لسنة قادمة على الأقل، وأمرت مريم بالاقتصاد قدر الإمكان.

لكن كل ذلك لم يُجدِ، فالحرب طالت أيامها وتمددت في العالم كله، والغواصات اليابانية والألمانية استمرت في إغلاق البحار، فما عاد يصلنا من الهند شيء، فاضطر الناس إلى أكل الشعير الذي توزعه الحكومة، بعد أن نفد البر من مخازنها.

والحمد لله أني زوَّجت فردوس قبل بدء الحرب، فغادرت البيت مع خادماتها، ولم يبقَ في البيت غيري أنا ومريم وفريدة وما مويزي وفرشوه وعساكر وسخي، فقلَّت الأفواه التي نطعمها، فأشهرت مريم ارتياحها، إلا أنها كانت تهمس لي أحيانًا أنها تفتقد فردوس، وأن البيت صار خاليًا، لكن ضحكاتها عادت إلى التكاثر في الليوان والغرف وممرات البيت، وحركتها صارت أكثر خفة، ولم يعد يغشاها التعب في فراشنا.

لكن فريدة بقيت متعكرة المزاج لمدة، وفي الأيام الأولى لمغادرة عمتها، قل أكلها وكثر نومها، فقالت أمها: هذا كسل الفراق، فسلتها عنه بتربية الحمام على السطح، فعادت مع الأيام لنشاطها، وتحسنت شهيتها.

ومع أني كنت قد ملأت مخازن البيت بالرز والبر والسكر، فإننا اضطررنا كما اضطر بقية أهل مسقط إلى التقتير حتى على أنفسنا، والتعود على بساطة المأكل، فحال الناس في مسقط وكل عمان ضعيف، وزادته الحرب ضعفًا، حتى أن صالح بن أحمد ذكر لي أنه سمع أن بعض اللصوص صاروا يذبحون الحمير ويبيعون لحمها للناس، فخاف أصحاب الحمير عليها، فصاروا ينامون معها، أو يدخلونها إلى خيامهم فتنام معهم.

يمر زمن الحرب بطيئًا على مسقط ومرفئها، بالضبط مثلما يمر علي يومي الطويل، الذي لا أعرف ما أنا فاعل فيه، وقد فرغت مخازني وتعطلت أنا عن العمل، فصرت إن لم أكن ألاعب فريدة في البيت وأعلمها الأرقام، أقضي أغلب وقتي أمشي على الساحل، أو جالسًا على إحدى الصخرتين أسفل القلعة، أراقب صفحة الماء التي لم تعد تعكس أشرعة المراكب الكبيرة أو مداخن السفن إلا نادرًا وعلى مدد متباعدة، وأحيانًا أجدني من فرط الملل أو ربما الشوق والوحدة، أذهب إلى هناك لمحادثة حميد وكأنه يجلس إلى جانبي، فأخبره عن أحوال مسقط والحرب، والأنفار وأحوال البيت، حتى أني أخبرته عن فردوس، عن زواجها، وعن شرائي كل ممتلكاتها في مسقط وتسويتي لميراثها، قلت له إني شعرت بالراحة عندما فعلت ذلك، راحة لم أشعر بشيء يشبهها من قبل، وكأني أفلتُّ من قيد ثقيل أو وكأن جبال مسقط كانت على كتفي فرُفعت «كانت فردوس حملًا ثقيلًا يا حميد، حتى أنت على صبرك الذي أعرفه ما كنت لتقدر عليه».

بعد صلاة العصر أذهب إلى قهوة الشمخي، فأجلس مع الجالسين على الدكك، ينهشهم الفراغ والملل، وهم يتسقطون الأخبار من إذاعات كراتشي وجاكرتا وبومبي. كانت الأخبار من شدة تواترها تفقدنا سير الحرب، فما عدنا نعرف أين تقدم الحلفاء وأين تراجع المحور، ومن فاز هنا ومن خسر معركة هناك، وصار الناس سريعي الغضب، وبإمكان خبر بسيط لمعركة في آخر العالم أن يثيرهم، أما أنا فكنت ألتزم الصمت أغلب الوقت، وأبتسم وأنا أراقب تبدل المواقف وتراجع الذين كانوا مع هتلر في البداية، وصاروا بعد أن تعطلت تجارتهم وقرصهم الجوع يلعنونه.

لا أظن أن همي كان أكبر من همومهم، فكلنا في تردي الحال سواء، وربما كنت أملك أكثر مما يملكون بقليل، وأخزن في بيتي مونة أكثر مما يظنها أحد، لكني في الأيام الأخيرة صرت أحس بقلق لم أعرف مصدره ولا معناه، وصرت كلما جلست لأعلم فريدة الأرقام، أو تتبع السور التي تحفظها مع المعلمة، أشعر بضيق في صدري، فأختصر الدروس معها وألجأ إلى النوم.

ثم وصلتني رسالة من موسى حسن، بأن فردوس ستأتي لتزورنا، وستبقى معنا لأشهر، فشككت في الأمر، فهذا ليس وقت زيارة، إلا أن يكون قد حدث خلافٌ بينهم، وهذه الزيارة ما هي إلا عذر لعودتها إلى مسقط، فبلغت مريم وطلبت منها أن تستعد لاستقبالها ومن معها، فابتسمت مريم وقالت: «الحمد لله، جرادة وبيتقاسموها سبعة». ثم تحولت ابتسامتها إلى ضحكة من ضحكاتها الهائلة، فأيقظت العالم النائم من حولنا.

قلت له: ابقَ بعيدًا عن تدبير أمور البيت، أنا بنت فقر وأعرف الجوع ومعناه، وتعلمت في بيت لوماه كيف أدبر أمر مطبخي. لكنه منذ أن قلَّت أعماله في السوق، صار إما يمشي لساعات على الساحل، وإما يتجول في البيت ويتدخل في أعمال النساء، حتى صار يقيس علينا مقادير الرز والقمح.

كان يوصيني بالحرص والتقتير، ويقول: هذا زمن الجوع العظيم، لكنه ما إن رأى الدود الذي غزا صفائح المالح، وأكله من داخله غير مكترث بالملح الذي فيه، حتى قال لي ارميه، وخرج من المطبخ متقززًا غاضبًا.

زمت فرشوه شفتيها، ورفعت عساكر حاجبيها، لكنني نهرتهما، وأمرت عساكر بأن تأخذ السمك بدوده إلى البحر فتغسله منه، وتعيده فنطبخ منه ما تيسر.

كان السمك كثيرًا في بحر مسقط، لكن الصيادين خشوا الخروج إلى البحر أيام الحرب فغلا ثمنه وشح، واللحم لم يعد متوفرًا، ولم يبقَ

لنا غير أن نأكل الحمام الذي تربيه فريدة على السطح، لكنها كانت ستقلب البيت إلى مناحة لا تنتهي، فمنعت عنه فرشوه حتى حين.

تكبر فريدة أمام عيني ويزداد جمالها، وخلال سنة أو اثنتين ستكتمل امرأة، وستترك حماماتها ولهوها، وإن كنت أشك في أنها ستترك عنادها الذي ورثته عن أبيها.

أخذت منه إصراره على الشيء عندما يريد، وأخذت مني خفة الحركة والضحك، ورغم أن ضحكاتي كانت تخيفها وهي صغيرة، فتندس في حجر أبيها، إلا أنها ما إن عرفت الكلام حتى عرفت الضحك، أما الأشياء الأخرى فيعلم الله من أين جمعتها.

عبد اللطيف يرى العالم كله في عيني فريدة، وله الحق في ذلك، فقد عجزت عن الاحتفاظ بطفل في رحمي بعدها، رغم أني حملت خمس مرات، لكن أيًا من حملي لم يكمل ثلاثة أشهر، وحاولت شريفة بنت حسن كل ما في وسعها كي تثبت رحمي في مكانه بالخبانة والتنكيس، إلا أنه كان متقلبًا لا يرضى بحال واحد ولا يحتفظ ببذرة.

أسرعت فريدة في المشي وتأخرت في الكلام، حتى خشيت أنها لن تنطق، لكنها نطقت بعد أن أتمت الثلاث بشهرين، كان كلامها سليمًا وواضحًا، وكأنها تدربت عليه طويلًا في رأسها، وأسمعته نفسها، وضنت به علينا.

حدث ذلك عندما ذهب عبد اللطيف لتأدية واجب العزاء في صديق له من تجار مطرح، فتأخر هناك ثلاثة أيام، وفي اليوم

الثالث، جاءتني أول الصباح وأنا أخبز، فجلست على الأرض إلى جانبي، وعندما قدمت إليها خبزة محلاة بالسمن والسكر، رفضتها، وسألتني بغضب: أبوي وين؟

لم أرد عليها، لأني شككت في سمعي، ثم شككت في فهمي، نعم، لم أفهم أنها نطقت، بعد شهور طويلة من محاولاتنا أنا وأبيها وعمتها والخادمات كي نخرج من فمها حرفًا واحدًا، فنردد حروفًا متقطعة «قولي: با با با»، «قولي: ما ما ما»، وهي تنظر إلينا وفي عينيها خيال ضحكة، أو تتركنا وتقوم لتركض في أنحاء الحوش، وتتسلق الدرج، وتلعب بالحصى، دون أن ترد علينا، وكان ذلك يغيظني، نعم كان يغيظني جدًّا، فعلى كل بنت أن تعرف الكلام، فتدافع به عن نفسها إن لم تستطع يداها فعل ذلك، وأتذكر أني ركضت وراءها مرة، وعضضتها في ساعدها بِغِل، فبكت، وذهبت إلى أبيها عند دخوله البيت لتشكوني، وتريه أثر العضة، فوبخني، وحلفني بالله أن لا أعود إلى ذلك.

أعادت السؤال بإصرار وغضب، وكأنها ورثت عن عمتها ذلك: ماه.. أبوي وين؟

لكني كنت أصد عنها، وأكمل فرد العجين، مدعية أني لم أسمعها، وأنا أشعر بقلبي يطشطش فرحًا مثل الماء على الحديدة الساخنة.

سألتني ثلاث مرات، ثم قامت وهزتني بكتفي وهي تنظر إليَّ بغضب، ثم هددتني، بأنها ستخبر أباها.

فانفجر قلبي بالضحك، الضحكة التي كانت تروعها وهي صغيرة، فوقفت مبهوتة في مكانها، لكنها لم تهرب، وأنا لم أستطع لملمة ضحكتي، فجذبتها من ذراعيها وضممتها بقوة، فأحاطت رقبتي بذراعيها، ودست رأسها في صدري، ثم صارت تكركر، وارتفعت ضحكتها، وامتزجت بضحكتي فتعالت، ووقفت فرشوه قرب الباب تراقبنا وهي مستندة إلى ملاسها تقلب رأسها.

وما إن هدأت ضحكتنا، حتى قبلت رأسها ووجنتيها، وأخبرتها وأنا أمسح دموعها أن أباها سيعود من مطرح في المساء، فجلست تنتظره عند الباب حتى عاد بعد صلاة العصر، وقد أحضر لها القشاط والحلوى، وأظن أن ذلك الانتظار كان أطول مدة قضتها فريدة في مكان واحد.

عرفت فريدة الكلام، وحفظت سور القرآن، وعلمها أبوها خط الأرقام والحساب، لكنها عندما طلبت منه أن يعلمها كتابة الحروف رفض، قال لها البنات ما يكتبن، طلبت منه ذلك مرة بعد مرة، حتى أنها خاصمته أسبوعًا، وكان هو صبورًا، يحاول مراضاتها بكل الطرق، لكنه رفض أن يعلمها الكتابة، وعندما نفد صبري سألته: لماذا؟ قال البنات ما يكتبن، ولم يزد.

وعندما طلبت مني تعليمها أخبرتها بأني لا أعرف لا الكتابة ولا القراءة، فنظرت إليَّ بغضب وغادرتني، لتسأل الخادمات اللاتي هززن رؤوسهن بالنفي وقلة الحيلة، وعندما جاءت عمتها لزيارتنا سألتها أن تعلمها الكتابة، فقالت لها مثل قول عبد اللطيف، البنات

ما يكتبن، وعندما سألتها: لماذا، قالت: «عيب يا فريدة، البنات ما يكتبن، فضيحة، باكر بيخطن الرسائل للرجال».

كنت أسمع ما يدور بينهما، ودهشت من إجابة فردوس، فأنا نفسي لم أكن أعرف ذلك، أقصد أن النساء يكاتبن الرجال، ولم أعرف لماذا قد يفعلن ذلك، مع ذلك تمنيت لو عرفت أنا أيضًا الكتابة، ربما كنت كتبت رسالة إلى أبي، لكن أبي لم يكن يعرف القراءة، لكن ربما وجد من يقرأ له، ثم كان سيجعله يكتب ردًّا، وكنت سأقرأ ما كتبه وأرد عليه، وهكذا سيطمئن قلبي على أبي، لكن إلى أين كنت سأرسل الرسالة، من يعرف أين أبي فيدلني عليه؟!

تلك الليلة طلبت من عبد اللطيف أن يعلم فريدة الكتابة وألححت عليه، لكنه ظل على عناده وهو يردد: «البنات ما يكتبن»، ثم أفهمني أن للبنات القراءة فقط، حتى يقرأن القرآن فيعرفن ربهن ويتعلمن خشيته، أما الكتابة فهي لتدوين معاملات التجار وكتابة الصكوك والرسائل، وهذا ما لا تحتاجه النساء.

كلمت فردوس في الأمر.

- إنتِ قليلة عقل يا مريم، بنتك لو عرفت الكتابة وعشقت وخطت رسالة لعشيقها وواعدته وهربت معاه، يا فضيحتنا! تعرفي أيش يعني فضيحة؟

- فريدة تحت عيني، وما تسوي كذا.

- تحت عينك لين تعرف الكتابة، بعدين بيشلها الهوا.

- لازم تكتب رسايل؟ ما شي ينكتب غير عن الرسايل؟

- مثل ويش بتكتب؟ نهج البلاغة ولا الكافي؟ عقلي يا مريم وعقلي بنتك، البنات يتعلمن القرآن بس، وعبد اللطيف معلمنها الحساب، ما أعرف ويش بتسوي بالحساب؟ يمكن يحسبها بتصير تاجرة مثله؟!

أنا لا أعرف نهج البلاغة ولا الكافي، ولا أعرف ما كتب فيهما، فسكت وأسكت فريدة، وعدت إلى مطبخي، أحاول أن أدبر مرق اليوم، وأضيف عليه قليلًا، وأتحايل في مقدار الماء، كي تكفي الأفواه الجديدة التي جاءت لزيارتنا في غير وقت الزيارة.

دلشاد

التهم الغول الشيخ وابنه، وانتبهت أنا من ضحكي، تغير الوقت، ولم أعد أنا دلشاد الذي كان.

أرجع بذاكرتي إلى ذلك اليوم، فأرى عسكريًّا هنديًّا في بنطلون قصير يقف أمامي، يأمرني بالوقوف ويسألني عمَّن أكون، قلت له: اسمي دلشاد وأنا من مسقط، والغول ابتلع شيخي وابنه، لكنه لم يفهمني رغم أني تكلمت بالأوردو التي تعلمتها في سوق مسقط، وساقني أمامه إلى المخفر، وهناك قلبتني الأيادي والأقدام بعنف شديد، أردت أن أصرخ في وجه الأحذية والقبعات، لكن ضحكتي سبقت صراخي، فاهتاجوا أكثر، وازدادت قوة ضرباتهم، ثم فجأة توقفوا وقذفوني إلى الشارع مرة أخرى، دون أن يسألني أحد عن شيء، أو حتى يوجهوا سبابة اتهام إلى وجهي.وكأن كل حاجتهم مني كانت التدرب على الركل والصفع.

جررت جسدي ومشيت في أزقة بومبي وحاراتها، كانت عيون الناس تلتفت إلى دشداشتي الممزقة، ومشيتي العرجاء، لم تكن

العيون تطيل النظر، بل تستقر قليلًا ثم تذوب، تتجاوز ضعفي وبؤسي بسرعة، وتذهب إلى مكان آخر.

كنت أريد أن أتوقف، أن أفتح فمي، أن أسألهم عن شيء ما، لكنني لم أعد أتذكر ما هو، ففي المخفر، علقوني طويلًا من عقبي، وأظن أن كل أسئلتي والكلام الذي في رأسي اندلق على الأرض وغاب فيها.

مشيت طويلًا، وعيون الناس من كثرتها صارت عينًا واحدة، شعرت أني أمشي وحيدًا على صفحة بحر من الأجساد بلا عيون ولا أفواه، حتى اصطدمت بقامة رجل، فانتبهت، نظرت إلى وجهه فوجدت عينين وفمًا، ثم نظرت من حولي، فوجدتني أقف وسط سوق عظيم، كان الناس يسيرون فيه، هنودًا وإنجليزًا وعربًا.

رأيت رجلًا يلبس دشداشة، وعلى رأسه يضع غترة وعقالًا مقصبًا، وفي يده عصا غليظة، عرفت أنه ليس عمانيًّا، فهان مصابي قليلًا، أو ربما تعاظم، ما عدت أفرق بين القليل والكثير، وما عدت أعرف ما أحس به أو أشعر.

نظرت إلى وجهه لثوانٍ، ثم سقطت عند قدميه.

لا أعرف متى فتحت عيني أو أين، كانت الأرض تحتي خشنة وباردة ورطبة، وإلى أنفي تسللت روائح كثيرة.

مرت دقائق حتى تبينت الضوء الذي يأتي من بعيد، نظرت حولي، فوجدت جدرانًا بيضاء تحيط بي، وتحتي أرض داكنة.

بقيت ممددًا، قلت: ربما هذا قبري، أعجبني ذلك، قلت: إن لم أكن ميتًا بعد فربما يجب أن أموت، لعلي لو ادعيت الموت، أغريت ملك الموت فيأتي ليأخذني، قبل أن تعود تلك الأقدام الغليظة فترفسني مرة أخرى.

من وسط الروائح الخاملة في رأسي، جاءت رائحة تشبه رائحة شيخي، عطره الذي يضعه كل صباح، والذي يتركه خلفه وهو يمشي، فأمر فيه وكأني أدخل في الفرح، فرح واثق كنت أمر فيه كل يوم وما دريت أنه منقضٍ.

فرحت بالرائحة، قلت: نجوا من الغول، ولقيني حمد وعاد شيخي لينقذني.

تحركت بكل وجعي، وقمت محاولًا الجلوس، وبعد أن جلست تلاشت الرائحة، وهبت روائح أخرى متداخلة، حلوة، خفيفة، جافة، رطبة وثقيلة، لكن أيًّا منها لم تكن رائحة شيخي.

حبوت خطوة أو خطوتين، ثم قمت وبدأت بالمشي، ساحبًا عظامي التي كنت أسمع صراخها في أذني، ووصلت عند الباب الموارب قليلًا، اتكأت على جانبه، فوجدت رجلين يجلسان متقابلين، بينهما ميزان يضعان عليه قطعًا صغيرة من الخشب، وقناني كبيرة بها سوائل ملونة ولزجة، يسكبانها في قمع صغير ويوزعانها على قناني أصغر.

انتبه أحد الرجلين إلى وقفتي، فطلب من صبيه أن يحضر لي كرسيًّا وأمرني بالجلوس.

كان يتكلم الهندية، لكن وجهه مثل وجوه أولاد العرب ويلبس مثلهم، سحبت قدمي وجلست، سألني عن اسمي بالأوردو، فوجدتني أرد عليه بالعربية، اسمي فرحان بن غصيب ود السيح.

ابتسم الرجل، فالتمع سن ذهب في فمه، ثم سألني بالأوردو مرة أخرى من أين، فقلت له من مسقط، فاتسعت ابتسامته، ولم أعرف لماذا يسألني هذا الرجل، لكنني أردت أن أجيبه، فإن كان في المسألة ضرب فليكن، عسى أن تنتهي حياتي وآلامي.

كنت متعبًا، وشعرت أني سأسقط من الكرسي، لكن الرجل أمر صبيَّه، فأحضر كأس ماء وقربه من فمي. شعرت في تلك اللحظة بالعطش مُلحًّا وقويًّا وصارخًا في كل جسدي، وكأن جسدي كان بحاجة إلى رؤية الماء حتى ينتبه لعطشه، أو وكأن العطش لم يخلق قبل تلك اللحظة. استعدت شيئًا من قوتي، ثم أحضر لي الصبي كوبًا من الشاي، فارتعشت يدي وهي تمتد إليه، أخذتني رائحة الشاي إلى السفينة، إلى قمرة النوخذة، إلى شيخي البصير، إلى عبوسه ويده التي تحط كحمامة على كتف حمد.

قربت الكوب من شفتي، نفخت فيه، لكن الرشفة الأولى أحرقتني فتمهلت، وعندما انتهيت سألني الرجل ولكن بالعربية هذه المرة: «اسمك فرحان بن غصيب ود السيح وأنت من مسقط؟ ويش جابك بومبي وأيش صار لك؟».

قبل أن أجيب، أحضر الصبي صينية فيها خبز وعدس، ووضعها أمامي، فعرفت أني جائع.

بين اللقمة والأخرى كنت أخبره عن النوخذة والشيخ والغول وعن مسقط وعيسى، لكني لم أخبره عن أمي ولا نسبي ولا مريم ولا عن بيت لوماه.

حتى أنا أعرف أن هناك أشياء لا تقال، الخزي واحد منها.

أمر لي الشيخ بفراش في المخزن وطعام، وجعل صبيه يدهنني صبحًا ومساء بخلطات صفراء حارقة، عجلت في شفائي، وعندما استطعت المشي دون أوجاع كثيرة، طلبني، وخيرني بين أن أبقى في بومبي أو أن يجد لي مركبًا يعيدني إلى مسقط.

لا حاجة لي في العودة إلى مسقط، فأنا لم أتركها لأعود، حتى لو ركلتني كل الأحذية، لماذا أعود إلى مسقط؟ حتى أقف أمام بيت لوماه أطلب مضغة قلبي ولا يرد علي أحد؟ كي أقف في لوغان وتنهال عليَّ شتائم العجائز ولوم الرجال؟ سلمت بنتك لبيت لوماه... أتعرف ماذا يحدث للبنات في بيوت الأغراب.. البيوت الكبيرة.. بعت بنتك يا دلشاد؟ سأقول سنجور جمعة... قاتل الله سنجور جمعة وحكاياته ونصائحه.

- لا... ما أريد أرجع لمسقط... أريد أجلس هنا...أشتغل معك.

- معي؟ ما عندي لك شغل.

لم ألح في الطلب، شكرته ثم حملت جسدي ومزق ثيابي وخرجت، لا أعرف إلى أين أذهب، وماذا سيلقاني في الدرب، وأي أحذية ستتبارى على رفسي.

كانت الشمس والرطوبة ورائحة العفن ممتزجة برائحة طعام يقلى وبروائح أخرى حادة وكثيرة، تنبهت إلى أني لم أسأل الرجل عن اسمه، فالتفت إلى باب الدكان، فكرت أن أعود فأسأله، لكنني كنت متعبًا... أكثر تعبًا من أن أهتم.

مشيت قليلًا وأنا غائب الذهن، وعندما تنبهت وجدت نفسي وسط شارع عريض، على جانبيه دكاكين وبسط طعام ورجال ونساء وعتالون وثيران بقرون عظيمة تجر عربات محملة بسلال البضائع ولفات الثياب.

قلبت بصري في المكان، ثم شعرت بالخواء يملأ بطني ورأسي، أغمضت عيني لحظة، وعندما استيقظت وجدت نفسي في مخزن الدكان مرة أخرى.

لم أرَ وجه التاجر، لكنني رأيت حذاءه وطرف ثوبه الأبيض ورشات من طين الشارع تبقعه، وسمعت صوته وهو يأمر صبيه: «عطيه ماي وخله ينام وبعدين عطيه ياكل».

سقطت في النوم ثانية، وعندما استيقظت لم أرَ شيئًا سوى الظلام، فقلت: ظلام في ظلام، فأغمضت عيني، لكن الجوع أيقظ معدتي، ورائحة الطعام تسللت إلى منخري، فتبعتها أصابعي حتى وجدت صحن العدس، وتلمست الخبز.

لست بحاجة إلى عيني ولا إلى الضوء لآكل، يدي والصحون وفمي كل حاجتي الآن... في وسط اللقمات غصصت وأنا أسأل نفسي هل كنت بحاجة إلى عيني فعلًا كي أحمي مريم؟

عبد اللطيف لوماه

تمشي فريدة مبتعدة عني، فيريد قلبي أن يلحق بها، لكنه يعجز إلا عن مراقبتها من بعيد، وحدها في قلبي، لا أخ ولا أخت يزاحمانها فيه، وفريدة في عيني ليس مثلها أحد ولن يكون.

أسميتها على أمي، إلا أنها لم تأخذ منها شيئًا إلا الاسم، أما وجهها وأصابع يديها وشعرها وصوتها وحركتها، فخليط لا أعرف كيف أقتفي أثره، بعضه لنا وبعضه لأمها، وبعضه غريب لا نعرف كيف نصل إليه، فمريم لا تتذكر أنفًا أخنس في عائلتها، وأنا لا أتذكر في أهلي أصابع تشبه في رقتها ترف أصابعها.

من مكاني أرى ناصر وهو يلحق بها ويناولها شيئًا ما، فتبتسم له وتنحني عساكر، ثم تتركه وتمشي، ولا تلتفت.

من مكاني أستطيع تبين تنامي الألفة بينهما، فينقبض قلبي قليلًا، متجنبًا التفكير فيها امرأة وعروسًا، هكذا أريدها أن تبقى أبد الدهر، طفلة، لا تمسها الحياة ولا يمسها رجل، فيكدر خاطرها لحظة.

تختفي في دروب السوق، ويبقى ناصر واقفًا في مكانه يراقبها، يلوح لي طيف حميد فجأة، فيحل محل ناصر، بيدي أحاول هش الصورة، غافلًا عن أنها مجرد خيال، يعنُّ ويمضي.

آمر صالح بن أحمد بإغلاق الدكان، وأن نتحرك بالأنفار بسرعة إلى السفينة، لتفريغ حمولة «داه بو»، سفينة ترفع علم النيروج، وصلت من المنامة بعد الفجر بقليل.

- إنته ارتاح في الدكان، أنا بتكفل بالأنفار والتنزيل كما قبل.

- لا، بسير معاك، على الأقل بتسلى وأشوف الكابتن، أكيد عنده أخبار جديدة عن الحرب وهجوم الإيطاليين على البحرين.

سفينة كبيرة، جاءت من البصرة قاصدة كراتشي، لكن قبطانها أدولف بهر، كما هو مكتوب أمامي في البرقية، يقول إنها تحمل خمس مئة طن من القار وبضائع أخرى، وأنه بحاجة إلى خدماتنا مقابل خمسين روبية، لا بأس، فما أكثر الأنفار الذين يبحثون عن عمل في الفرضة، ويقنعون بما يحصلون عليه، وإن أخذ العمل اليوم بطوله.

ركبت في القارب الأول، فصعدت السفينة، وسلمت على القبطان، وسلمته البرقية وعرفته بنفسي، فتنحى جانبًا هو وطاقمه كي يفسحوا للأنفار، ليصعدوا وينقلوا البضائع إلى القوارب.

تركت صالح بن أحمد لتوجيه الأنفار، وانعزلت أنا مع الكابتن، الذي كان يتكلم قليلًا من الأوردو والعربية، وأنا أتكلم مع الأوردو قليلًا من الإنجليزية، فوجدنا طريقًا وسطًا في الكلام.

القبطان شاب، مربوع القامة بلحية حمراء، لم يبدُ أنه يحب الكلام كثيرًا، فبقينا نراقب في صمت حركة القوارب من الفرضة إلى السفينة، ثم من السفينة محملة بالبضاعة وصفائح القار إلى الفرضة، حيث ينزلونها هناك.

- كيف كانت رحلتكم؟

- كانت رحلة مريحة وآمنة في الخليج من البصرة إلى البحرين، اليابانيون يهاجمون السفن في البحار المفتوحة والمحيطات.

- سمعت أنهم يهاجمون حتى السفن العربية الصغيرة.

- بالطبع، فالهدف هو إيقاف أي نشاط تجاري، لكن مسقط آمنة، أليست كذلك؟ بهذه الحواجز الصخرية التي تحيط بالمرفأ.

- هذه هي الدويرة، انظر، نعم هناك عند قلعة الجلالي، هذه الفتحة الوحيدة التي تتخلل هذا الحاجز الصخري، نسميها: الدويرة، لكنها ضيقة جدًّا لا تسمح بعبور السفن، وعمقها قليل، أنا بنفسي اعتدت وأنا شاب صغير، السباحة والغوص هناك.

- جميل أن يجد المرء مكانًا آمنًا في هذا العالم المضطرب المجنون، هنا أشعر وكأني دخلت الجنة، لولا هذا الحر والرطوبة اللعينة.

- يقال إن الحرب قتلت الملايين في أوروبا.

- الوضع هناك فظيع جدًّا، الألمان والروس والإنجليز والإيطاليون والآن الأمريكان واليابانيون. يموت الجنود في المعارك، ويموت الناس في بيوتهم بالجوع والأمراض، لقد جُنَّ العالم.

كانت أصوات البحارة والعتالين ترتفع، وتختلط بأصوات ارتطام القوارب وصخب النوارس، فدعاني القبطان إلى شرب فنجان شاي في قمرته.

قدم إليَّ الشاي السيلاني المركز وقطعًا من البسكويت، وجلسنا نتحدث عن السياسة والمال والبحار، وكان حديث المرافئ هو ما أحتاج إليه في تلك اللحظة، ليبعدني عن بطء الحياة في مسقط، سألته عن كراتشي وعن ميناء أم قصر في البصرة، سألته عن بومبي وحركة الاستقلال وغاندي، والمنامة والكويت والبترول، وعن مهاجمة الإيطاليين مصانع تكرير البترول في عوالي والظهران، فلم يخبرني بشيء أكثر من الذي نسمعه في راديو الشمخي.

سألته عن المرافئ التي زارها في الشرق والغرب، فلقد مر على آخر سفر لي قرابة عشرة أعوام، لزمت فيها مسقط ومريم وبيتي، لكن شوقي إلى البلاد البعيدة لم يخفت، وظل البحر يناديني، وإن اكتفيت منه بالنظر والمشي الكثير على الساحل.

كنت أؤجل سفري دائمًا، ممنيًا نفسي بسفر قادم إلى الهند أو البصرة، لكن نظرة من عيني مريم، كانت تعيدني إلى مسقط، ثم حدثت الحرب، فعلق العالم بين الصواريخ والقنابل، وعلقنا في

مسقط بين الركود والجوع وقلة الحيلة. شربنا الشاي وخرجنا إلى السطح مرة ثانية، وقفت أراقب الأنفار، ثم راحت عيني تسافر مع النوارس، وتجوب بيوت مسقط المطلة على البحر: بيت العلم، الفرضة، مقر الوكيل البريطاني، بيوت ولجات.

بحثت بعيني عن سطح بيتنا، بيت لوماه، حيث ولدت، وولد أبي من قبلي، هناك حيث بكيت وضحكت وكبرت وتشاقيت وضربت، هناك حيث مريم وفريدة وفردوس.

ابتسمت عندما خطرت لي ضحكة مريم، وأردت أن ألوح لهن، تمامًا كما رأيت الإنجليز يفعلون عندما يغادرون المرافئ، يلوحون مودعين بعضهم بعضًا، لكني كنت أعرف أنهن لن يرينني، فكففت يدي، وأبقيتها مسدلة بلا حراك إلى جانبي.

شكرت القبطان على ضيافته، وبحثت بعيني عن صالح بن أحمد، لأطمئن على حركة العمل، لكني ما كدت أخطو عشر خطوات تجاه مؤخرة السفينة، حتى سمعته يصيح بي: «انظر هناك...».

كانت أصابعه تشير إلى فتحة الدويرة التي ارتفع ماء المد فيها، فصارت شبه دائرة، نصفها الأسفل مغمور بالماء، والأعلى سماء.

ثم تبينت انعكاس الشمس، في مرآة ارتفعت عن جسم أسود، يخرج كالحوت ببطء من بطن البحر، أعمتني التماعة الشمس فأغمضت عيني.

فريدة

ترافقني عساكر كل يوم إلى بيت المعلمة في حلة العور، وفي كل يوم أمرُّ على أبي، فأجده جالسًا على دكة دكانه مع عمي صالح بن أحمد، أمامهما دفتر مفتوح ووراءهما دكان، يكسو الغبار رفوفه الخالية.

وعندما أقترب منهما، يقوم أبي لي، ويأخذني بيدي ويجلسني إلى جانبه، ويفتح أمامي الدفتر، ويأخذني إلى تواريخ قديمة، حيث تصطف الحروف والأرقام في خانات البيع والشراء.

خط أبي جميل، تمنيت دائمًا لو أني أعرف كيف أكتب مثله، فأرى الحبر يسيل مع حروفي على الورق، أدوِّن كل شيء، ولا يفوتني شيء مما أعرف أو يخطر في بالي، لكنهم لا يعلموني عند المعلمة سوى قراءة القرآن، وأبي لا يعلمني شيئًا إلا الأرقام والحساب.

يأمر أبي عساكر بالانتباه لي، ويذكرني بأنه سيسمع مني ما حفظته من السور عندما أعود، فأقبل يمينه وأودعه، ويقبل أعلى رأسي، أما عيناي فتتعلقان بفراغ الدكان وهما تبحثان عن ناصر.

أذهب متباطئة، وأكمل طريقي إلى بيت المعلمة، حيث تتركني عساكر، وتذهب لزيارة معارفها في بيوت حارة العور، ثم تعود لتصحبني إلى البيت.

هذا تقريبًا ما يحدث كل يوم، لكن في هذا الصباح لحق بي ناصر، لا أعرف من أين خرج، إلا أنه فجأة وقف أمامي، وقال لي إنه وجد شيئًا يخصني.

كان ناصر يكبرني ربما بسنة أو سنتين، وعندما كنت صغيرة، أقصد قبل أن أصبح طويلة هكذا وتضيق ملابسي عليَّ في بعض الأماكن، وتجبرني أمي على لبس الوقاية على رأسي، كنت أترصد مواعيد حضوره مع أبيه إلى البيت، فعندما لا يذهب أبي إلى الدكان في الصباح، يأتي عمي صالح لمراجعة الدفاتر مع أبي في المجلس، وكان يفعل ذلك بعد صلاة العصر، وكان غالبًا ما يأتي مع ناصر.

كنت أطل برأسي من فرجة باب المجلس، وما إن يراني، حتى أغمز له، فيتسلل ويتبعني إلى مطبخ فرشوه، حيث نمشي على أطراف أصابعنا إلى المخزن، ونأخذ حفنة من الحَب، ونصعد راكضين إلى السطح، فننثر الحب للحمامات التي تحوم فوق رؤوسنا، فتحط على السطح وأكتافنا، وأحيانًا تأتي النوارس أيضًا.

أنا أحب الحمام، لكني أخاف النوارس جدًّا، خاصة عندما تحلق قريبة من رأسي، وكأنها تريد أن تنقر عيني بمناقيرها المعقوفة، أقول لناصر إنها طيور بعيون شريرة ونوايا خبيثة، فكان يرفع كتفيه ويضحك مني، ولا يقول شيئًا إلا «إنها طيور».

وقف ناصر أمامي، ضامًّا كفه، وما إن فتحه حتى وجدت فيه خلخالًا من خلاخيلي، الذي انسلَّ من مكانه دون أن أدري، شكرته، وعندما انشغلت عساكر بتلبيسي الخلخال وتثبيته حول كاحلي سألني عن الحمامات، قلت له إنها ما زالت تزور السطح، رغم أن فرشوه صارت تغلق المخزن بقفل كبير، بعد أن أعلنت أن بطون الحمام ليست أولى من بطون أهل البيت، والزمن زمن جوع. ثم جرتني عساكر اللئيمة بيدي، فتركته قبل أن أنهي كلامي.

جلست مع البنات في حوش بيت المعلمة، وفي حضن كل واحدة منا مصحفها، كان صوت المعلمة فيه خشونة غريبة، ربما كانت مصابة بالزكام، فصار صوتها يشبه صوت ناصر، لا أعرف متى صار صوته خشنًا هكذا، ومتى بدأ ظل أسود يغطي أعلى شفتيه؟

صارت المعلمة تكحُّ، فقامت وردة بنت سلام، وسكبت لها الماء من الجحلة المعلقة في واحد من أعمدة الدعن، وناولتها الكوب ويداها ترتجفان، كلنا كنا نخاف المعلمة الزون، ووردة أكثرنا، فهي رغم تملقها الدائم للمعلمة، كانت أكثر واحدة تلشط بعصاها الطويلة.

هدأت كحة المعلمة قليلًا بعد أن تجرعت الماء، لكنها عادت تكح بقوة بعد قليل، فطلبت منا الذهاب إلى بيوتنا والعودة بعد يومين.

ذهبت البنات إلى بيوتهن، وأنا لم أعرف أين ذهبت عساكر،

وقفت حائرة أمام الباب قليلًا، ثم خرجت من السكة ليتلقاني الدرب، أخذت جهة اليسار فصرت أمام باب المثاعيب، مشيت فرأيت قلعة الميراني فوق رأسي، وأمامي الرصيف حيث تتوقف الزوارق وتباع حمولات الحطب، ورأيت البحارة ينزلون حمولات من المانجو، وينادون عليها: «لمبا قريات، لمبا الحيل، لمبا الحيل».

الصباح كان في أوله، لكن رائحة المانجو المختلطة برائحة البحر كانت تفوح في الميناء، وصفرتها الشهية تلوح لي من البعيد وتناديني، أردت أن أقترب أكثر، لكني وجدت رجالًا وأطفالًا يقفون بالقرب منهم، والكل ينظر إلى السلال ولا أحد يشتري.

أردت أن أخرج البيسات من جيب دشداشتي وشراء خمس ثمرات، لي ولأبي وأمي وعمتي وما مويزي، أما عساكر فسأعاقبها ولن أشتري لها شيئًا. لكني لم أجرؤ، فلقد كان هناك أطفال يتدلى الجوع من وجوههم، وآباؤهم يقفون هناك غير قادرين إلا على كش الذباب بأيد ثقيلة خاملة.

استدرت، وأكملت مشيي في الدرب الذي يتجه إلى مسجد الخور وبعدها الباب الكبير، أعرف أني لو مشيت محاذية السور من الداخل، سأمر على المأتم ثم سيأتي مسجد الزواوي، ثم السوق الداخلي، وبعده يأتي باب ولجات، وبعد أن أدخل من باب ولجات سأنحرف يمينًا فأجد بيتنا.

لكني لم أكن قد وصلت قريبًا من الباب الكبير، عندما سمعت صوت عساكر وركضها ولهاثها خلفي: «بيبيتي، بيبيتي فريدة، وين

سايرة؟ وقفي، بتقتليني». وقفت فوجدتها تلهث، وقد انزاحت وقايتها من على رأسها، وكادت أن تسقط.

وقفت أنتظرها، قبضت على يدي وجرتني وراءها: «أكيد بتذبحني بيبي فردوس لو ضيعتِ الدرب أو رجعتِ البيت وحدش».

كانت تجرني برفق من رسغي، وهي لا تكف عن الكلام والترجي، كان صوتها قريبًا من البكاء، لا أفهم لماذا كل هذا، فأنا أعرف الطريق إلى البيت، وأستطيع الوصول إليه، لكني أظن أن عساكر جُنَّت.

في البيت وجدت عمتي تجلس في الليوان، تملس ثيابها التي أنزلتها الطاووس من على السطح، عمتي تحب أن تفعل ذلك بنفسها، أما أنا فأحب أن أراقبها وهي تفرد ثيابها، ثم تضغط عليها براحة يدها، ثم تطويها من كل جانب، وتضغط ثانية، عليها وهي تملس التجاعيد، ثم تعود فتطويها ثانية وتعيد المسح عليها بكفيها، حتى تتحول الدشداشة الكبيرة إلى قطعة صغيرة، ملساء بلا تجاعيد.

سألتها عن فضل ونجمة، فقالت وهي منهمكة في شغل يديها، إنهما ما زالا نائمين في الصفة، ثم ودون أن ترفع عينيها إليَّ:

- بعدها الشمس ما ارتفعت وإنتو خلصتوا الدرس؟

- المعلمة رخصتنا.. مريضة.

- أحسن... رحتي عند أبوش؟

- هيه.. وعطاني بيسات، وشفت ناصر.

- من ناصر؟ آه... ناصر بن عمش صالح؟ الفرخ؟

- عموه.. ناصر تو كبير، أكبر مني، ما فرخ، لقى خلخالي وجابه لي.

- من وين جابه؟

- ما أعرف، يمكن شافه طايح في السوق.

- وهو يمشي وراش؟

- ما أعرف عموه...

لم أكمل جملتي عندما سمعنا صوتًا هائلًا، ثم ارتجت الأرض تحتنا، وبعد قليل أمطرت السماء ماء أسود، سال على أرضية الليوان قاتمًا لزجًا.

تراكضت الخادمات من داخل الغرف، وفرشوه تركت ملاسها خلفها، وخرجت من المطبخ بعينين زائغتين، وأمي التي كانت مع ما مويزي في غرفتها ركضت صوبي، فوجدتني مندسة في حضن عمتي.

«خير يا ربي.. خير»، «هذي ما نقعة مدفع الميراني»، «ولا نقعة بوارج الإنجليز»، «تو بيجي عبد اللطيف وبيخبرنا ويش صاير».

صعدت الدرج ركضًا إلى السطح، وركضت أمي وعمتي وبقية النساء ورائي.

من سطح البيت رأينا الدخان يتصاعد من البحر، قالت أمي: «وصلت الحرب مسقط...»، صرخت عمتي «ويلي يا عبد

اللطيف...». سمعت من الصفة تعالي بكاء فضل ونجمة، أما أنا فنزلت الدرج بسرعة أقفز، وخرجت ركضًا من البيت دون نعال، وأمي تصرخ بعساكر وسخي أن يلحقا بي، ركضت صوب الدكان، فوجدته مغلقًا، فركضت مع الراكضين صوب البحر، وعساكر وسخي يحاولان اللحاق بي، عندما وصلنا عند بيت الوكيل البريطاني وجدنا جنود حراسته يركضون أمامنا صوب البحر، فركضنا وراءهم.

وقفنا عند الفرضة، فوجدنا سفينة كبيرة تحترق في وسط الماء، ثم انشقت من وسطها وبدأت في الغرق، رأيت القوارب الصغيرة من حولها، والناس يقذفون بأنفسهم من على سطحها.

بحثت عن أبي على الرصيف لكني لم أجده، هو هنا في مكان ما، أعرف ذلك، لكني لا أراه.

ناصر بن صالح

مشيت وراءهما حتى الرصيف، وهناك تركاني، عمي عبد اللطيف ركب زورقًا مع نفرين آخرين، وأبي ذهب إلى حيث يتجمع العتالون.

تجاهلاني كعادتهما، فوقفت وسط الأصوات الضاجة بالبلوشية والأوردية والعربية، أراقب البحر الذي كان هادئًا، ولا يكاد يتحرك لولا حركة القوارب فيه. الهواء ميت، والرطوبة تكاد تقبض على أنفاسي.

تراجعت ووقفت في الظل، أراقب الزورق يقترب من السفينة، أرفع عيني، فأرى علم السفينة ذابلًا وملتفًّا كخلقة على عصا.

قبل أن نغادر الدكان أمر عبد اللطيف أبي وهو يقرأ من ورقة بين يديه: «سجل... اسم السفينة داو بوه... علمها النيروج... حمولتها خمسين طن من القار، نحتاج تقريبًا ٣٠ حمالي».

كان أبي يساوم عقيد العتالين، على السعر والوقت والعدد،

ثم صار صخبهم يزداد وهم يتجمعون ويتقدمونه إلى الزوارق، حسبتهم وهم يركبون الزوارق الستة، كانوا ثلاثين رجلًا وأبي.

البحر أمامي خالٍ، والسماء صافية لا أرى فيها إلا النوارس، النوارس التي لا تحبها فريدة، تحوم ثم تحط على الصواري.

من مكاني رأيت مدخل الدويرة، بين الجلالي وجزيرة مسقط، مفتوح الأفق، ورأيت القوارب تفرد أشرعتها، لكن الهواء لم يسعفها، فظلت تمضي ببطء على الماء.

وصلت الزوارق تباعًا إلى جانب السفينة، فصعد العتالون بسلم من الحبال إلى سطحها، وبدءوا في إنزال الحمولة من صفائح المعدن، كانت المراكب تمتلئ بسرعة، وكان بعضها يكاد يهم بالرجوع.

كنت أرى كل شيء من مكاني، وأراقب كل ما يدور على سطح البحر، وكان سطح السفينة يمور بالحركة، والقوارب تتأرجح، والرجال يتناولون ويناولون الصفائح، وتمنيت لو كنت معهم، لو أن أبي يثق بي، فيأخذني معه ولو لمرة واحدة.

أنا لم أعد صغيرًا، وقد تخرجت في الصف الرابع في السعيدية قبل أشهر، وبإمكاني أن أقرأ وأكتب، وأنا جيد في الحساب كما يقول، فلماذا يمنعني وعمي عبد اللطيف من العمل معهما؟ ولا يكلفاني إلا بالسهل من أعمال الدكان؟ حتى أنهما أغلقا الدكان ولم يتركاني فيه حتى يعودا. هل يخافان عليَّ وعلى المخازن من جوع الناس؟ هل يخاف أبي عليَّ من الماء؟

من مكاني كنت أراقب كل شيء، هدوء البحر وصفاء زرقة السماء، لمعان حمرة أعلام الجلالي والميراني، بياض المنارة على طرف جزيرة مسقط. كل شيء كان هادئًا وثابتًا، ما عدا تأرجح القوارب الخفيف على صفحة البحر.

ثم خفتت أصوات الحمالين وعمال الفرضة فجأة، أو هكذا بدا لي، ولم أعرف من أين جاء الصوت، ذلك الصوت العظيم، الذي أذهل الجميع عن أنفسهم، فأسقطوا ما كانوا يحملونه في أيديهم، ووقفوا في أماكنهم متيبسين وهم ينظرون إلى مصدر الصوت.

وقفت مشدوهًا للحظات وأنا منشغل بالدخان المتصاعد، لوهلة لم أفكر في أبي ولا في عبد اللطيف، كنت مأخوذًا بالصوت وبالدخان وبالسؤال، من أين سقطت القنبلة، ولا طيارة تحوم؟ وكيف أصيبت السفينة وانشقت؟

ثم بدأت السماء بالتساقط علينا، قطعًا سوداء تلطخ ثيابنا، وتسيل على الحصى والرمل وسطوح البيوت والرصيف.

تعالى الصريخ: «هجوم.. الألمان... الجيرمن... الحرب». صار الناس يركضون بحثًا عن ملجأ، وأعينهم على السماء بحثًا عن الطائرات، لكن السماء كانت خالية، فصاروا يتراكضون ويندفعون إلى القوارب المتبقية عند الفرضة، يريدون إنقاذ من كان على السفينة قبل أن يهلكوا.

حشرت نفسي في أحد القوارب، ولكن عندما وصلنا، وجدنا النيران قد أتت على جزء كبير من السفينة، والجزء الآخر غرق،

وصار أصحاب المراكب وفرقة من حرس الوكالة، يرفعون العتالين وبحارة السفينة من البحر، ويأخذونهم إلى اليابسة، ثم يعودون ليحملوا الجثث.

كنت متشبثًا بألواح القارب، وأنا أبحث بعيني في جثث الرجال ووجوههم، علِّي أجد أبي وعمي عبد اللطيف، لكني لم أجدهما. قفزت في البحر، فصرت بين صراخ الرجال والجثث، أقلبها لأتفحص الوجوه.

عندما لم أجد لهما أثرًا بين الجثث، سبحت حول حطام السفينة، فوجدت جثة طافية، قلبتها فوجدت أبي، كانت عيناه مغمضتين، وعلى وجهه تكشيرة أعرفها عندما يغضب، ظننته حيًّا، وأنه لا يلبث أن يستفيق متى ما أخرجته من هنا، فسحبته إلى أحد القوارب، لكن هزة من رأس الرجل الذي انتشله قالت إنه ميت، تجاهلته وتلفت حولي، فوجدت الرجال في قارب آخر يرفعون جثة عبد اللطيف لوماه.

سبحت إلى الشاطئ، محاذيًا الزورقين اللذين عادا بجثتيهما، سبحت وأنا مذهول، كنت مترددًا، لا أعرف صدق عيني من كذب قلبي.

وصلت الشاطئ، وساعدني سخي والرجال في إنزال أبي وعمي عبد اللطيف وتسجيتهما على الرصيف.

رأيت فريدة تقف هناك، تراقبنا وعساكر تسندها، وقفت أمامها، فوجدت عينيها وقد تحولتا بحرًا، أردت أن أقول لها شيئًا،

لكن الكلام كان يسيل إلى الداخل مع الريق الذي أبلعه، وهي التفتت إلى حيث يرقد أبوها، فهرولت نحوه، وانكبت على وجهه تقبله، وتصيح به أن يستيقظ.

بعد قليل وصلت نساء بيت لوماه راكضات مولولات، تتقدمهن مريم، وما إن رأين عبد اللطيف مسجًّى على الرمل حتى تعالى صياحهن، وسقطت الجواري على الرمل يحثثنه على رؤوسهن، بينما اقتربت مريم من زوجها، ووضعت رأسه في حضنها تقبله وتنوح: «يا أبوي.. وحبابي... وسيدي.. يا عبد اللطيف... قوم يا عبد اللطيف... قوم... ما تزها بك الرقدة يو حبابي.. قوم».

أسمع نواح النساء وأنا جالس وحدي عند جثة أبي، أرفع يده إلى فمي وأقبلها، فيختلط ماء البحر بماء عيني، الذي صار يسيل ولا أقدر على إيقافه.

مامويزي

لم تكن مريم قد خرجت من عدتها بعد، عندما بدأت دفاتر البانيان تفتح، وتكشف عمَّا كان على سيدي رحمه الله من دين.

لم نعرف لماذا استدان عبد اللطيف كل تلك الأموال، وهو الحريص على أن لا يكون لأحد يد عليه، لا في الخير ولا في الشر، شككنا في الأمر، وحسبنا أن تزويرًا طال الورق، لكن ناصر بن صالح قرأ الأوراق، وأثبت توقيع عبداللطيف وختمه عليها، قال إنها كانت كلها تقريبًا في شهر واحد، وبحسب التاريخ المدون في الصكوك والدفاتر، يبدو أنه استدان المال قبل بداية الحرب بمدة قصيرة، فهل اشترى بالمال حصة فردوس من الميراث؟ أم أنه احتاجها لشراء كميات كبيرة من البضاعة، ليخزنها ويبيعها في وقت الحرب، فيربح منها أضعافًا مضاعفة، فيغطي فائدة البانيان؟ لكن من يعلم كيف يفكر التجار وكيف هي حيل التجارة؟

لكن لماذا استعجل تسوية ميراث فردوس؟ هل كان ذلك شرط زوجها؟ أم رغبتها؟ أم رغبة عبد اللطيف نفسه؟ بدا لي أنه

ربما كان يريدها أن تذهب بكل ما لها، وأن لا يكون لها في مسقط شيء، فتستقر في صحم ولا تغريها العودة إلى مسقط إلا ضيفة. هل كان يقصد أن يريح مريم بذلك؟ أم أنه كان يقصد أن يكون لأخته مال تتصرف فيه، فلا تشعر بضعف أو قلة حيلة في صحم، فيطيب لها السكن كسيدة في بيتها الجديد متكئة على اسم عائلتها وميراثها؟

لا أعرف، ولا توجد أي أوراق تبين كيف صرف عبد اللطيف أمواله، كل الذي أعرفه أن ما فعله جرَّ على مريم المصائب والأحزان، فالبانيان استولوا على كل شيء، وحتى بيت لوماه صار ملكًا لهم، لكن ترجمانداس أمهلنا حتى انتهاء عدتها ثم الخروج منه.

في البداية أعانت فردوس مريم في تدبير أمور البيت، لكن منذ أن جاء زوجها، صارت فردوس كثيرة الشكوى، ثم بدأت في الصراخ في وجه مريم وفريدة لأقل الأسباب، وعادت لتعامل مريم وكأنها الفقيرة التي جاءت إلى بيت لوماه قبل أكثر من عشر سنوات، فاعتزلتها مريم ولازمت غرفتها.

لكنها دخلت عليها غرفتها ذات يوم، وهي تزبد وترغي من شدة الغضب، حتى أن الخادمات اجتمعن عند الباب، وسمعتها تشتمها أمام ابنتها، وتأمرها بترك البيت: «سيدك مات وإنتِ ما عاد لك مكان في بيت لوماه، أما فريدة فبنتنا ونحن أحق بها، بتروح معاي صحم، وتتربى هناك عندي وعند أهلي وأهل عبد اللطيف.

وإنتِ رجعي للحارة اللي جيتي منها، يمكن تلقي أبوك ينتظرك».
ولم أسمع مريم ترد عليها.

لا أعرف كيف عادت القسوة إلى قلبها، وأنا التي ظننت أنها قبلت بمريم بعد ولادة فريدة. نعم، ظننت أن فريدة قربت المسافات وألغت المقامات، وأن مريم صارت من بيت لوماه، بعد أن اختلط الدم، وسال الحليب وامتزج.

لكن يبدو أنها ما كانت إلا أوهامًا وظنونًا، أو ربما قدرت فردوس على ادعاء اللطف، وما كان لطفها إلا حيلة أرادت بها استرضاء أخيها، وعبد اللطيف رحل، رحل الذي كانت تخافه وتخشاه، وما عاد هنا ليحمي مريم.

سامح الله بيبي فريدة، فقد أفسدتها بدلالها، وسايرتها في جنونها وغضبها لسنوات، وكذلك فعل سيدي عبد اللطيف، لسنوات احتمل جنونها، واحتملناه معه، وعندما ظننا أن الزواج والإنجاب شفياها من حقدها وغضبها وعشقها لنفسها، ها هي تعود لتلبس نفس الثوب القديم، الثوب الذي يناسبها أكثر، لكنها بالغت في جنونها وطمعها هذه المرة.

أعان الله مريم عليها، فقد اقترب موعد خروجها من عدتها، وعادت الجدران لتهمس بضحكاتها وابنتها، وصارت فردوس تلصق أذنيها بباب مريم لتتنصت على ما يدور بين البنت وأمها، لكن هذا الضحك هو أكثر ما أشعل غيظ فردوس، خاصة عندما سمعت امتزاج ضحك البنت وأمها، فكانت فردوس تظن، في

جنونها وارتيابها، أنهما تسخران منها، فيتقد غضبها أكثر، فتقتحم عليهما حجرتهما وهي تسب وتلعن، أما أنا فكنت عندما أسمع ضحكتهما في الليل لا أميزها عن العويل.

خرجت مريم من عدتها ومن البيت في الوقت نفسه، فقد ذهبت فجر اليوم الذي يكمل فيه عبد اللطيف أربعة أشهر وعشرة أيام، لتفقدها، وتجهيزها للخروج من عدتها، ولكني لم أجدهما.

اختفت مريم وفريدة من البيت دون أن تأخذا شيئًا إلا ربما القليل من الثياب، أما الصيغة التي كانت قد خلعتها يوم وفاة عبد اللطيف، فقد وجدتها في صرة موضوعة على فراشها.

كادت فردوس تجنُّ عندما عرفت باختفاء فريدة مع أمها، وأمرت سخي والجواري بتفتيش كل شبر في البيت، ثم الخروج للبحث عنهما في دروب مسقط وحاراتها، وبالتحديد في حارات الوادي الصغير والوسطي، ولكنهم لم يجدوا لهما أثرًا. اختفتا وكأن جبال مسقط ابتلعتهما، أو كأنهما تصاعدتا إلى السماء.

كيف لإنسان أن يختفي في مسقط أو منها؟ ومسقط كلها كأنها لقمة صغيرة في كف طفل، كل درب وكل حارة وكل إنسان فيها يعرف الآخر، هل يعقل أنهما خرجتا من مسقط عن طريق البحر؟ لكنها الحرب، والسفن لا تغادر من مسقط ولا تأتي إليها إلا نادرًا، ولن تستطيع مريم وابنتها الخروج دون وثيقة سفر، أين ذهبت مريم وفريدة؟ كيف اختفتا؟ لا أحد يعرف.

في البداية رفضت فردوس مغادرة بيت لوماه حتى تجدهما،

لكن ترجمانداس لم يمهلها، جاء ووضع يده على البيت، فرحلت إلى صحم، ورحلنا كلنا معها، ولم أسمع بعدها خبرًا عن مريم وابنتها.

حارة الشمال

مريم دلشاد

رحمك الله وغفر لك يا عبد اللطيف، تركتني بلا حول ولا قوة أمام البانيان، فصاروا يفتحون دفاترهم ويلتهمون العقار والدكاكين والبضاعة ولا يشبعون.

خلفتني من ورائك وحيدة أمام جبروت فردوس، الذي عاد أكثر قسوة ولؤمًا، وكأن السنوات الطيبة التي مرت بيننا لم تكن، كأننا لم نأكل من الصحن نفسه، ونربي البنت نفسها، ونبكي على الرجل نفسه.

لكن أنت، أنت... كيف غامرت بنا وبكل ما تملك؟

تراك كنت تعوِّل على سمعتك وشركائك في بومبي والمنامة؟ أوَ لم تنتبه إلى أن الحرب ستعطل تجارتك؟ وأنت الذي كنت تعيد عليَّ كل ما تسمعه في راديو قهوة الشمخي وتقول: ستكون سنين صعبة، وأن التجارة إلى كساد.

ألم تستشر أحدًا من أصدقائك؟ ألم يحذرك عملاؤك الإنجليز؟

ألم يحدثك قلبك بأنك ربما لن تكون هنا لتحمينا، من شرور هذه الدنيا وناسها؟

نعم كنت أعرفك تاجرًا حذقًا، لكنك كنت تقول دائمًا: إن التاجر الشاطر لا يغامر بكل ما يملك دفعة واحدة، فكيف فعلتها إذًا، ورهنت كل شيء للبانيان، وتركتنا بلا أي شيء، معرضين للمهانة والمذلة والنبذ؟ تركتنا يا عبد اللطيف، تركتنا أنا وفريدة، كما تركني أبي من قبل، بلا بيت ولا سقف ولا جدار يظللنا، فجاء البانيان وأخذوا كل شيء، ولم يبقَ لي غير قروش مهري التي خبأتها وصيغتي.

«صيغتك خزينة ما زينة يا مريم». أتراك وأنت تحذرني، كنت تعرف أن هذا سيكون مصيري؟ وإن كنت تعرف، فلمَ لم تحتط إذًا؟ لمَ تركتنا هكذا يتناهبنا الناس دون رحمة؟

أتعرف أن فردوس طردتني من البيت، وهددتني بأخذ فريدة إلى صحم، لتعيش على أخلاق البيوت العالية، كما تقول؟ أتحسب أختك، تلك الحمقاء الحقود، أن الأولاد ينسبون إلى المال لا إلى أمهاتهم؟

ترى هل هذا ما يحدثه الغنى والشبع في النفوس؟ أن يتحول خيط الدم إلى صرة مال، ويصير الحليب مجرد قروش تعد؟

هل هذا كل ما خبرته أختك؟ هل كان أبوها وأمها وحتى أنت يا عبد اللطيف، مجرد أرباح وعوائد تجارة؟ هل الأهل والعائلة والبيت، مجرد مكان يسكن، وجوارٍ يخدمن وخدم يأتمرون؟

هل هذا كل ما يعنيه أن يكون للواحد منا بيت وأهل؟ كان عندي بيت صغير في الحارة، خيمة لا تكاد تتسع لي ولأبي، لكن الحارة كلها كانت بيتي، وكل أهلها كانوا أهلي، فهل يرى الفقراء شيئًا لا يراه الأغنياء أم هو العكس؟ فيستكين الفقراء لفقرهم، ويتكئون على بعضهم بعضًا ولا يطلبون ما هو أكثر، بينما يطلب من ذاق المال أكثر، فيتحول جوعه نهمًا.

هل الناس من حولكم مجرد خدام لرغباتكم، لا بشر تحسون بهم ويحسون بكم؟ ألا تغزل مع طول العشرة بينكم وبينهم، خيوط من الرحمة؟

وإن كان هذا حال الجميع عند فردوس، فهل نجمة وفضل جزء من هذا المتاع الذي تتباهى به وتركن إليه، مجرد أشياء تُمتَلك، فتكتمل بها صورة مقامها وغناها وأصلها وفصلها؟

أوَ ليست هي أمًّا مثلي؟ ألا يوجعها لحمها إن أطبقت دَفَّة باب على طرف إصبع من أصابع أيٍّ منهما؟ أوَ لا يهوي قلبها لو أن أحدهما تعثر فسقط؟

أم أنها أم لأن لديها المال، وأنا لأني بنت فقر وجوع كما تعايرني، لا قلب لي ولا أستحق ابنتي؟

لكن، ربما كان عندها حق، ألم يتخلَّ دلشاد عني، وتركني لبيت لوماه من عظم فقره وقلة حيلته؟ لكن أبي التجأ إليكم كي لا أجوع ولا أشقى، كي يضمن ذلك، لا لكي أذلَّ وأُهان وأُعاقب. لكني أعرف أيضًا، أن تسليمه لي قيَّدني كعبدة مملوكة، وأعرف أن

فردوس تحسبني في عداد عبيدها، وأن فريدة حق لها ولبيت لوماه، لا لي.

أنا أعرف ذلك، وإن لم يتلفظ به أحد. عرفته من حبسة بيت العقاب في غيابك، ثم من زواجك بي دون الرجوع إليَّ. كنت أعرف يا عبد اللطيف، وقبلت، قبلت أن أتزوجك خوفًا والتجاء، وربما طمعًا. لكني أحببتك أيضًا، وتولهت بك، وتمنيت لو جعلت حياتي فداك. وأعرف أن فريدة، رغم أنها رأتك مسجًّى أمامها، لم تفهم أنك مت، وأنك لست ذاهبًا في سفر قصير إلى مطرح أو البستان، وأنك لن تعود إليها محملًا بالهدايا والياسمين والحلوى، وأنك لن تعلمها الحساب بعد الآن، ولن تجلس لتسمع منها ما حفظته عند المعلمة من سور.

أعرف أنها لم تفهم دخول الدَيَّانة وخروجهم من البيت، وبالتأكيد لا تفهم تغير عمتها وتوحشها. وآهٍ من تلك النظرة الصامتة، المتسائلة يا عبد اللطيف، آهٍ منها، عندما ترفع عينيها إليَّ، فتزيدني حزنًا على حزن.

حبست نفسي مع فريدة في غرفتي، وصرت لا أخرج منها إلا إلى الكنيف، لا خوفًا من الرد على فردوس وتطاولها علي، ولا جبنًا من انتزاع حقي بأصابعي من عيني تلك اللئيمة التي تُعيِّرني بأبي وفقري.

لكني كنت بحاجة إلى الوقت لأفكر، كي أدبر أمري بهدوء، فترجمانداس سيستولي على البيت حال انتهاء العدة، ولا أظن أن

عدتي على عبد اللطيف تهمه، لكنه ربما كان يحافظ على علاقته بتجار مسقط، فيظهر احترامه لأعراف مسقط وما قد يقوله الناس أو يغضب القضاة.

جلست في غرفتي، وعندما كانوا يتلهون في نهاراتهم بالحركة، كنت أخرج المصاغ الذي خبأته في الحفرة خلف مرآة الطاووس، وأحكم تثبيته بالخيط والإبرة على ثيابنا من الداخل، فلا تحدث أجراسه صوتًا، ولا تتأرجح سلاسله.

قطعة، قطعة، أخرجتها بحذر من مخبئها، وسارت أصابعي على نقشها، لأتذكر متى أهداني عبد اللطيف كل قطعة منها. أيها كان في صيغة زواجي، وأيها تلك التي أهداني إياها عندما ولدت فريدة، بأيها راضاني، وبأيها دللني وتقرب مني.

أخرجت صيغة فريدة، الحرف الذي علقه على جبينها يوم أتمت الحول، والحجول التي خطت بها أولى خطواتها.

صاغ لها أبوها مثل ما صاغ لي بالضبط، إلا حرز الفضة الموشَّى بالذهب ذا السلاسل والأجراس، لم يكن منه إلا واحد، لي وحدي.

أتلمس الصياغة الدقيقة على صندوق الحرز، أمشي بأطراف أصابعي على الورد، وردة وردة، مطروقة بدقة على الفضة، أهداني إياه أيام عرس فردوس، بعد أن خرجت هي وأهلها وخدمها من الباب، جذبني بيدي وأدخلني الغرفة، أجلسني على الكاتلي، وأخرج الحرز من صرة سوداء: «هذا حرز الحماية، وصيت عليه من

نزوى. ما بتحتاجي له ما دمت حي، وإن مت البسيه، ولا تفصخيه أبدًا، في داخله حرز يحميك ويغنيك».

أرج صندوق الحرز عليِّ أسمع شيئًا يتحرك في داخله، كتابة في ورقة أو طِلسمًا، لكنني لا أسمع إلا صوت احتكاك السلاسل ببعضها، ورنين الأجراس المعلقة به، ثم إني حاولت فتحه، لكن من صاغه تأكد من لحم باب الصندوق بحيث يحتاج إلى مسمار ومطرقة أو صائغ لفتحه. قبل انتهاء العدة بيومين، أمرتُ فريدة أن تتسلل من البيت دون أن يراها أحد، وتبحث عن ناصر في السوق، وتطلب منه أن يكتري لنا قاربًا يأخذنا إلى مطرح عند فجر يوم إتمام العدة.

لبسنا طبقات من الثياب التي شككت على بطانتها المصاغ، ووضعت قروش مهري في حزام وتمنطقت به، وأمرتها بلزوم الحذر والخفة في الحركة، حتى لا تحدث الأبواب صريرًا فينتبهوا لنا، أو يتدحرج الحصى تحت خطونا فيستيقظ بيت لوماه من سباته.

وجدنا ناصر ينتظرنا خارج الباب، قلت له: «سمعني زين. أنا أمك وفريدة أختك، ونحنا رايحين مطرح لمستشفى طومس ومستعجلين، لأن فريدة واجد مريضة، هذا اللي بتقوله لراعي المركب».

مشى أمامنا، وتبعناه في تلك العتمة التي لا ترى منها حتى أطراف الأصابع، نمشي ببطء متلمسين طريقنا كالعميان، لا نحمل سراجًا خوف افتضاح أمرنا، مستعينين بذاكرة ناصر في الاستدلال على الدرب.

نباح الكلاب وضباح الثعالب تزيد الليل وحشة، وفريدة كلما سمعت صوتًا، حتى لو كان مواء قطة، اندست تحت لحافي، وهي ترتجف.

وصلنا الفرضة، فوجدنا صاحب المركب في انتظارنا، أخبره ناصر بقصة مرض فريدة، وأنا بكيت من شدة الحزن، وقرصت فريدة في ذراعها فصارت تئن.

سبح بنا القارب في الظلمة، وأنا التي لم ألمس البحر من قبل، لم أخفه ولم يدر رأسي من حركة موجه، بل وجدت في انزلاقه على الماء سكينة كنت أنشدها، وفي الظلمة التي لفَّتنا طمأنينة، وفي تلك النجوم التي ثقبت وجه السماء تسلية، فصرت أهمس لفريدة، وأحكي لها حكايات بنات نعش، اللاتي بقين يحملن أبوهن إلى قبره، مرة بعد مرة ولا يصلن، وأخبرتها عن الثريا التي يطاردها سهيل، ويلف السماء خلفها إلى الأبد، أخبرتها بالحكايات التي حكاها لي عبد اللطيف عندما كنا نبات وقت القيظ على السطح، فيضع رأسي على زنده ويهمس لي بالحكايات والحب، وكانت هي تسمعني وتلتمع عيناها بالدموع، فأمسح على رأسها، وأحكم ضمي لها.

أشرفنا على مطرح عند الفجر، والشمس قد بدأت في نشر حمرتها خيطًا فخيطًا، فاصطبغ الماء، وبدأ الأفق في الانكشاف، أمامنا رأينا ساحلًا هلاليًّا، يحده الصخر من الجانبين، على الجبل الأيمن برج، وعلى الأيسر قلعة كبيرة، تشبه قلاع مسقط، لكنها أصغر بقليل. ثم

بدأت البيوت تتضح لنا. صف من بيوت بيضاء متراصة، يتوسطها مسجد صغير أبيض لا تكاد مئذنته تُرى من البعيد.

هبطنا من القارب، فلامست برودة الماء أقدامنا، وارتفع صوت الموج، فسرت في جسدي قشعريرة تلتها رجفة، هل كان الموج؟ هل كان البرد؟ هل كان الخوف؟ لا أعرف.

مشينا على الرمل، ونحن نراقب اقتراب قوارب الصيد، التي تفد عائدة من البحر وصيدها الليلي، لتفرغ حمولاتها من السمك، فيبدأ التجار في التحلق حولهم، يساومونهم ويشترون منهم قبل الذهاب إلى السوق، فيضمنون السمك بسعر أقل.

جلسنا على مسافة منهم، ننتظر اكتمال الشروق، وبدأ دبيب الأقدام في الأزقة والحواري، فوضعت فريدة رأسها في حجري، واستسلمت لتعبها.

لا أنكر خوفي ولا تعبي ولا حزني واضطرابي، ولكن مراقبة حركة موج البحر وحركة الصيادين أدخلت الهدوء إلى نفسي، وتحليق النوارس التي رأيت في نظرتها شرًّا أحمق، ذكرتني بفردوس، وتخيلت غضبها وهي تبحث عني في البيت كالمجنونة.

«تريدين أن تأخذي فريدة لتخضعيها لك ولمقاييس البيوت العالية، وتذليها وتنفذي فيها ما لم تستطيعيه في أمها وما لم تقدري عليه في عبد اللطيف؟».

«تريدين أن تشقي صدري، وتنتزعي قلبي، وتقتليني بحسرتي

نادمة على كل لحظة لي في بيت لوماه، وتظنين أني في مثل غبائك، وسأنتظر أن يحل عليَّ أمرك فأسرع لتنفيذه، وكأن لا عقل لي ولا قلب؟».

نعم، تذكرت فردوس وعاد إليَّ الغضب، لكن غضبي تحول فجأة إلى ضحكة ما استطعت كتمانها، فتحت فريدة عينيها، والتفت ناصر إليَّ وهو بين التعب والدهشة، لكن ضحكتي لم تتوقف، بل طارت مع هدير الموج، حتى بلغت مسامع الصيادين الذين التفتوا ناحيتنا، فلملمتها بخجل، وقمت أنفض ثوبي من الرمل، وأعصر أطرافه من الماء، متجهة صوب أصوات النهار التي بدأت تتعالى في الحارات والسوق، وناصر وفريدة يتبعاني.

لم أكن أعرف إلى أين أمضي، لكنني تبعت حدسي، ومشيت وراء الناس، فوجدت أكثرهم يذهبون في اتجاه واحد، فحزرت أنهم يتوجهون إلى السوق، وكان ظني في محله، فما إن اقتربنا من المدخل حتى وجدت ممرًّا واسعًا، اصطفت على جانبيه الدكاكين والبسطات، ومضى الناس فيه خاملين، يتجادلون ويساومون ولا يشترون، من المكان تفوح روائح البزارات المختلطة بالزفر والعرق والأبخرة.

أمرت ناصر هامسة أن يسأل عن مكان نبيت فيه، حتى نجد لنا بيتًا نكتريه، فقيل لنا إنه لا توجد مسافر خانة في مطرح، بل خيام للغرباء، نصبها رجل من أغنياء مطرح للمرضى الذين يأتون قاصدين مستشفى طومس.

وصف الرجل الطريق لناصر، فمشينا وراءه متلفعات بأغطيتنا، لا يُرى منا شيء.

في المساء طلبت من ناصر العودة إلى مسقط، حتى لا يشك في غيابه أحد، على أن يزورنا بين حين وآخر، فلا نفقد الصلة بأخبار مسقط ولا أخبار فردوس. فعلَّه إن أحس بالخطر أبلغنا فنحترس.

ناصر بن صالح

عندما دفنت أبي، دفنت كل أهلي معه، فصرت بعده مقطوعًا، لا أب لي ولا أم أعرفها.

كبرت بلا إخوة ولا أخوات، وحيدًا بين أبي وجدتي، وعندما توفيت جدتي كنت قد ختمت القرآن، أما أمي، تلك المرأة التي حملت بي ووضعتني، فلا أتذكرها مطلقًا.

وأنا طفل سألت عن أمي، فأجابتني جدتي بأنها هربت مع واحد من عشاقها، فتخيلته أشبه بحصاة «العشاق» التي كان الأطفال يلعبون بها، فيقربونها من الحديد فتلتصق به، ولم أفهم لماذا قد تهرب أمي مع حصاة وتتركني.

ماتت جدتي، وبقينا أنا وأبي وحدنا، وعندما سألته لماذا هربت أمي مع عشاقها، صفعني ثم بكى، لكني لم أعد بعدها إلى سؤاله عنها أبدًا.

بعد أن كبرت، قال لي إن أمي تحملت الكثير من عسفه وضربه

وشتائمه، قال إنها تحملته كثيرًا، لكنه لم يكن يقدر على عصيان أمه، فكان يشتمها ويضربها أحيانًا، بسبب وشاياتها وتحريضها، وأحيانًا فقط لأجل أن يدخل الفرح على قلبها عندما تعبس وترفض أن تدعه يقبل يديها.

لكنها في آخر مرة مد يده عليها، انتظرت حتى نام الجميع واختفت، وعندما استيقظ هو وأمه لم يجداها لا في البيت ولا الحارة. قالت له أمه إنها لا بد قد هربت مع عشيق لها، جن جنونه وبدأ في سؤال البحارة والمسافرين، بعد أيام أرسل إليه أبوها خبرًا مع أحد الصيادين القادمين من قريات بتنكات السمك المالح، بأن زوجته عند أهلها، ويطلب منه تطليقها تراضيًا.

لم يعرف أبدًا كيف وصلت إلى أهلها، وأي ريح ركبت إليهم، لكنها اعتصمت بهم ورفضت العودة إليه، قالت له أمه: هذه امرأة فاسقة لا تصلح لا للبيت ولا للفراش، ولا تساوي كراء زورق إلى قريات، ثم أمرته أن يطلقها فطلقها.

بعد مدة سمع أنها زوجت رجلًا من أبناء عمومتها، ما لبث أن سافر إلى قطر، فأخذها معه.

أخبرني أبي أن أمي جاءته عروسًا من قريات، ولم تكن قد بلغت الثالثة عشرة، وأنه تزوج لأنه كان بحاجة إلى امرأة تساعد أمه في خدمة البيت، ولأن على كل رجل أن تكون له امرأة تنجب له الأطفال، الذين سيكبرون فيعينونه في الدنيا، ويمدون ذكره بين الأحياء بعد موته.

سألت أبي لماذا لم تأخذني أمي معها؟ لماذا لم تسرقني منه مثلما سرقت عمرها وراحتها وهربت؟ لكنه لم يجب، وأنا اكتفيت بتلك النظرة المهزومة في عينيه وسكت.

وعندما دفنت أبي، شعرت بأني دفنت كل أهلي معه، وأنه لم يتبقَّ لي في الدنيا غير فريدة ومريم دلشاد، التي تمنيت لو أنها كانت أمي أنا أيضًا.

وعندما آلت ملكية الدكان إلى ترجمانداس، وأوكلني بمراجعة دفاتر عمي عبد اللطيف، والعمل معه كما كان يفعل أبي، وتبين لي الحال الذي آلت إليه فريدة وأمها، حزنت لكني وجدت في مصابهم عزاء لي. لا، ليس شماتة، ليس شماتة، أبدًا، ولكن طمعًا في القرب، وتمنيت لو تتخذني مريم دلشاد ولدًا لها، مريم التي لا يمكن لأم أن تكون أكثر حنانًا وجمالًا منها، مريم التي كنت كثيرًا ما أتخيل يدها وهي تحط على رأسي فتسري في أوصالي برودة عذبة، أو ذراعيها وهما تمتدان فتحيطان بي، لتهدئني أو لتمتص غضبي إن غضبت، تمامًا كما كانت تفعل مع فريدة عندما كانت تركض إلى حضنها هربًا من النوارس، فأشعر في أعماق روحي بأن الله يحبني.

مريم التي تشع ضحكتها في بيت لوماه فيبدأ النهار، وكأن الشمس تشرق منها، وبها يتحرك موج البحر.

وكنت أريد أن أقترب من فريدة أكثر، أن أكون أخاها، أخًا يرعاها ويهتم بها، ويكون قربها دومًا، تمنيت لو بقيت مصغيًا لها طول عمري، وهي تخبرني عن الكلام الذي يطير به الحمام من سطح إلى

آخر، أو وهي تحكي قصص النمل الذي يخرج من جحوره ويدب على الأرض والجدران، أو وهي تبتدع وصفًا لكل بلاد تذهب إليها الغيوم.

نجلس على السطح فتلعب بدمية من القماش صنعتها لها أمها، ثم تبدأ بقص حكاياتها الغريبة عليها وأنا أستمع، حكايات عن فتاة صغيرة أسقطت حذاءها في بئر سحري، فتزوجت بابن السلطان الذي تعب من البحث عنها في كل مكان، حتى وشى ديك بوجودها في تنور البيت، وحكاية عن معلم القرآن الذي يعلم الصبيان في الجهر، وفي السر كان ساحرًا يأكل الطفلات، حتى اكتشفته فتاة صغيرة ففضحته وألقت عليه لعنة ثم هربت، فذبح والديها، وحول أخاها غزالًا في عينيه خيط دم.

أو البنت التي عرفت بمحض الصدفة أن أمها وأباها يخططان لتزويجها بأخيها الكبير، حتى لا يتفرق المال والنخل على الغرباء، فتحصنت بقمة جبل رافضة كل إغراءات والديها بالهبوط إليهم، أو تدلي ضفيرتها الطويلة فيتسلقوها إليها.

لا أعرف من أين كانت تأتي بحكاياتها الغريبة، وكيف تولف ذلك الكلام. لكني كنت مفتونًا بكل كلمة تخرج من فمها، وكنت أريد أن أبقى معها، وأسمع حكاياتها وأحلم.

لذا عندما جاءت فريدة بعد مدة من وفاة أبيها إلى الدكان، وأخبرتني بما تطلبه أمها، لم أتردد، ونفذت كل شيء كما أمرت به، فهربنا من مسقط.

وعندما وصلنا مطرح لم نجد فيها مكانًا نكتريه، ولكننا وجدنا خيامًا للغرباء جوار مستشفى طومس. إلا أن مريم وبعد أن أوصلتهما، أمرتني بالعودة ففارقتهما، ولكن قلبي ظل معلقًا بالحزن في عيني فريدة، وبتلك النظرة القلقة في عيني مريم. أردت أن أعارضها وأقول إني مستعد للبقاء في خدمتها طول عمري دون أجر، وإن كل ما أريد هو أن تضمني إليها فقط، أن تمد يدها فتحضن جوعي ولهفتي على رائحتها.

لكني لم أفعل شيئًا من ذلك، بل ركبت المركب عند الظهر وعدت إلى مسقط، وعندما سألني سخي الذي صادفته في السوق عن غيابي، قلت له إني كنت مريضًا ومتعبًا، ولم أخرج من بيتي إلا اللحظة، وعندما أخبرني عن فرار مريم وفريدة، حوقلت وأبديت قلقي، لكني كنت قلقًا بلا تصنع، فكيف ستبقيان في مطرح وحدهما دون رجل أو مال، مع ذلك، ما كنت أملك إلا أن أطيع مريم دلشاد، فربما كنت أحميهما أكثر وأنا هنا، وربما احتاجت إليَّ فعلًا في مسقط أكثر من حاجتها إليَّ في مطرح.

وهي قالت إنها سترسل إليَّ، وأنا سأزورها. سأعرف دائما كيف أعثر عليهما، أما الآن فأنا بحاجة إلى تدبر أمري، والبحث عن مكان لي في هذه الحياة، مكان لا ظل فيه لبيت لوماه ولا لخيالات أبي.

مريم دلشاد

ذكرتني الشجيعية بلوغان قليلًا، ووجدت أهلها يشبهون أهل حارتي، ويتكلمون البلوشية مثلهم، فاستعدت لغتي التي ظننت أني فقدتها في ولجات بسرعة، وأنا أستمع للنساء يتحدثن ويغنين بها، وفرحت برؤية الثياب الملونة التي كنت أرتدي مثلها حتى دخلت بيت لوماه، حيث ألقت عليَّ فردوس لباس الجواري، ثم جاءني عبد اللطيف بالحرير الهندي فلففت فيه، ونسيت شغل البالوار، ونقش السبك ستشن، والكيناراه التي تزين الأكمام والحواشي وتبهج القلب.

طلبت من فريدة البقاء في الخيمة حتى تستريح، أما أنا فعدت إلى السوق، ومضيت في مجراه الطويل والأزقة المتفرعة عنه، فتعرفت على دكاكينه وبسطاته، وعرفت ما يباع في كل ناحية منه، من سوق الحبوب والتوابل والتمور، إلى سوق الأقمشة والصاغة والأثاث.

كان أكثر مَن في السوق رجالًا، وربما في مشيي كله صادفت امرأة أو امرأتين، ولم تكن أيٌّ منهن تلبس البويبوي وتلتف فيه مثلي،

ولهذا ربما استغربني الناس، فتابعتني العيون ورصدت حركتي، وقد غطيت وجهي بالخمار الرقيق.

اشتريت قليلًا من التمر، وعدت إلى الشجيعية، وكدت أتوه لولا أني لمحت من بعيد شفرات الطاحونة التي أنشأها الأمريكان أمام مستشفى طومس، فاستدللت بها، ومشيت حتى تبينت خيمتنا من بين الخيام، فوجدت فريدة وقد أحاطت بها جمهرة من النساء يكلمنها بالبلوشية، وهي خائفة ومنزوية، ولا تفهم ما يقلنه أو ما يردن منها، حتى إذا ما رأتني قادمة أشارت بإصبعها نحوي لتحيل اهتمامهن إليَّ، فنظرن تجاهي، فابتسمت وبادرتهن بالسلام والسؤال:

- تشيتوريتا شما؟ وشي؟

- باز وشي، الحمد لله.

كيف حالكن، بخير؟ بخير، الحمد لله.

حوار قصير كان كل ما احتاجه الأمر لتلتفت النساء إليَّ، وأجلس فيجلسن من حولي، متجاهلات فريدة التي ركنت إلى زاوية الخيمة.

بدأت النساء في سؤالي: «شوما تشي كو جا؟ تشيي واستا اتكجوه مطرحا؟ تشتوو زانيه خبركني بلوتشي؟ تو بلوتشي ولا أربي؟».

من أين جئتم؟ وماذا تفعلون في مطرح؟ وكيف لي أن أتحدث البلوشية مثلهن بطلاقة؟ هل أنتم بلوش أم عرب؟

في الركن جلست فريدة فاغرة فاها، وهي تسمعني أتكلم

البلوشية لأول مرة أمامها، ففي بيت لوماه، لم يكن أحد يتكلم البلوشية، حتى عبد اللطيف الذي كان يفهمها عندما أهمس له بها في الفراش، لم يكن يرد بها عليَّ.

أخبرتهن باسمي واسم ابنتي، وحكايتنا كاملة، مُغفِلة فقط ذكر اسم زوجي والسبب الحقيقي وراء مجيئنا إلى مطرح، وبعض التفاصيل التي لا تهم أحدًا، فقلت لهن إني جئت إلى طومس مع ابنتي المريضة أبحث عن علاج لها.

تحولت الأنظار إلى فريدة، التي كانت جالسة في ركن الخيمة، وسألنني عمَّا بها، قلت لهن إنها تشكو من ألم دائم في بطنها، فاقترحن عليَّ «فاطمة لولاه»، قابلة مطرح التي تعيش على بعد خمس خيام، قامت امرأة منهن لمناداتها، لكن أخرى نبهتها إلى أن فاطمة ما زالت في بيت ماستر علي.

عادت النساء إلى إكمال أسئلتهن حول مسقط، فأغرقتهن في تفاصيل حكايات حارة لوغان وما حليمة وعمي عيسى، وأبي الذي سافر واختفى، وزوجي الذي مات غريقًا.

لم أكذب في شيء، لكني قلت أكثر عن الأشياء المسلية، وقلت أقل عن الأشياء التي يمكن للقول فيها أن يفضح.

أخبرتهن أني لا أعرف إلى متى سأبقى في مطرح، ولا حتى كيف أصل إلى طومس، فانبرت إحداهن وقالت: «أنا بوصلك باكر الصبح عند با موسى حسن، هو بيدخلك عند الدختر قبل الناس كلهم».

صارت النساء يتركن الخيمة ثم يعدن، وفي يد كل واحدة منهن شيء، فأحضرت إحداهن قدح لبن لفريدة، وأحضرت أخرى سراجًا، والمرأة التي ستأخذني إلى المستشفى أحضرت وسائد وشراشف قديمة، بينما علقت أخرى جدوية ماء على أحد أركان الخيمة.

وفي المساء جاءت امرأة ضئيلة، بادرتني بصوت قوي أجش، وكأنه يخرج من فم غير فمها: «أنا فاطمة، قالوا إنش مريضة». أخذتني المفاجأة، ثم ابتسمت وطلبت منها الاقتراب، وطلبت من فريدة الكشف عن بطنها، ففعلت، وبعد أن جسته بأصابعها.

- بطنها ما فيه شيء، يمكن بينزل لها الدم قريب.

- من زمان تشكي، ما من اليوم والبارحة، يمكن فيها وجع غير، أحسن أسير المستشفى.

- سيري عند طومس، خليها تكشف بطنها وظهرها عنده، شوفيه يمكن يعرف شي أنا ما أعرفه.

عرفت امتعاضها في قسمات وجهها ومصمصة شفتيها، لكني شعرت بدفء مفاجئ، وكأني أعرفها منذ سنين، فأردت مشاكستها:

- يقولوا طومس يعرف واجد، والناس يجيوا عنده من كل مكان.

- طومس يعرف طب الإنجريز، لكنه ما يعرف مرض الحريم،

سألي في مطرح كلها من الوشل لين جبروهْ، بيقولوا بس فاطمة لولاهْ تعرف.

أحببت اعتدادها بنفسها ومهنتها، وطلبت منها مرافقتي إلى طومس في الغد، لكنها تجاهلتني وغادرت الخيمة، دون حتى أن تودعني بكلمة.

وفي الصباح جاءت نوربيبي التي وعدت بأخذنا إلى المستشفى، فرافقتنا إلى با موسى الذي فحصني وفريدة بنظرات فضولية، ثم لكزتني نوربيبي، فوضعت في كفه بضع بيسات، فأدخلنا من فوره على الطبيب، متجاوزًا الكثير من الناس.

فرحت فاطمة لولاه عندما أرسلت في طلبها، والاعتذار لها وإبلاغها بأن الطبيب وافقها في الرأي، وزدت عليه بأنه ذكرها بالاسم، وقال فاطمة لولاه تعرف كل شيء، ولم تكن تعرف أنها من أوحى لي بمرض فريدة الممكن، فوصفت ألمها له بما يتوافق مع سن فريدة وظهور علامات البلوغ عليها.

وصفت فاطمة الكثير من الأعشاب لفريدة، وحضرتها لها، وطلبتُ من فريدة المتململة أن تشرب ما تسقى إياه، وأن تساير فاطمة لولاه والنساء الملتفات حولنا. لم تفهم فريدة أسباب مسايرتي للنساء، وما أبديته من حجج وتصنع، لكن كيف لها أن تفهم المداهنة والمصانعة وهي الطفلة التي لم تضطر من قبل إلى أيٍّ منها؟ كيف لمن لم يخبر من الحياة إلا وفرتها وطمأنينتها أن يفهم أن حاجته إلى الآخر تحتم عليه أن يصنع لنفسه مكانًا في قلوب

الناس؟ ونحن النساء لا نقدر على ذلك إلا باستدرار عطف النساء الأخريات.

النساء وحدهن من يقدرن على فهم النساء وحمايتهن فعلًا، لكن حتى تضمن ذلك، عليك أن تقيس خطوات مشيك بينهن بحذر، فلا تستثير غيرتهن، ولا تنافسهن على شيء أبدًا، خاصة الرجال، كل الرجال، حتى الأب والابن والأخ... لكن كيف لفريدة أن تدرك أيًا من ذلك؟

بعد أيام تركت خيمة مرتادي المستشفى لمن صار أحوج إليها، واكتريت خيمة تجاور خيمة فاطمة لولاه، لا يفصل بيننا إلا سكة ضيقة، كان أصحابها قد تركوها، وسافروا قبل عام للقيظ في السيب ولم يعودوا.

بعد مدة طلبت النساء مني أن أخلع ثياب الحداد البيضاء، وعرضن أن يخطن لي مثل ما يرتدين، وأن ينقشن لي القمصان البلوشية بالبالوار، عرضتْ عليَّ نزاريه بائعة الأقمشة ما تضمه صرتها، لكن أيًّا مما عرضته لم يرق لي، عرفت كولجان ذلك، فعرضت اصطحابي إلى السوق، ورافقتني إلى دكان رمليكداس.

أخذت بوفرة الأقمشة والألوان التي لم أرَ مثلها قط، فصارت يدي تمشي على الحرير والأطلس، وأصابعي تتبع النقشات والطبعات، شغلت الألوان عيني، وسرت النعومة من أطراف أصابعي حتى قلبي، لكني تمالكت نفسي، واخترت لكل واحدة منا ثوبين، اخترت لنفسي قماشًا أبيض مطبوعًا بدوائر زرقاء صغيرة،

وآخر بنيًّا مطبوعًا بأوراق شجر سوداء. اعترضت كولجان وقالت هذه ثياب عجائز، فقلت لها إني ما زلت حزينة على زوجي وقلبي ما زال مفطورًا عليه، ولا أستطيع ارتداء الألوان الزاهية. فتمتمت ممتعضة: «الميت ميت والحي حي»، ولوت شفتيها، فتجاهلتها واخترت لفريدة قماشًا أزرق بورد أحمر دقيق، وآخر أخضر بأغصان صفر تكاد لا ترى من دقتها.

حرصت على أن لا أرتدي الألوان الزاهية، وأن لا أضع أي قدر من الزينة، لكن فاطمة التي صارت تزورني كل يوم بعد عودتها من بيت الماستر علي، أسرت لي بأن النساء في الشجيعية يقلن إنهن لم يرين في حياتهن أجمل مني ومن فريدة، فطأطأت رأسي خجلًا وحاولت تجاهل كلامها، لكنها استطردت بالقول بأننا بحاجة إلى رجل كي يحمينا من عيون الرجال الآخرين، وأنهن بدأن بالفعل في البحث عن زوج لي، فهززت رأسي وابتسمت وسكت.

عرضت كولجان تعليم فريدة نقش البالوار، فأقبلت عليه رغم التردد الذي ظهر منها في البداية، إلا أنها ربما وجدت فيه ما يشغلها عن أيامها الطويلة الراكدة في الشجيعية، فتلهت بالخيوط عن التفكير فيما حدث، والابتعاد عن التفكير فيما سيحدث.

في جلساتنا صرت أفتح لهن باب الكلام، فيندلقن بحكايات مطرح، فعرفت من أحاديثهن بيوت العائلات الكبيرة للتجار العرب والبلوش واللواتيا والبانيان، حكاياتها وفضائحها، وكيف أصل إليها.

ورغم أني لم أمشِ كثيرًا في دروب مطرح، فإنني نقشت أسماء الأماكن والاتجاهات في رأسي، وعرفت ما يدنو من القلعة، وما يبتعد في اتجاه البرج على الطرف الآخر، وكيف يتقسم السوق، وأي الحارات أقرب إلى البحر وأيها أبعد، وذهبت معهن لإحضار الماء من الآبار القريبة في الزبادية، ففاضت حكاياتهن كما يفيض الماء وينضح على رؤوسنا.

عرفت نازيمويه وكمبار وحارة الشمال وحارة الهنود والصاغة والنجارين والوشل وخور بمبة واللولوة والطويان وجيدان والعريانة وخب السمن ووادي خلفان. كان وصف النساء دقيقًا، فعرفت كيف أصل إليها في رأسي دون أن تطأ قدمي تراب دروبها.

مع الوقت اقتربت فاطمة أكثر، وصارت تخبرني بنتف من حكايتها، ثم اندلقت بحكايتها كاملة.

عرفت أنها ورثت مهنتها عن أمها، وأنها تشتغل في أشياء كثيرة، فهي في أول النهار تبيع خبز اللولاه في نازيمويه، وبعد ذلك تشتغل في بيت الماستر علي، مدرس العربي والحساب، وبعد العصر تعود إلى بيتها لتعتني بقططها وزوجها مراد داهوك وابنها حسن.

عشنا في الشجيعية ثلاثة أشهر، لا يكدر حالنا إلا ادعاء ضعف الحال واضطرارنا إلى القناعة بأقل القليل. أفهمت فريدة، بأننا بحاجة إلى الاختلاط بالناس، والتدرج في معرفتهم، حتى يأنسوا لنا، ويصبح لنا معارف وأثر في المكان فلا نستنكر، ونذوب فيهم وبينهم كما يذوب الملح في الماء. أما إن جئنا وحللنا كسيدتين

ميسورتين في بيت كبير، فذلك سيلفت الأنظار إلينا، ويشكك الناس فينا، ويبدءون في البحث عن أصلنا وفصلنا وحالنا ومالنا، وربما لن يكتفوا بما نقوله عن أنفسنا، فيعملون على تقصي أحوالنا، وربما وصلوا في فضولهم إلى مسقط، فاستدلت فردوس علينا، ونحن لسنا مستعدين لذلك بعد.

كان هذا الحديث يؤلم فريدة ويزعجها، وكان تفوهي به يؤلمني أنا أيضًا، لكن حالنا صار مثل الذي علق ثوبه في شجرة من الشوك، فإما أن يدمي إصبعه وإما أن يمزق ثوبه، لكني اخترت أن أتبع نصح ما مويزي: «يا بنتي من تشبق ثوبه، فكه بالراض».

كنت أسوق إليها الأمثال والحكايات، وأعيد عليها ما تعلمته على يدي أبيها وما مويزي وحتى فردوس، فلم تكن عشرتها الطويلة بلا منافع، فكيف يعرف الإنسان القبح والخبث والشر والكبر ويتجنبها، إلا إن رآه ماثلًا أمامه، وجرب طعمه الحامض الكريه، الذي يتركه في النفوس.

فريدة كانت تصغي أحيانًا، وتصد عني أحيانًا أخرى، ورغم أنها لا تكف عن معارضتي عندما نختلي، فإنها تطيع كل ما أقول أمام الناس وتنفذه كما آمرها، ولا ترد لي كلمة، فعرفت أن ابنتي حذقة، وتتشرب كل ما أعلمها إياه رغم كل شيء.



فريدة

لم أكن أعرف أن العالم خلق محمولًا على أكتاف الآباء، وأن السماء تسقط متى ما رحلوا، وأن الحياة، كل الحياة تصبح خالية إن خلا منهم المكان، وأن نظرة العتاب في عيونهم، ما هي إلا دروس قصيرة، تمرر بين القلب والعين. ولم أكن أعرف أن الساعة التي فصلت بين تقبيلي كف أبي ذلك الصباح وغرق السفينة، هي آخر ساعات الهناء، وأن ما بعدها من عمر سيكون شقاء.. كله شقاء.

والآن صرت أعرف، وصرت أجرجر قدمين ثقيلتين في هذا العالم، أمشي ولا أعرف لي جهة أبلغها، ولا قلبًا أستند إليه، ولا سقيفة أستظل بها.

متعلقة بطرف ثوب أمي، التي كانت تقول: «لا تخافي»، فأبدد بصوتها خوفي الذي يستجيب ولا يستجيب، وأبقى عالقة في تلك اللحظة التي وجدت جسد أبي مسجًّى فيها على الرمل، لا يسمعني ولا يراني، ولا يضمني أو يمسح على رأسي مواسيًا.

أصبحت أمي لي أبًا وأخًا وأهلًا ودنيا، ووعدتني بأنها ستعيد إليَّ كل شيء، لكن ماذا ستعيد إليَّ أمي؟

أتعيد إليَّ رفيف أجنحة الحمام على سطح بيتنا؟ أم انسكاب ضوء القمر على بحر مسقط؟ أم رائحة أبي وهو يضمني؟ أم صوته وهو يعلمني مخارج الحروف وطُرُق الحساب؟ أم حضوره في العالم؟ مجرد حضوره، الذي كان يغنيني عن كل شيء آخر.

حقًّا، ماذا ستعيد إليَّ أمي؟ أتعيد إليَّ البيت الذي أخذه البانيان؟ أم الأب الذي أخذه الماء مني؟ ومن أين لها ذلك؟ وقد أصبحت بعد أبي بلا حول ولا قوة، حتى أنها اضطرت إلى الاعتماد على ناصر، كي نخرج من مسقط كاللصوص، دون أن يشعر بنا أحد، ونعيش في مطرح من غير شبهة في الاسم أو السمعة.

وناصر، هذا المكسور مثلي في اليتم، من يلملمه وقد عاد إلى مسقط وحيدًا بلا أب ولا أهل؟

كان يبدو سعيدًا وهو ينفذ ما تمليه أمي عليه، حتى أمرته بالرجوع إلى مسقط، فتردد وكأنه بوغت بطلبها، فهل ظن أنه سيبقى معنا في مطرح؟ ليته فعل. ليت أمي طلبت منه ذلك، فليس مثل ناصر أحد.

ناصر لا يغضب مني أبدًا، مهما صددت عنه عندما كان يأتي ليجالسني على السطح، فأشعر بأنه يقطع عليَّ حبل الوصل مع أبي، بل يجلس إلى جانبي صامتًا، وكأنه يريد أن يقول لي إن وجعنا واحد، وإننا في الحزن سواء. وعندما أضيق بوجوده إلى جانبي، كنت

أحدجه بنظرة غاضبة، فيردها بنظرة ينسكب منها اللطف، اللطف نفسه الذي عرفته فيه ونحن صغار نلعب معًا، والطيبة نفسها التي تغدق من عينيه على الجميع.

في بيت لوماه جمعنا اللعب والضحك والحمامات، وها نحن ذا نتفرق في مطرح، فيعود هو ونبقى نحن في هذا المكان الغريب، بعيدًا عن مسقط وبيت لوماه، بعيدًا عن كل ما عرفت وألفت.

وصلنا مطرح متأثرين بدوار البحر، وارتجاج الخوف في أعماقنا، وما إن أُنزل متاعنا في الشجيعية، حتى غادر ناصر كما أمرته أمي، وذهبت هي إلى السوق لتشتري لنا ما يسد جوعنا.

كانت الخيمة خالية من الأثاث، لا شيء فيها إلا حصير قديم أكلته الأرض، وفي المكان بقايا روث ماعز، وكأنها لم تكن تستخدم لإيواء الناس فقط، بل وحيواناتهم كذلك، وكانت الروائح تفد إلينا من كل مكان، روائح المزابل، والبحر وزفر السمك والروث والطبخ، أما الأصوات العالية فتشعرنا بأننا نعيش في وسط السوق، الخطوات المتسارعة، الصراخ، الشتائم. وفي الليل عندما كان يهدأ كل شيء، يأتي صوت البحر من بعيد وكأنه ينادي على أضحية جديدة تقرب له.

بقينا في تلك الخيمة لأيام، وجاءت النساء لزيارتنا، وعرفت أن أمي تتكلم البلوشية، وفحص بطني، وأخذت إلى المستشفى، وسقيت أدوية غريبة، وحكت أمي حكايتنا دون كذب، بل استطردت وأضافت، وكأنها أرادت أن تغرق النساء في لجة التفصيل، فيتوه

خيط الاستدلال علينا. وأمي لم تذكر اسم أبي صراحة، بل صارت تقول: أبو فريدة أو زوجي فقط، وكأن الموت أخذ منا كل شيء، حتى اسمه الذي كنا نلجأ إليه ونعتز به.

في كلامها أوحت إليهن أن أبي بلوشي أيضًا، فلم يعرف أحد أني أنتمي إلى بيت لوماه، وأن أبي من البحارنة الذين أخبرني بنفسه أنهم من عرب العراق، استقروا في مسقط منذ زمن بعيد جدًّا. وعندما سألنها لماذا لا أتكلم البلوشية، قالت إني تأخرت في الكلام كثيرًا، وحكت لهن الحكاية بالتفصيل حتى نسين أصل السؤال، هكذا كانت تعطي إجابات صادقة، ولكن ليست في موضعها تمامًا، وليست كاملة بالتأكيد.

في تلك الأيام القليلة كبرت أنا مئة عام، وعرفت مرارة أن تنتقل فجأة من رخاء لا تفكر فيه في عواقب الأمور، إلى عسر تحاسب فيه نفسك على اللقمة وشربة الماء والكلمة التي تقول.

في الشجيعية عرفت معنى أن تكون غريبًا ومتوجسًا، فيتابعك الناس بنظراتهم في كل خطوة، وكأنهم يفتشون فيها عمّا يدل على المكان الذي جئت منه، أو كأنهم يستدلون من مراقبتك على أصلك وفصلك، وما تملك وما لا تملك من الصفات والمال.

نعم لم نكذب، لكن الإخفاء فيه شيء يشبه الكذب، ولا مأمن فيه من زلات اللسان، لكن ماذا لو قلت إني بنت عبد اللطيف أحمد لوماه، هل ستعرف النساء في مطرح من يكون أبي؟

خيل إليَّ أني ما عدت أعرف نفسي، هل أنا فريدة التي كنتها

في ولجات؟ أم أني صرت فريدة أخرى لا تنتمي إلى أي مكان؟ أأنا ما أقوله للناس عن نفسي؟ أم ما أخفيه؟ وأين فريدة التي ولدت وكبرت في بيت لوماه؟ في أي قبر دفنت؟ هل مت مع أبي؟ في تلك اللحظة نفسها التي رأيته فيها نائمًا على الرمل مغمض العينين؟

أعيش في الشجيعية خائفة من انكشاف أمرنا، فنسقط في عين أهلها، ونطرد ونصير نهيم في الدروب، أو نؤخذ للحبس دون ذنب وننسى. نحن الذين لا أهل لنا، ومن كانوا أهلنا هربنا منهم، مستجيرين بمن لا نعرف عمن نعرف، سنضيع في الخطوات، ولن يأتي أحد لنجدتنا.

كانت خيالاتي تقلقني، فيمضي أكثر الليل وأنا أفكر فيما سيحدث لو أن أمرنا افتضح، وكنت أهيم فيها وأسير بعيدًا بأفكاري، إلى السجن مرة، وإلى البحر مرة، وإلى الجبال والصحراء التي سمعت أبي يتكلم عنها مرات. ثم بدأت خيالاتي تعجبني، فاخترت أن أعتبر ما يحدث لنا واحدة من حكاياتي، التي كنت أقصها على البنات في ليوان بيتنا بولجات، أو أحيانًا على ناصر ونحن نلعب على سطح البيت.

آه يا بيت لوماه، كم أنت بعيد الآن، وكأنك لم تكن إلا خيالًا في قصة من قصصي، وكأني لم أكن إلا بنتًا في حكاية.

اخترت أن أصدق حكايتي، فربما صدقها الناس أيضًا، وربما يلقى ابن السلطان الفتاة التي ضيعت حذاءها، أو ينتقم الشيخ لأبنائه الذين حولتهم الساحرة إلى ظباء شاردة في السيوح، وربما

يعود أبي إليَّ، ويعود كل شيء معه، ولجات، بيتنا والحمامات على سطحه، وكل تلك الوجوه التي كنا نحبها وتحبنا قبل موته.

هكذا كنت أسكن خوفي، وأحاول صرفه بالأوهام والخيالات، لكنه لا يتركني، يتشبث بأطراف قلبي كطفل عنيد، وأحيانًا كان يتسلل فيسكنه لأيام لا أذوق فيها النوم، بينما تنام الشجيعية وتنام أمي، وتنام الدنيا كلها، وتبقى عيناي مفتوحتين ترعيان خيالاتي.

ناصر بن صالح

صليت في مسجد علي موسى، وعند التسليمة الأخيرة، عرفت أني لا أريد الرجوع إلى البيت، فتوجهت صوب البحر، كانت الظلمة قد بدأت في الانكشاف قليلًا، وصار بإمكاني تمييز خيط السماء.

مشيت إلى حيث أراح الصيادون قواربهم، وبدءوا في تعبئة القفران بالأسماك الصغيرة، بينما وضعوا الكنعد والسهوة والجيذر على الرمل، فهذه ستحمل بعد قليل على عصًا معلقة على كتفي أحدهم إلى السوق.

مررت بالعساكر الهنود في عمائمهم الحُمر أمام بيت الوكيل البريطاني، والصيادين قرب الفرضة دون أن ألتفت إليهم، ومضيت إلى الطرف البعيد حيث ترتفع الميراني ويهبط الجبل، فتلتقي حجارته بالماء.

جلست هناك، أراقب صعود الشمس من وراء الجلالي، وولادة قرصها الأحمر، من الطرف الشرقي. الشمس ترتفع ببطء،

وحمرتها تتساقط رويدًا رويدًا مع الماء الذي تنزفه، فيبقى على سطح البحر حينًا، ثم يذوب.

أتذكر أني أول مرة سمعت فيها ضحكة مريم، شعرت بهذا أيضًا، أن شيئًا يصعد في روحي ثم يتساقط ويذوب، شيء مبهج ولا تفسير له.

في ذلك اليوم أخبرني أبي أن عمي عبد اللطيف لم يأتِ إلى الدكان، وأن علينا أن نذهب إلى بيتهم كي يسلمه الدفاتر وغلة اليوم.

كتمت فرحي، ولم أظهر حماسي لأبي، كانت هذه أول مرة أذهب فيها إلى بيت أحد، فجدتي لم تكن تسمح لي بدخول أي بيت في الحارة، وحتى عندما كنت ألعب مع الأولاد في السكة أمام البيت، كانت تحرص أن تُبقي عينيها عليَّ طوال الوقت، والويل لي لو غبت عنهما لحظة، لكن بعد أن توفيت، صرت أرافق أبي إلى كل مكان يذهب إليه، وعندما دخلت المدرسة، صرنا نترافق حتى الباب الصغير، ثم نفترق، هو يذهب إلى السوق وأنا إلى المدرسة، وعندما ينتهي الدرس، ألحق به في الدكان، وفي المساء نعود معًا إلى البيت.

مشيت وراء أبي وأنا أحاول أن أتصور كيف يكون بيت عمي عبد اللطيف، صاحب الدكان الذي يعمل فيه، تخيلته مثل بيوت الحارة، المصنوع غالبها من السعف وجريد النخل، أو مثل بيت الحاج حسن المبني من الحجارة والمصبوغ بالنورة، كان بيت الحاج حسن أكبر بيت في التكية، وكان يحاذي درب العقبة.

لكنني لم أستطع تخيله من الداخل، إلا مثل بيتنا: غرفة، وحوش صغير، وركن وضعت فيه الأواني، وثلاث صخرات للطبخ، وركن آخر نستحم فيه.

لم أتخيل أن هناك بيتًا مثل بيت عمي عبد اللطيف، فبقيت عيناي تتقلبان في أرجائه، وعندما دخلت المجلس، هش لي ومد يده ليصافحني، ووضع بيسات في كفي، ثم نادى عساكر لتأخذني إلى الليوان، وأمرني أن أذهب للسلام على عمتي مريم.

مشيت وراءها، وعيناي الفضوليتان تفحصان المكان، وأنا أحاول استيعابه وفهم كل تلك الأشياء التي أراها لأول مرة، فلا شيء هنا يشبه شيئًا عرفته في بيتنا، لا الباب ولا الجدران ولا الحوش، ولكن أغرب شيء رأيته كان الليوان، الليوان الذي وجدت مريم جالسة فيه، كانت أرضيته مفروشة بالحصى الصغير الناعم، ووسطه مفروش بالبسط، وفيه مخداتٌ بِيض منقوشة بالزهور الملونة.

كانت السماء فوقها، وكانت هي تحت السماء مباشرة، تجلس متربعة أمامي، يمينها تقبض على مروحة من السعف تهب بها على وجهها، فكان وجهها يظهر ويختفي في حركات متتابعة، وكانت ترتدي ثيابًا ملونة لا تشبه ثياب جدتي السوداء، والتي كنت أظن أن كل النساء الكبيرات لا بد أن يلبسن مثلها، ثوبًا أسود، سروالًا أسود، ووقاية سوداء بدوائر نيلية صغيرة، ولا تشبه ثياب النساء في الحارة، اللاتي كن يرتدين ثيابًا بألوان منطفئة، كأنها على صورة جبال مسقط، أو مأخوذة من تراب دروبها.

أما هذه المرأة فكانت ترتدي ثيابًا ملونة، صفراء وزرقاء وخضراء ووردية. تذكرت باغ الزواوي الذي زرته مرة واحدة مع أبي، وشهقتي عندما رأيت النخيل وأشجار المانجو والنارنج والموز والليمون، وشجيرات الورد والياسمين. كانت هذه المرأة مثل ذلك البستان، وحيرني وجهها الذي يأتي ويروح في حركة المروحة.

بعد لحظات انتبهت لنا، فتوقفت حركة المروحة، وبان وجهها بكامله وهي تلتفت صوبنا، رأيت عينيها المكحلتين، ووجهها الأبيض وحمرة خديها. أنا لم أرَ امرأة مثلها من قبل، ثم تذكرت صورة امرأة على غرشة عطر كانت جدتي تخبئها في مندوسها، امرأة تلبس الأبيض وتعلق على كتفيها شالًا أزرق، لكنها لم تكن تغطي شعرها مثل هذه المرأة التي تجلس أمامي، لابسة وقاية خضراء، وشعرها الأسود مفروق عند المنتصف.

نظرت إليَّ طويلًا بتلك العينين الكبيرتين، ثم شقت الوجه ابتسامة واسعة، وهي تمد يدها، وتقول لي تعال:

- أيش اسمك؟

- ناصر.

- وأبوك؟

- صالح.

- وأمك من اسمها؟

- سكتت، ولأول مرة أنتبه أني لا أعرف اسم أمي:

- ما أعرف.

- كيف ما تعرف؟

- ما أعرف.

لم يسألني أحد من قبل عن اسم أمي، وأنا لم يخطر في بالي أن لأمي اسمًا، فأنا لم أسمع أحدًا يذكر ذلك، ولم أسأل أبي أو جدتي عنه. كان سؤالها غريبًا، وأغرب ما فيه أنها كانت تسألني وكأنها تتوقع مني معرفة الإجابة، وكأن معرفتي باسم أمي أمر مسلم به تمامًا مثل معرفتي باسم أبي.

تفحصتني بعينين مستغربتين، فشعرت بأني أجبت إجابة خاطئة، وأني أستحق العقاب، لكني لا أعرف اسم أمي، وهي أشاحت بوجهها، وانشغلت بمروحتها، وشعرت بالخجل، ثم أحسست بأن هذه المرأة ستعاقبني، ربما ستضربني، أو ربما ستطردني من بيتها، وشعرت بالخوف، وأردت العودة إلى حيث يجلس أبي، أردت أن أهرب منها.

قلَّبت عيني في المكان، فلم أعرف من أين دخلنا، لكني لمحت الدرج، فركضت إليه، دون أن أعرف إلى أين سيأخذني، صعدت الدرجات قفزًا، وعساكر تصرخ: «وقف، وينساير؟ تعال».

أسمع صوت عساكر وخطواتها خلفي، لكني أقفز الدرجات أريد الاختباء، أريد أن أكون وحيدًا وبعيدًا، وأن لا يسألني أحد.

وفي السطح، وجدت السماء، ووجدت الشمس، ووجدت

البحر فذهبت إليه، حتى وصلت الحاجز، وقفت على أطراف أصابعي، ورفعت جسدي قليلًا، وصرت أنكشف على سطوح الآخرين، وأحواش البيوت من الداخل.

ثم حطت كفٌّ على رأسي، فجمدت في مكاني، كمن ضبط وهو يسرق: «لا تخاف، أنا مريم».

استدرت، فوجدتها قد جلست القرفصاء ورائي، فصرت أطول منها قليلًا، مدت ذراعيها، فلم أعرف كيف أهرب منها، إلا بالارتماء في حضنها.

ضمتني مريم طويلًا، فاستنشقت رائحتها الممتزجة بروائح اللبان والياسمين، أغمضت عيني وهي تمسد شعري، وشعرت بصدرها يرتفع وينخفض، وسمعت دقات قلبها وهي تحضنني بقوة.

تمنيت لو أبقى ملتصقًا بتلك الرائحة، وأن لا يأتي أبي ليأخذني إلى البيت أبدًا، تمنيت لو أنها تبقيني هناك مندسًا بين ذراعيها، لكنها أبعدتني بلطف، ووقفت، أخذت يدي في يدها وهبطنا الدرج، كانت عساكر قد وضعت بساطًا عليه صحون ممتلئة بأكل لم أرَ مثله من قبل، أجلستني مريم إلى جانبها، وبدأت بوضع لقيمات صغيرة شديدة الحلاوة في فمي، كانت تضع اللقيمات في فمي، وعيناي لا تغادران وجهها.

كنت أتذوق العصيدة لأول مرة، فكان فمي يمتلئ بالسمن والسكر والطحين والهيل، وقلبي يمتلئ بوجه مريم ورائحتها وعطفها.

ثم جاءت فريدة، كانت أصغر مني بسنتين أو ربما ثلاث، وعندما رأتني، زمَّت شفتيها واحمرت وجنتاها، وبدأت في الصياح، فمدت مريم يدها بسرعة، وجذبتها، ووضعتها في حضنها، وأطبقت عليها بذراعيها، وهي تشير إليَّ وتقول لها كلامًا لم أسمع منه إلا النتف القليلة، ثم تأكل أذنيها، وتمضي بأصابعها على صدرها وبطنها، حتى تضحك، وعندما ضحكت غمرت وجهها بالقبل، قبل صغيرة كثيرة، كانت الطفلة تتكركر وأمها تقبلها وتضحك. في تلك اللحظة عرفت لماذا أجهل اسم أمي.

كبرت وصرت أذهب إلى المدرسة وأعود منها وحدي، وأساعد والدي في شؤون البيت، فأنظف وأطبخ، وصرت أطلب من أبي أن أرافقه إلى بيت عبد اللطيف، وصرت ألعب مع فريدة فوق السطح، لكني كنت أبحث بعيني عن مريم طوال الوقت، وعندما يتناهى وقع خطواتها ورنة أساورها من الليوان، أو وهي تصعد الدرج لتنضم إلينا فوق السطح، أشعر بقلبي يفلت من وراء دشداشتي، وأسمع وجيب قلبي في أذني، فأنشط في نثر الحبوب لحمامات فريدة، وأحيانًا أقترب من الروشن وأعتليه، فقط كي تصرخ مريم، وتأتي فتنزلني وتحضنني، فأشم رائحتها وأسمع دقات قلبها.

أشرقت الشمس، وتعالى قرصها، وارتفعت الرطوبة، وتجلى البحر أمامي ممتدًّا، وكأن لا مهرب منه إلا إليه، فعدت أدراجي، وذهبت إلى السوق، فلم تعد لديَّ رغبة لا في الطعام ولا في الجلوس ولا في النوم، لم تعد لي رغبة في شيء مطلقًا.

مريم دلشاد

استيقظنا في يوم من أيام القيظ الشديد على صياح الناس بالحريق، الذي اشتعل في بعض الخيام وامتد إلى أخرى، ورأينا الناس يفرون من النار، فخرجنا نركض وراءهم ولا نلوي على شيء.

فجأة تنبهت أني خرجت من الخيمة بما عليَّ من الثياب، وأني تركت صرة الصيغة والقروش في حفرة صغيرة تحت الفراش، فأمرت فريدة بأن تتبع الناس، وقلت لها: سألحق بكم بعد قليل، فصارت تركض مع الراكضين، أما أنا فاستدرت، وصرت أركض عكس الذين يفرون من الحريق. غطيت فمي وأنفي بوقايتي، وبحثت وسط الدخان واللهب عن الدرب المؤدي إلى الخيمة، حاولت امرأة منعي، فدفعتها بقوة حتى سقطت، لم أكترث لسقوطها وأكملت ركضي، حاول حسن الذي لاقاني في الدرب وأنا أركض أن يمنعني أيضًا، فصرخ مترجيًا أن أعود، وحاول أن يثنيني ففرد ذراعيه ليمنعني لكنني لم أتوقف، فمد يده ليمسك بطرف وقايتي، لكنني أفلت منه، وتجاوزته مسرعة كالمجنونة.

رأيت النار تقترب من الخيمة، فصرت أسابقها أيُّنا يصل قبلًا أنا أم هي، فضياع الصرة، يعني ضياع كل ما أملك، كل ما تبقى لي من عبد اللطيف، كل حياتي، وهذا ما لن أسمح بحدوثه.

غطى الدخان كل شيء، وصارت عيناي تحترقان وتؤلمانني بشدة، فما عدت أرى إلا السواد يلفني من كل صوب، صرت أقفز محاولة تحاشي جريد النخل والسعف المشتعل والشرار المتطاير، حتى وطئت سعفة مشتعلة فلسعت باطن قدمي، فكبوت في مكاني وأنا أبعد الجمرات عن قدمي وأنفضها، ثم نهضت وأكملت سيري وأنا أعرج من شدة الألم.

كانت النار لم تصل الخيمة بعد، إلا أن الخيام على جانبيها كانت قد بدأت في الاشتعال، دخلتها وأزحت الفراش، وصرت أحفر كالمجنونة تحته حتى وجدتها، فتأبطتها وخرجت، حينها طال الحريق سعف الخيمة، فاشتعلت في طرفة عين، أما أنا فركضت، وقفزت مثل البنت التي كنتها في حارة لوغان، تقفز على نار حصى الوادي المطبوخ في الشمس، تكتم صرختها حينًا وتطلقها حينًا.

وصلت لاهثة إلى حيث تجلس النساء، ووقاية رأسي قد أحرقتها النار في أكثر من موضع، فصارت لا تغطي إلا القليل من رأسي وصدري، وما إن رأتني فريدة حتى ارتمت في حضني، أما النساء فقد التففن حولي ليسترن رأسي المكشوف وجديلتي الطويلة التي استراحت على الأرض.

فحصت فاطمة باطن قدمي، وبَّختني مع كولجان ونوربيبي،

وأجمعن كلهن على أني مجنونة، وأن لا شيء يستحق ذهابي إلى الحريق والسعي إلى الموت بقدمي، إلا أنني حضنت فريدة، وانطويت على صرتي وأنا أبكي، غير مكترثة بكلامهن.

كان الغضب والحزن ممتزجين على وجوه الرجال والنساء، وهم يراقبون النار تلتهم كل ما يملكون، بعد أن تأكد الجميع بأن الحريق أخمد، انتشر الناس في المكان، كلٌّ يبحث عن مكان خيمته وما تبقى منها أو فيها من متاع، إلا أنا وفريدة، فقد لزمنا مكاننا، ولم نغادره، وجلست أنتظر عودة فاطمة بالزيت الذي تعالج به قدمي والخرق التي ستلفها بها. وعندما عادت أخبرتني أثناء تطبيبي، بأن هذا الحريق أمر معتاد، ويحدث في الشجيعية وجبروه أحيانًا، بسبب الحر في أغلب الأحيان، وبفعل فاعل مجهول أحيانا.

بدأ الناس في ترميم خيامهم بكل ما تطاله أيديهم من سعف وجريد وحصى حتى يضمنوا القليل من الستر لنسائهم، ومثلهم فعلت بمساعدة فاطمة وزوجها وحسن وبعض رجال الحارة، لكنني طلبت من حسن سرًّا أن يبحث لي عن بيت بعيد عن الحرائق.

بعد أيام عاد حسن بخبر عن بيت خالٍ في حارة الشمال، لكن صاحبه يطلب فيه عشرة قروش ثمنًا لاكترائه، كانت الأجرة غالية لكني لم أتردد، وطلبت من حسن أن لا يخبر أحدًا حتى أفعل.

وجدت في حرائق الشجيعية عذرًا كافيًا للخروج منها، والسكن في مكان بعيد عن اكتظاظ هذه الخيام، وفي الحقيقة كي أبدأ في إخراج المال وفي تجارتي كما اعتزمت.

بلغت فاطمة برغبتي في الانتقال إلى حارة الشمال، قريبًا من البحر، فصحة فريدة ومزاجها قد تغيرا وازدادا سوءًا بعد الحريق، فصارت لا تنطق إلا ردًّا على سؤال، ولا تتحرك من مكانها إلا إن نبهتها من شرودها. قلت إن بعدنا عن المكان وقربنا من البحر فيه راحة لها، وطلبت منها أن لا تنقطع أبدًا عن زيارتنا.

حارة الشمال منزلة بين منزلتين، فلا نحن في الحارات الفقيرة مثل جبروه والشجيعية، ولا نحن في العريانة، عرين كبار التجار والمتنفذين كما يصفها أهل مطرح.

لم يكن لها أي خاصية سوى وقوعها على الطرف الغربي لسوق مطرح، وقربها من البحر، ومجاورتها لسور اللواتيا.

بيوتها قليلة ومتواضعة، وفيها بعض الخيام والبرستيات، وفيها مسجدان: مسجد المنذري ومسجد الخنجري، وأهلها أخلاط من عرب وبلوش. وهكذا صرنا لا نحن في حارات العرب، ولا نحن في حارات البلوش، ولا نحن مع الأغنياء كما في ولجات، ولا نحن مع الفقراء كما في لوغان، مما أشعر فريدة بالراحة، خاصة وهي تمشي على أطراف الساحل عند المساء وحيدة، تغمس قدميها في البحر، وتعب من هوائه الذي يزيح عن قلبها روائح الحريق وعفونة الشجيعية.

لكنني افتقدت نساء الحارة، خاصة نوربيبي وكولجان. أما فاطمة فكانت تمر عليَّ كل يوم، بعد انتهاء عملها في بيت الماستر علي، فتحضر معها حكايات الشجيعية بل ومطرح كلها. أما حسن

فكان يأتي كل صباح، فيأخذ مني المال، ويذهب لشراء ما نحتاجه من السوق، ثم يمر علينا مرة أخرى في المساء قبل أن يذهب إلى سهرته قرب البحر، ليتأكد من أننا بخير.

تسلت فريدة بشغل البيت الذي صار يحتاج عناية أكبر من خيمة الشجيعية، وساعدتني في صناعة اللبن الرائب من الحليب الذي تبيعه لي نساء دارسيت، ثم يوزعه صبية الحارة لبنًا رائبًا على البيوت مقابل آنات، وانشغلت كذلك بخياطة البالوار، لكنها ظلت ساهمة أغلب الوقت، لا يكاد الحزن يفارق وجهها.

وذات مساء تأخرت فاطمة لولاه عن موعدها ولم تأتِ لزيارتنا، وعندما عاتبتها أبلغتني أنها اضطرت إلى إيصال فتاة تتعلم مع ماستر علي إلى بيتها في «خب السمن»، لأن خادمتها لم تأتِ لتأخذها.

- ماستر علي يعلم البنات بعد؟

- أيوا، يعلم البنات والأولاد.

- يعلمهن القرآن؟

- يعلمهن كل شي.

- الحساب والقراية والكتابة بعد؟

- أيوا كل شي.

في صباح اليوم التالي أخذت فريدة إلى بيت ماستر علي:

تعلم البنات الكتابة؟

فاستغرب سؤالي، لكنه أجابني:

- نعم أعلمهن الكتابة والقراءة.

- أريدك تعلم بنتي الكتابة.

- بنتك كبيرة.

- صح، بس متعلمة، تعرف تقرأ القرآن، وتعرف الأرقام والحساب.

- خليها تقرأ شوية.

فقرأت له فريدة جزء «عمَّ» غيبًا، وقرأت له من المصحف آيات من سورتي البقرة والكهف، فأعجب بحفظها وقراءتها وحسن نطقها.

دفعت له مقدمًا خمسة قروش من الفضة، فاستكثرها وأراد ردها، فهمست له ولك ضعفها إن أجادت الكتابة قبل إتمام الحول، فهز رأسه موافقًا.

فريدة

لم أجد سببًا كي أرفض تعلم نقش البالوار، فأنا من أبدى إعجابه بدقة ذلك التطريز وجماله على أكمام ثياب النساء، و«البندول» أو الجيب المثلث الطويل الذي يتوسطها، كما أن أمي غمزت لي، وأشعرتني أن رفض أي عرض للنساء سيفهم تكبرًا عليهن، وعلى ما يظهرنه من ود.

ثم إني لا أجد الكثير لأفعله في البيت، وأمي لا تسمح لي بالتجول في الحارة، وهي التي تقوم بجل الأعمال التي تتطلب الخروج. كانت تعلل ذلك، بأني ما انسلخت بعد من فكرة العز الذي تربيت فيه، وأن تعود شظف حياة الفقراء يتطلب دراية وخبرة عالية، هذه الجملة الأخيرة قالتها بنبرة متهكمة، ولا أعرف إلى من كانت توجه سخريتها، لي أم إلى نفسها أم إلى القدر؟

ورغم ترددي في تعلم البالوار وتململي منه ومن كوجان التي لا تتوقف عن الهذر بالبلوشية، غير مكترثة بأني لا أفهم منها كلمة واحدة، فإنها بدت واثقة بأني سأفهم في النهاية، إن لم يكن بالكلام

فبالإشارة والإعادة والتقليد. وفعلًا فهمت، وعرفت كيف أتتبع أصابعها، وهي تغرز الخيوط، وتحيك العقد وتشكل الوحدات الملونة، التي بدت في غاية التعقيد في البداية، ثم صارت تتضح وتصبح أسهل فأسهل، فعرفت كيف أحدد المربعات، وكيف أكمل مربعًا وأبدأ في الآخر، وكيف أشكل منها نسيجًا شبكيًّا من المربعات المتداخلة والمصطفة في نظام بديع من الألوان.

استغرقتني الخيوط والإبر والرسمات، ووجدت فيها سلوانًا وتسلية عظيمة، فهي تبعد الآخرين عني، فلا يقاطعني أحد، وحتى عندما أكون في حضرة النساء، فأنا غائبة تمامًا عمَّا يحدث من حولي، ولا أنتبه إلى حديث إلا إذا لمسني أحد طالبًا انتباهي، أما أمي فكانت تراقبني وتبدي فرحها وفخرها في كل مربع أكمله.

مع الخياطة تعلمت القليل من الكلمات البلوشية وصرت أفهمها، لكني لم أجرؤ على النطق بها، إلا نادرًا، كأن أسأل كوجان عن رأيها في تطريزي، فتعبر عن إعجابها بالكلام وهزة متأنية من رأسها.

- ما كوجان، مي دوز وشي؟

- باز وشي.

لكن مع الوقت تكاثرت الكلمات، وصار لساني يتعود على نطق الحروف الممطوطة والمدغومة والمقطوفة قطفًا. تسربت الكلمات البلوشية إلى قلبي، وتكاثرت وكأنها كانت مختبئة في مكان ما من نفسي، ثم ما لبثت أن خرجت منه، حتى صارت تجري على لساني

وتخالط العربية. ولمَّا انتقلنا إلى حارة الشمال صرت أفهمها كلها، وأتكلمها وأتعامل بها مع حسن لبن وفاطمة لولاه وجاراتي اللواتي أذهب معهن إلى البحر أحيانًا.

بقي حسن لبن يزورنا، ويقضي لأمي الكثير من الحاجات في السوق، وفاطمة لولاه لم تنقطع عنا، ومعها ذهبنا إلى بيت الماستر علي.

- فريدة، تريدي تتعلمي الكتابة؟

- كيف؟ ومن بيعلمني؟

- فاطمة تقول ماستر علي يعلم البنات القراية والكتابة.

- مثل الأولاد؟

- أيوا مثل الأولاد، يعلمهن كل شي مثل الأولاد.

هنا شعرت بصوت أمي يختنق، ورأيت الدموع تتزاحم في عينيها.

- إنتِ تريدي تتعلمي؟ صح؟ بتتعلمي تكتبي وتقري وتحسبي، وكذا ما بنحتاج حد يقرأ لنا ولا حد يكتب لنا، بتمسكي كل شي وبتعرفي كل شي، إللي لنا وإللي علينا، وما حد بيقدر يظلمنا بيسة.

صباح اليوم التالي مشينا وراء فاطمة لولاه، دخلنا السور من بوابته الخلفية، أو بوابة الجنائز كما سمعت فاطمة تهمس باسمه لأمي، قالت بأن الجنائز تخرج منه إلى المقبرة في جبروه، حوقلت أمي واستغفرت، ثم أكملت طريقها في صمت.

مشينا في أزقة ضيقة، كل واحد منها يفضي إلى الآخر، عبرنا ساحات صغيرة تكثر فيها بائعات الشربة والحمص والخبز المقلي، ورأيت بيوتًا متلاصقة، متنوعة العمارة، فلا يكاد يتشابه فيها اثنان، حتى وصلنا إلى بيت مرتفع بمقدار درجات، ومطلي بالنورة البيضاء، وله شرفات معلقة من الخشب، ونوافذ مزينة بنقوش نباتات، وباب مفتوح من خشب الساج محفور إطاره بوحدات من الزهور وآيات القرآن.

عند الباب نادت فاطمة لولاه مستأذنة بالدخول، فأطل شاب ربما كان يكبرني بسنتين أو ثلاث، وفتح لنا الباب بخجل بادٍ، تبادل التحية مع فاطمة، وسمعتها تناديه بقاسم، ثم بماستر قاسم وهي تقدمه إلينا: «هذا ماستر قاسم ابن ماستر علي، بيطلع ماستر مثل أبوه». ثم سألته عن أبيه بلغة لم نسمعها تتكلمها من قبل، فأخبرها بالإشارة أنه بالأعلى، ثم حيانا بهزة من رأسه، وطلب منا الانتظار في غرفة يدخلها الضوء من نوافذ مقضبة، ثم غاب في ممر البيت.

تقدمتنا فاطمة في البيت الذي تعرفه جيدًا، حتى وصلنا إلى غرفة يدخل الضوء إليها من كوات عالية، يسقط منها مشكلًا أعمدة تنعكس على ذرات الغبار، فيصل من خلالها خفيف السطوع.

جلسنا على سجادة جميلة، لم أرَ مثلها مذ غادرنا بيتنا في وجات، استغرقت في تأمل رسومات السجادة بوردها وأغصانها وغزلانها وأسودها، ثم رفعت نظري إلى الروازن المحفورة في الجدران، والكتب المصفوفة عليها، حتى تنبهت على نحنحة الماستر علي،

الذي عرفته مباشرة، فليس إلا لمعلم أن يرتدي ما يرتديه من وقار، ثم انتبهت لزيه اللامع النظيف، فكان يرتدي دشداشة بيضاء عليها صديري أسود، تتدلى من طرفه سلسلة ساعة، مثل تلك التي كانت لأبي، ويعتمر كمة بيضاء صغيرة، ويضع عوينات دائرية على عينيه مشبوكة بسلك من المعدن.

استقبلنا الماستر بالكثير من الأسئلة حول عمري ومقدار ما أحفظ من القرآن، وتردد في قبولي قليلًا لأني أكبر من البنات والأولاد الذين يحضرون الدروس، لكن أمي عالجت ذلك الأمر بالإشارة إلى حفظي للقرآن ومعرفتي بالأرقام والحساب بفضل والدي.

طوال هذا الوقت كان قاسم يقف إلى جانب أبيه، بملامح خالية من أي معنى، حركني الفضول فاسترقت النظر إلى وجهه، لكنه لم يكن يتحرك، لا يبتسم ولا يقطب، لا يبدو عليه سرور ولا حزن ولاضيق ولا تأفف ولا فضول، لا شيء، لا شيء على الإطلاق.

تلقتنا الأزقة مرة أخرى، ومشت فاطمة أمامنا مرة أخرى، لكن في اتجاه البحر هذه المرة، لتفض بخبرتها اشتباك تلك المتاهة، وعندما وصلنا عند بوابة السور الكبيرة، أشارت إلى الاتجاه الذي سيوصلنا إلى حارة الشمال وبيتنا، ثم عادت هي أدراجها إلى داخل السور.

تظن أمي أن الكتابة وجدت لتسجيل الحسابات والديون ولأغراض التجارة فقط، ويبدو أن هذا ما علمها إياه أبي، لكن ما لم

أفهمه هو إلحاحها عليَّ بالقسم أن لا أكاتب رجلًا أبدًا، كانت تلح ولكن حتى هي لم يبدُ عليها فهم واضح لطلبها، إلا أنها ظلت تكرر ما قالته عمتي فردوس منذ سنين، لكن لماذا عساي أن أفعل ذلك؟ سألتها، فأجابتني بدهشة وكأنها لم تطرح هذا السؤال على نفسها، قالت: لا أعرف، ثم بإلحاح أشد، ظلت تردد، أقسمي، أقسمي، فأقسمت: «أحلف بالله العظيم وبالنبي محمد إني ما بكتب كلمة لرجَّال».

أقسمت كما طلبت مني، دون فهم مني ولا منها للغرض من القسم، أقسمت ونسيت، ولم أعد إلى التفكير فيه، فلقد وجدت شيئًا آخر في مدرسة الماستر علي، شيئًا بعيدًا ومختلفًا عن الأغراض التي تنشدها أمي من تعليمي، فأنا ما تعلق قلبي بالأرقام قط، ولم أفهمها إلا كما هي واضحة وصريحة أمامي، أعرف كيف أعد وأجمع وأطرح، لكني لا أفهم السر وراءها، ولماذا تشغل الناس هكذا، ولماذا يحرصون عليها، لكني شعرت منذ اللحظة الذي سال مداد قلمي فيها على القرطاس أن قلبي سال معه، ولسبب أجهله جفلت، جفلت من تلك الحروف المتراصة، الحروف التي تشكل اسمي، ف ر ي د ة.

تعلمت الحروف كلها، لكن لم تكن لديَّ قصبة أو حبر أو قرطاس، فكنت أذهب إلى البحر فأخط بإصبعي على الرمل كل الحروف من الألف إلى الياء، كل يوم أفعل ذلك، وكل يوم يأتي البحر، فيمحوها، فأعود إلى دفتر الرمل في الغد وأفعل مثل ذلك.

كنا أربع بنات وخمسة أولاد، أنا وخيران مصطفى وزهرة موسى وتيجان حسن، وحبيب بن عبد الله الرحبي، والتوأمان يعقوب وموسى مال الله، وفريد جمعة وعلي محمد، كلهم كانوا أصغر مني، إلا قاسم الذي بدا أكبرنا جميعًا، ليس في العمر فقط بل في المعرفة والفهم، فلم يكن يحضر الدروس إلا مساعدًا لأبيه، فيقف معظم الوقت في ركن الحجرة، يراقبنا بعينين ناعستين. أما بتول بنت الماستر علي فكانت ربما في الخامسة من عمرها، وأصغر من أن تلتحق بحلقة الدرس، إلا أنها كانت تنضم إلينا، تستمع إلى الدروس، وتقلدنا في ترديد الكلام وراء أبيها، وعندما تبدأ في التململ ومقاطعة الدرس، يخرجها قاسم بهدوء من الغرفة، ويأخذها لفاطمة لولاه كي تعتني بها.

لم يكن ماستر علي يسمح لنا ببري القصبات، فهذه من مهام قاسم، ومن مهامه أيضًا توزيعها علينا مع دِوي الحبر والقراطيس التي نخط عليها.

لم يكن قاسم يتكلم، ولا يجيب أباه إن أمره إلا بهزة من رأسه، ولو لم أسمعه يكلم ما فاطمة ويهمهم في أذن أبيه لظننته أبكم. لكني كنت أشعر بعينيه، اللتين رغم أنه يبقيهما شبه مغمضتين، فإني أشعر بهما، تخترقان في صمت جلبة المكان وأصوات الصبية وضحكات البنات المكتومة، ونهر «الماستر علي» المستمر للتوأمين المتناكفين، وتستقران على وجهي بين الحين والآخر، لكني كلما رفعت عيني نحوه وجدته واقفًا هناك بلا حراك، رأسه مرفوع وعيناه مسدلتا الجفون، وكأنه يتبع أحلامه إلى مكان آخر.

بعد أن تعلمت كتابة اسمي واسم أبي وأمي، وسورة الفاتحة، سألت الماستر إن كان بإمكاني أخذ القصبة والحبر والقرطاس معي إلى البيت والتدرب على خط الحروف، فالبحر لا يبقي لي من حروفي شيئًا، رفض الماستر إعطائي القصبة، وقال لي إنه يستجلب القصبات من مدينة بعيدة في إيران اسمها زنجان، وإنه لم يعد يملك منها إلا عددًا قليلًا يستخدمه في تعليم الطلبة، وإن الحرب عطلت استيراده للمزيد، وإنه لا يستطيع منحها للطلبة، خوف تضييعهم لها أو نسيانها وإتلافها. قلت له إني كبيرة وأستطيع الاعتناء بأدواتي، وألححت عليه حتى وافق بشرط أن أضع عهدة عنده مقدارها خمسة قروش.

قبل أن أغادر غرفة الدرس في اليوم التالي، ناولته القروش الخمسة، فابتسم وأمر قاسم أن يعطيني عدة جديدة تناولها من وراء أحد رفوف الروزنة، فيها دفتر ودواة حبر وقصبة، لكنه طلب مني أن أنتظر وأتعلم كيف أبريها وأعدها للكتابة، ثم غادر الحجرة، فبقيت أنا وقاسم وحدنا، هو في طرف من الغرفة وأنا في طرف.

اقترب قاسم، وجلس على ركبتيه أمامي، وفرد عدة الكتابة على السجاد، ولوهلة لم أعرف ما عليَّ فعله، أأظل واقفة أم أجلس مقابله، لكني لم أجد بدًا من الجلوس، ومراقبة يديه وهما تعملان في القصبة، شعرت بتوتر غريب في قربه، كان منكس الرأس أمامي، وفي حركة يديه رجفة خفيفة.

في البداية تناول سكينًا حادة، وقبض عليها بقوة كفه، ثم وضع

القصبة على الأرض بشكل عمودي، وبضربة واحدة أحدث تقويسًا في طرف القصبة من الأعلى إلى الأسفل، ثم كررها من الجهة الأخرى فصنع رأسا مدببًا، ثم صار يحكها ويختبرها بأصبعه حتى يتأكد من أنها صارت ملساء تمامًا، ثم أحدث شقًّا صغيرًا بين التقويسين ليسيل منه الحبر في الكتابة، وبعدها كشط قشرة القصبة، فصنع ما يشبه الظفر يخزن فيه الحبر بعد امتصاصه من الدواة.

فتح غطاء الدواة، وغمس القصبة في الحبر حتى تشبع جيبها، وفرد قرطاسًا على الأرض وخط الهمزة، فسال الحبر وتثنى ومال، ثم خط حرف الألف فاستقام كمسمار، ثم صنع مراكب من الباء والتاء والثاء، ووزع نقطها وأكمل رسم الحروف، حرفًا حرفًا، تستقيم وتتراص. كان يخطها وهو مستغرق فيها، وأنا مستغرقة في استغراقه، عيناي تتبعان حركة يديه وعقلي يخزنها، تنقبض قبضتي مع ضربات السكين، وتنفرج عندما يغمس رأسها في القصبة، ويخط على الورق تلك الانثناءات الهائمة.

وعندما تأكد من صلاحية القصبة، لف القرطاس وأغلق الدواة ومسح القصبة، ثم لفها كلها مع الدفتر في قماشة من القطن، ناولني إياها وقام دون أن ينظر إلى وجهي، أو يقول كلمة واحدة، بينما علقت كلمات الشكر في حلقي فلم تخرج.

أخذت لفافتي ومشيت إلى البيت، أمشي كمن يعدو، وقلبي يسبقني إلى أمي كي أريها غنيمتي، أخيرًا وجدت الحروف في عقلي مكانًا تستقر فيه، مكانًا آمنًا لا أخشى عليها فيه من المحو.

حسن لبن

اسمي حسن، ومراد داهوك ليس أبي، وفاطمة حسن المعروفة بفاطمة لولاه ليست أمي. الجميع في الشجيعية يعرف ذلك، بل وفي مطرح كلها يعرفون أني لقيط، وأن فاطمة لولاه تبنتني بعد أن يئست من زوجها، الذي كان كما يشاع يعاشر كل النساء إلا هي.

لم يُخفِ أحد عني حقيقة أصلي، فمنذ أن وعيت الدنيا ومراد داهوك يناديني بـ«الغبن»، سواء كان راضيًا أو غاضبًا، والأولاد الذين كنت ألعب معهم في السكة كانوا ينادونني بالغبن، حتى بعد أن انتقلنا إلى حارة الشمال، انتقل اسمي معي، فصار الأولاد يركضون ورائي وينادونني به، «حسن الغبن... حسن الغبن». ومع الوقت التصق بي حسن الغبن، وصار مثل الوسم على جبيني، فلم أعد أستطيع الفكاك منه، مهما غضبت ومهما تعاركت، ومهما تجاهلت من يناديني به.

لكن مريم دلشاد، جاءت وغيرت كل شيء.

تقول أمي فاطمة إنها وجدتني وراء خيمتها، والكلاب توشك أن تفتك بي، وإني كنت ملفوفًا في أقمطة من القطن النظيف، وإنها بذلك استدلت على أن أمي، المرأة التي ولدتني، بنت من بنات مطرح الجميلات، وإنها ربما عشقت رجلًا إفريقيًا، وإلا فكيف يجتمع لون بشرتي الأبيض وهذا الشعر الأكرت؟

كبرت واشتغلت في كل شيء، قماطًا في سوق السمك، عتالًا في خور بمبة، مقهويًّا عند باب السوق، بياعَ حلِّ تراب عند نازيمويه، بنَّاء في حارة الجبل، زبالًا في جبروه، سقَّاء في جيدان، صيادًا عندما يقبل الصيادون أن أرافقهم، عملت في كل شيء.. كل شيء.

وتزوجت، تزوجت، صبرية سبيل، اليتيمة، التي كانت زوجة أبيها تطردها من البيت، وتبقيها في الخارج ليلًا نهبًا للكلاب.

وعندما خطبتها فاطمة لولاه لي، لم تتردد أبدًا في تزويجها دون زفاف، هكذا رمت بها إليَّ، وأنا احتضنت جسدها بلهفة.

لكنها ماتت، كما ماتت أمها من قبل وهي تضع، وقالت لي فاطمة لولاه إن الكثير من النساء في مطرح يمتن أثناء الولادة، وإنه عليَّ أن لا أقلق فستجد لي امرأة أخرى، وستنجب لي أطفالًا كثيرين، وإن الموت سيأخذهم واحدًا واحدًا، وإن الحياة والموت يخرجان من بطن واحد. قالت لي: «لكن حتى الموت فيه شوية رحمة، وإذا الله أراد بيترك لك ولد ولا اثنين، تفرح بهم وتشقى».

دفنت صبرية وابنها، وما إن انتهى العزاء القصير، حتى ذهبت إلى السوق لأحمل بضاعة من دكان عبد الجواد علي إلى دكان سالم

بن عبد الله الرحبي، وأثناء انشغاله بتقييد البضاعة في دفتره، لمحت قنينة عطر «كاناواتر» كنت أرى «خوسران» كبير سكيري مطرح، يتأبط مثلها في سيره المترنح حذو السِّيف، فسرقتها وخبأتها تحت إبطي وخرجت بها من السوق دون أن يشعر بي أحد.

أوصلت البضاعة إلى دكان با عبد الله، ثم ككلب لقي عظمة، ركضت بها إلى الشاطئ، ودسست القنينة في الرمل البارد في طرف حارة الشمال، قريبًا من البحر، بعيدًا عن عيون الصيادين.

بعد صلاة العشاء، تسللت إليها وأخرجتها، حضنتها وكأنها المرأة التي فقدت، أو الطفل الذي لم أره إلا ملفوفًا في كفنه الصغير.

في تلك اللحظة، وصل مراد داهوك، لا أعرف من أين جاء، ولا كيف استدلَّ على مكاني، حاولت إخفاء القنينة، لكنه جلس إلى جانبي، وانتزعها من الرمل حيث دفنتها، فتح غطاءها، وأخذ منها جرعة كبيرة، ثم ناولني إياها، بينما أشعل غليونًا معمَّرا بالحشيش، عبَّ منه نفسًا طويلًا، ثم قال: «دوخ يا حسن، خذ نفس قوي ولا تفلت له». أخذت نفسًا عميقًا، وسعلت طويلًا، لكن الدخان تصاعد إلى رأسي.

لم يحدث شيء في لحظتها، لكن بعد قليل وجدتني أقع في وسط سكون عظيم كالبحر أو كالظلام، وكنت أنظر إليه، البحر أو الظلام، فأراه ولا أراه، أسمعه ولا أسمعه، كنت أشعر أحيانًا أنه يندلق في عيني ويفيض، وأحيانًا كنت أشعر أن عيني ممتلئتان بالرمل، فأغمضهما وأفتحهما مرارًا.

والصوت، صوت البحر، صوت الظلمة، كان يأتي من داخل رأسي، همهمة تتصاعد ثم تختفي، تتصاعد ثم تختفي، وأنا لا أعرف كيف أصدها، حتى صارت تمشي في جسمي كله. وعندما وصلت رئتي، نظرت إلى وجه مراد داهوك، فخرجت الهمهمة من جسدي كنواح ما لبث أن تحول إلى قهقهة، كنت أضحك ولا أعرف ما الذي يضحكني، حتى شاركني مراد الضحك، شاركني إياه طويلًا، كما لم يشاركني أي شيء من قبل، شعرت به كاملًا في تلك اللحظة، حتى أني أردت أن يمد يده ويصفعني، أن يقول: توقف، أن يقول أي شيء.

«شوف حسن، إنته غبن، إنته تعرف، من زمان تعرف، لكن شوفني، أنا طول بعرض، أشل السوق كله على ظهري، لكن ظهري يابس، ما فيه ماي، وما تخرج منه بذرة».

«لقيناك ورا الخيمة، جبتك، قالت لي، هذا ابن لنا، الله عطانا نربيه. أنا ما قدرت أقول لا، هي تريد ولد وأنا ما أقدر أعطيها، كانت تحسب أني أروح مع حريم الحارة، بس أنا والله عيني ما شافت غير فاطمة لولاه، هي صح لسانها طويل، وأمها مجنونة، لكنها حرمة طيبة، ربتك، وإنته كبرت، ويوم كبرت بغيت حرمة وولد، والحرمة ماتت والولد مات، وأنا بموت، وفاطمة بتموت، وأنت بتموت، كلنا نموت، الدنيا كذا».

«شوف حسن، في مطرح، كل شي موجود، كل شي، بس الموت أكثر شي موجود، نعم، الموت أسهل شي هنا، صدق والله، أسهل

شي، لكن لو ماشي موت، أيش بنسوي؟ نعيش؟ حتى متى نعيش؟ حتى يملنا الناس؟ أو ياكلنا الدود ونحن عيونا تشوف؟ نحن لازم نموت قبل ما نشوف الدود يمشي فوقنا»، «شاباش، شاباش حسن، دوخ، خلي الدخان يوصل راسك».

«... صح موت الصغير ما مثل موت الكبير، لكن كله موت، وما حد يروم له».

«الناس ما فيهم رحمة، نجي الدنيا يضربونا، أول أمك وأبوك يضربوك، وبعدين أولاد الحارة يركضوا وراك ويضربوك، وبعدين الدنيا كلها تضربك، أنا حتى فاطمة لولاه تضربني، بعدين يجي الموت ويضربنا كلنا.. كلنا.. كلنا».

«شوف حسن...».

«أنا أشوف يا مراد، أشوف، والله العظيم أشوف، بس هوه ليش ما يشوف؟».

«من هوه؟».

«إللي هناك، فوق، ليش ما يشوفنا نحن الفقراء؟ ليش ما يشوف مطرح؟».

«أوه حسن، كان كذا، هذه البلاد كلها ما شافها بعد، لكن بيشوفها، الله ما يرضى الظلم حسن، اسأل معلم بيشوك في مسجد الحارة، إنته تصلي، روح عنده وسأله، وهو بيقولك الله يشوفنا، يعرفنا واحد واحد، يشوفنا كلنا، بس نحنا ما نعرف، هو يعرف، بيشوك

يعرف، لكن أنا أدوخ حشيش وأشرب خمر، وأنت غبن ويمكن ود غبن، كيف بنعرف.. هاه؟ روح عنده، روح، هو بيخبرك».

لم أسأل معلم بيشوك شيئًا، لكني منذ ذلك اليوم صرت ماهرًا في سرقة قناني العطر.

مريم دلشاد

مرت أيام الحرب في مطرح أيضًا، لكنها تختلف هنا عنها في مسقط، فمطرح بندر يمور بالحركة ولا يهدأ، والوقت كما يبدو يمر في الحركة أسرع منه في السكون، فلم نشعر بثقل الأيام كما كانت في مسقط.

والناس في مطرح أخلاط مثل مسقط، من بلوش وعرب وهنود وحتى من الحبشة وحضرموت، لكنها تمتاز بالخوجات الذين يسكنون السور ويسمون باللواتيا، وهم تجار حذقون وأصحاب مال، ويقول حسن إنهم جاؤوا من الهند من زمن لا يذكره أحد، ثم أضاف بصوت هامس بأنهم يقرضون المال للسلطان نفسه، عندما تفرغ خزينته من معونات الإنجليز وجباية العشور، كما سمع من الرجال في السوق.

مرت سنون الحرب ونحن نعيش مستترين بتواضعنا، حتى نتأكد من يأس فردوس منا، ونتيقن من أننا بتنا في مأمن من يدها الطويلة. وفي يوم جاء حسن راكضًا من السوق ليخبرني أن الراديو

يقول إن الأمريكان ألقوا قنبلة كبيرة على اليابان، وإن خلقا كثيرًا قتلوا، وإن هتلر هرب، وإن التجار يقولون إن المحور انهزم والحلفاء انتصروا، وإن الحرب انتهت.

ركضت إلى فريدة وحضنتها وبكيت، وأخبرتها عن الحلفاء والمحور، وأنا لا أعرف من يكونون، لكني وجدت نفسي أسترجع ما قاله حسن، وتبدت لي صورة عبد اللطيف في تلك اللحظة، فرأيته أمامي وهو يردد كل صباح قبل أن يخرج إلى السوق: «الله يبلغنا نهاية الحرب بدون ما يصيبنا منها شر»، حالمًا بالعودة إلى البحر، مشتاقًا إلى السفر، أسمعه في رقاده يهذي بأسماء البلاد البعيدة، البصرة وبومبي والمنامة وبندرعباس وكراتشي.

أعاتبه: «كنك مليت من مسقط ومن مريم»، فيرد علي: «لا، ما أمل من مريم أبدًا، لكن يمكن لأن السفر صار خطر، وما يترك بيته في الحرب غير عسكري أو مجنون، ويمكن لأن الحرب تخنق، تقتلك في بيتك، فلا تجارة ولا سوق ولا حركة، تضيق الدنيا على الآدمي فيبدا يحلم بالبحر والسفر».

الله يرحمه، ما مد يده على أحد ولا أذى أحدًا، ولا سمعته يذكر أحدًا بسوء الكلام. لكن الحرب جاءت وأخذته من بيته، وهو ما كان عسكريًّا ولا مجنونًا.

انتهت الحرب إذًا، وأنا لم يتبقَّ من قروشي إلا القليل، وربما كان بيننا وبين الفقر أشهر قليلة. فريدة لم تعرف الفقر ولم تذق مرارته، لكني أعرفه جيدًا ولا أريد العودة إليه، الفقر يقتل الكرامة أول

ما يقتل، وينزع حرية الإنسان، ويقيده للآخر بحبل من المعروف والمذلة.

أنا أعرف الفقر جيدًا، وأعرف معنى نزع الحرية، نعم أعرفه وعرفه أبي من قبل، ولا نية لديَّ للعودة إلى هناك، إلى ذلك المكان المظلم من الحاجة والغبن.

لم أكن قد حكيت لفريدة من أين جئت، وعندما تسألني عن أهلي كنت أقول لها لا أهل لي، أمي ماتت وأبي ربما مات، لكنني عندما تحسست القروش القليلة التي تبقت لنا أخبرتها بنتف من حكايات لوغان وحكايتي وأبي كاملة.

«الحاجة تذل وتترك الإنسان بلا حبيب ولا صديق، والفلوس تعز. في لوغان كنت صغيرة وجاهلة، وما كنت أعرف شي من كل هذا، لأن الناس في الفقر كلهم متساوين، ما لهم لا حول ولا قوة. لكن شدة الفقر تقسي القلب، تخلي الناس تتضارب على القليل، لقمة عيش وحبة تمر، أي شي يسد جوع بطونهم، فيبيعوا حتى أولادهم».

«الحياة تحتاج قروش وأبوش كان تاجر، تاجر شاطر، وكان يقول لي دايمًا إنها لفلوس ما شجرة وتنفض ورقها، ولو هي شجرة بعد تحتاج حد يسقيها ويسمدها وإن ما سقطت ثمرتها لازم الواحد ينفضها بعصا».

«الحرب خلصت، والدنيا بترجع مثل أول، السفن رايحة جاية، والناس بتطلع فلوسها وبتبيع وبتشتري، ونحنا لازم نتحرك ونمشي مع الناس في السوق».

«أنا ما أعرف أكتب وأقرأ، لكن أنت لازم تتعلمي، وأنا أريد أشتري القماش وأبيعه، أريد أسوي دكان في السوق، وإنتِ تكتبي كل شي، كل البيع والشراء، إلي يلنا عند الناس وبو علينا للتجار».

طلبت من حسن لبن أن يرافقنا إلى السوق، فصار يمشي أمامنا في طريق لم نعهده، فدخلنا من نازيمويه، وعبرنا الساحة أمام باب الجنائز حيث يصطف الباعة ينادون على الطعام الذي يبسطونه أمامهم في صوانٍ من المعدن، ثم عبرنا حارة الهنود، ومشينا حتى حارة النجارين، فدخلنا السوق دون أن نحاذي البحر، ثم مشينا في أزقة ضيقة، الواحد منها يفضي إلى الآخر، حتى وصلنا إلى زقاق لا يدخله إلا قليل من الضوء. قال لي حسن لبن: هذا سوق الصاغة، وأشار إلى دكان في طرفه، فمضينا إليه وأنا أجرجر قدمي، كمن به حُمَّى أو أَوْهَنه المرض.

وقفت أمام دكان محمود بن عبد الله الميمني قليلًا لألتقط أنفاسي وأهدئ خاطري، نهرت نفسي عندما ترددت، وذكرتها أن كل ما في الأمر أني سأبيع فضة، هكذا كنت أحدث قلبي وأقويه، وأعده ليكون قلب تاجر، لا يكشف نفسه في سوق مطرح.

أمرت حسن لبن بأن يبقى في الخارج، ودخلت مع فريدة، ووضعت الصرة الثقيلة التي أحملها تحت البويبوي أمام الرجل المسن، الذي يجلس منكبًّا وفي يديه مطرقة صغيرة ومسمار يسير به طرقًا على قطعة من الفضة.

رفع الرجل عينيه، فتح الصرة وسأل: بيع ولا رهن؟ فأجبته،

من تحت الغشوة: بيع. قلتها وأنا أشعر بالشوك ينبت على لساني وفي حلقي وينتشر في صدري. مع ذلك حرصت على أن يكون صوتي واضحًا، لا تردد فيه.

لكني كنت أشعر أني ومع كل قطعة توضع في كفة الميزان مقابل المثاقيل الصغيرة، أفقد قطعة من قلبي، ومن عبد اللطيف وأوقاتي معه: ضحكنا في الفراش، اللقم التي أدسها في فمه ليجرب صنفًا جديدًا علمتني فرشوه إعداده، جلوسه أمامي يخبرني بحماس عمّا يحدث خارج البيت، في مسقط وعمان وفي الدنيا، همسه بالأغاني في أذني، أصابعه التي تمتد لتتشابك مع أصابعي وكل عصب في جسدي، رائحة الهيل والمسك والعود في أعطافه، فرحته بفريدة، وبكل خطوة خطتها على الأرض، وبكل حرف تعلمته وبكل آية حفظتها.

الصيغة مال راكد، لكن الفضة إن صارت قروشًا سالت ونفعت، أستعيد صوت عبد اللطيف وهو يقول لي: «فضتك زينة وخزينة». فعرفت الزينة في حياته، ولم أفهم الخزينة إلا بعد موته: «القلوب الضعيفة ما لها مكان في السوق، التجارة مصلحة، والمصلحة عقل وشطارة وفرص، والتاجر الشاطر يترك قلبه في بيته ويخرج للسوق بقروشه بس». فكنت مضطرة إلى خلع قلبي عند عتبة داري، والخروج إلى السوق بعقلي وصيغتي فقط.

ورغم أني قد بدأت أول سكني في حارة الشمال، في صناعة اللبن، وعقود الياسمين التي كانت تجلب لي من مزارع البستان

بالقوارب، واستعملت بنات حارتي الشمال والشجيعية في بيعه في السوق، ثم تجرأت قليلًا، فصرت أصنع حلوى الحليب الذي توردە لي النساء من دارسيت، وبيعها في صوانٍ تجلس بها البنات في نازيمويه والكمبار وقرب بوابة السور الكبيرة المواجهة للبحر، إلا أني كنت أعرف أنها تجارة ما أريد منها إلا الستر، فصناعة اللبن الحامض وحلوى الكبيراهْ وبيع عقود الياسمين، لم تكن تجارة توفر ربحًا مجزيًا، بقدر ما كانت وسيلة للتخفي وراء مدخل للرزق البسيط، فلا يظن أحد بنا الغنى، ويعرف ما حملناه معنا، وأيضًا لجذب قلوب أهل الحارة نحونا.

فالغرباء بحاجة إلى مد جذورهم في الأرض الجديدة التي يطؤونها، وأن يجدوا لهم مكانًا بين الناس بالمعروف. ويحتاجون إلى الصبر، الكثير من الصبر، وهذا تعلمته في بيت لوماه على يد ما مويزي وأنا أتقرب بأواني السخانة والغريبة والخبيصة إلى فردوس.

مداخل أهل حارة الشمال سهلة، ففي هذا الفقر، الكل بحاجة إلى المال كثيره أو قليله، دون أن يكون فيه منة من أحد أو صدقة، فالغريب المحسن وإن تقبل منه العطاء يبقى غريبًا، أما إن اشتغلت معه وكسبت رزقك، فسيفتح العمل بينكما بابًا، ومنه ستدخل الأقدام، ثم ستأتي القلوب تباعًا، ولو أني بعت صيغتي أول وصولي، لشك الناس في أصل المال الذي نحمل، وتقدم الطمع على المعروف والمصلحة على المحبة، وهذا ما أعرفه أنا، ولم يعلمني إياه لا عبد اللطيف ولا ما مويزي.

فاطمة لولاه كانت تحذرني، وتقول إن ما أفعله لا جدوى منه، فالناس ما إن تنقطع عنهم اللقم حتى ينقلبوا عليك، لكني كنت أرى غير ذلك، فالإحسان حبل غليظ بين الناس، وأظن أن حكاية حسن كانت دليلًا على ما أردت الوصول إليه، نعم، حسن ابن فاطمة لولاه، الذي ما كان سيحدث له ما حدث، لولا أني تركت الباب مفتوحًا.

فالجميع يعرف أن حسن لا يعود من البحر إلا متأخرًا، فهو يسكر عنده في أول الليل، ثم ينام قليلًا عند الساحل حتى يستعيد ذهنه، ثم يذهب إلى البحر فيغتسل، ويعود إلى بيتهم بعد صلاة الفجر، وقد خبأ سكره عن فاطمة لولاه، لكن الجميع كان يعرف أن فاطمة كانت تعرف وتسكت.

لكن أحدًا لا يعرف أي سكرة عظيمة جعلته يأتي إلى حارة الشمال بدل الذهاب إلى بيت أمه في الشجيعية، وربما وقع بعض اللوم علي، فقد تركت الباب المفضي إلى الزقاق مواربًا، وتركت المرجل في وسط الحوش مكشوفًا، وذهبت لإيقاظ فريدة لتساعدني.

حسن وجد باب البيت مواربًا، وربما دقه ولم يسمعه أحد، ولا بد أنه كان مشوشًا جدًّا، فدخل مترنحًا. أما أنا فقد سمعت صوت سقوط شيء ما، فخرجت مسرعة وفريدة ورائي، فوجدت حسن وقد سقط في مرجل الحليب، ونام داخله وقدماه وذراعاه متدلية في الهواء.

بدأت فريدة بالصراخ جزعة، أما أنا وليسامحني الله فبركت

في مكاني، وكدت أن أتقلب على الأرض من شدة الضحك، وعندما سمع الناس صراخنا وضحكنا، جاؤوا لاستطلاع الأمر مفزوعين، وتحلق الرجال والنساء والأطفال حول المرجل، وبعد أن تلاشت ضحكتي، قمت وسحبت حسن، ثم تناولت جرة ماء، وسكبتها على رأسه، وعندما استفاق، ووعى ما حدث، وقف منكسًا رأسه، فتأملت جسده الضامر وتهدل كتفيه، وشعره الذي بدأ الشيب يخالطه وهو ما زال شابًّا لم يتعدَّ العشرين ربما، وتلك النظرة الذليلة، المكسورة، التي ذكرتني بنظرة أبي وهو يتركني عند باب بيت لوماه.

- سامحيني، ما شفت اللبن.

- هذا ما لبن حسن، هذا حليب.

- لا، لبن، شوفي، شوفي حامض.

وأدخل إصبعه في المرجل وأخذ لحسة من الحليب:

- حامض، شوفي، حامض.

ذقت اللبن بطرف لساني، فوجدته حليبًا لم يتغير طعمه، لكن ما جدوى مناقشة سكران.

- سامحيني، ما أعرف كيف وصلت هنا.

تأملته طويلًا، وذاب قلبي حزنًا عليه، ففاطمة كانت قد أخبرتني قصته، كيف وجدته منبوذًا عند المزابل، وكيف تربى في صياح الأولاد عليه ومعايرته.

كان الجميع من حولي صامتًا، وكأنهم كانوا ينتظرون مني أن أنطق بالحكم عليه: «سميت الحليب لبن يا حسن! عشان كذا بيكون اسمك من اليوم حسن لبن، وبتشتغل عندي مدة شهر بدون أجرة».

كنت أمزح بشأن اسمه الجديد، لكن ما إن نطقت به، حتى رفع رأسه، ونظر إلى وجهي بعينين مذهولتين، ممتلئتين بشيء لا أعرف كيف أصفه، ثم صار يدق على صدره بكفه، ويتوجه إلى الناس المتحلقين حولنا: «أنا حسن لبن. اسمي حسن لبن.. اسمي حسن لبن.. سمعتوا حسن لبن». ويهز رأسه وكأنه يريد منهم إقرارًا بذلك، ثم اخترق صف الناس المتحلقين واختفى.

ناولني الصائغ صرة كبيرة من القروش، ثم انتبه للحرز الذي صارت فريدة تعلقه حول عنقها منذ انتقلنا إلى حارة الشمال، وسألني وهو يطيل تفحصه:

- من وين هذا الحرز؟

- وارثتنه من أمي.

- هذي صناعة نزوى، ممكن أشوفه؟

خلعته فريدة، وناولته الرجل، فصار يتفحصه، ثم صار يهزه، ويستمع إلى الصوت في داخله بتركيز، وهو مقطب الجبين:

- تبيعيه؟

- مشكور.. ما لنا حاجة في بيعه.

أخذت الحرز وصرة القروش، وجررت فريدة خارج الدكان

وغادرنا. وصلت حيث يقف حسن وأنا أرتجف، عرفت في نبرة الصائغ ما هو أكثر من الطمع في الحرز، شعرت بالخوف رغم أنه لم يقل ما يثير.

فاطمة لولاه

كانوا يرسلون في طلبي في أي وقت من اليوم، ولم أكن أقول: لا، أبدًا.

في النهار يجدوني إما في نازيمويه أبيع اللولاه في أول الصباح، فأتبعهم وأترك صينيتي لدرويش ابن عواش كناره، ليكمل بيع ما تبقى، أو يلحقون بي إلى داخل السور، فيجدوني في بيت ماستر علي، حيث يعرف الجميع أني أخدم هناك من الضحى حتى صلاة العصر، أما من بعد العصر فكانوا يجدوني في خيمتي قرب المزابل في جبروه.

كانوا يأتون، وكنت أحمل صرتي وأتبعهم، فهناك امرأة متعسرة ولادتها في بيت من بيوت مطرح أو في عريش أو خيمة من خيامها، أو هناك من احتاجت إلى خبانة أو تنكيس أو معالجة بأعشاب النفاس.

ورثت شغل القابلات عن أمي، التي علمتني كل شيء قبل أن تعرف بأنه لن يكون لي ولد، ولا حتى واحد ليسليني أو لأشقى به.

تزوجت مراد داهوك، أقوى عتال في سوق مطرح، الرجل الذي عندما يمر في الأزقة، تخرج النساء ليلاقينه مدعيات الصدفة، فيغطين وجوههن بأطراف وقاياتهن، ثم يرسلن وراءه النظر حتى يختفي.

مراد الذي كان الهمس حوله لا يتوقف حتى بعد أن يتوارى ظله، بل يتحول إلى نظرات غيرة أو إلى ضحكات صغيرة مكتومة، تحاول النساء مداراتها بالصريخ على أولادهن وأزواجهن.

مراد الذي كانت له ساقان إذا ما انكشف عنهما الإزار، كانا مثل عمودين يرتكز عليهما السوق ببضاعته وحمَّاليه وتجاره ومخازنه ودروبه المسقوفة.

مراد بظهره القوي المصقول الذي لوحته الشمس وغسله العرق، فكان يلتمع مثل قطعة ذهب يخرجها عبد الله الميمني من خزينة دكانه لتتزين بها العرائس، فيعمي عيون البنات.

مراد الذي كان يطفئ حرائق جبروه والشجيعية، عندما تقبض النار على الخيام والعرشان، دون أن يمسه من لهبها شيء.

مراد كان أقوى رجل في مطرح وأجملهم، وأنا عشقته.

لم يحدث ذلك في السوق وأنا أبيع خبز اللولاه، وأراقبه وهو يحمل البضاعة، وينقلها على ظهره من مخزن إلى آخر، أو وهو يجر كالثور عربة كدَّس فوقها جبلًا من الشوالات.

لكني أحببته عند البحر، وأنا أغسل ثيابي وثياب أمي.

هناك رأيته يحمل طفلًا من أطفال الصيادين، ويركض به جيئة وذهابًا فوق الرمل، فيترك حفرًا من آثار قدميه الضخمة عليه، ما تلبث أن تمتلئ بالماء، وتصير بيوتًا وبركا لسرطانات البحر.

من مكاني كنت أسمع كركرات الطفل التي لا تنقطع، وتمتزج بضحكات مراد العالية كموج البحر، وعندما اقترب سلوم الشمس ناول الولد لأبيه، ودخل البحر عاريًا إلا من الإزار الذي يرتديه، فسبح حتى غاب عن ناظري، وأنا بقيت هناك أفرك الثياب، وأنتظر خروجه من الماء. كان الضوء شحيحًا عندما خرج، لكني رأيته، كان إزاره ملتصقا بساقيه وملتفًّا حولهما، وأنا كنت في مكاني أناظره من بعيد، لكنه استدار صوبي، وابتسم، نعم، ابتسم، رأيت التماعة أسنانه، فشعرت بوخزة في قلبي، أو وكأنه بتلك الأسنان البيضاء الكاملة، عض قلبي وترك علامته فيه.

صباح اليوم التالي، رأيته وهو يقطع نازيمويه، فناديته وناولته خبزة لولاه، فأكلها بنهم، ثم صار يعود كل صباح إلى خبزي، وبعد شهر لاقاني في أحد الأزقة فاقترب مني، لكني صددته بعيني وبيدي، فجاء إلى خيمتنا، وقدم إلى أمي عشرة قروش من الفضة وشوالًا من الحبوب، فقبلت أمي.

سريعا زوَّجتني أمي، وسريعة مرت الشهور، وانتظرت أن يكبر بطني مثل بقية النساء، أن يصبح بحرًا، تسبح فيه أسماك مراد الصغيرة، لكن رحمي لم يقبض منه شيئًا، فصارت الشهور والسنوات تمر بطيئة بيننا.

فحصتني أمي، مسحت بطني وظهري ورحمي، وقلبتني بين يديها وهي تدهنني بمراهمها وزيوتها أو تدس كورًا من الأعشاب في رحمي لتطهره، ثم خبنتني ونكستني، وسقتني كل الأدوية والأعشاب التي تعرفها، فعلت كل ما تفعله مع النساء الأخريات، لكن رحمي ظل فارغًا، وبعد سنوات من العلاج، همست لي بأن رحمي لن يمتلئ أبدًا.

سرى الهمس في مطرح أن ماء مراد داهوك ميت لا حياة فيه، وسار الكلام بعيدًا، بعيدًا جدًّا، فطاف الأزقة والحواري ودق البيبان، وجالس النساء، وعبر من بوابة إلى بوابة، ثم عاد إلى جبروه، ووصل عند مراد محملًا بكلام جديد، لم أقله أنا وتحلف أمي أنها لم تقله.

عندما سمع مراد أني أقول إنه لا طاقة له بالنساء، عاد إلى البيت مثل المجنون، فطرد أمي ونعتها بالساحرة المجنونة، وكاد أن يطلقني، لولا أني سبقته، وعضضت يمينه بكل قوتي، فما خرجت الكلمة منه، لكنه وقف هناك ينفض يده موجوعًا، ويخور مثل ثور والشرر يتطاير من منخريه.

منذ ذلك الحين وحتى هذه اللحظة لم يلمسني، في البداية قلت: هو غضبان وسيعود عن غضبه، لكنه لم يعد، بل بدأت أسمع عن حكاياته مع نساء أخريات في أزقة السوق والحواري البعيدة، ثم تكاثرت الحكايات فادعيت أني صماء لا تسمع، عمياء عن حركات الأيدي والعيون والأفواه.

قالت أمي طلقيه، وتزوجي غيره ترزقي بولد أو بنت، فخاصمت أمي طويلًا، ثم صالحتها، فأمي لم تعرف العشق ولم تذق منه شيئًا. نعم، كنت أريد طفلًا، لكني كنت أريد مراد أكثر من أي شيء في هذه الدنيا.

وفي ليلة من الليالي جاؤوا ليطلبوني بعد انتصاف الليل بقليل، امرأة برفقة رجل، استغربتهما، وحتى عندما كشف القنديل عن وجهيهما، عجزت عن التعرف عليهما، مع ذلك أخذت صرتي، ومشيت وراءهما دون كلام، فأنا لا أعرف أهل مطرح كلهم، لكني لا أتردد في إغاثة امرأة.

كانت ليلة باردة من ليالي أواخر شعبان، ورمضان لم يولد هلاله بعد، فمشينا في دروب لم أعرفها، وأزقة لا أذكر أني خطوت فيها، كان الظلام ثقيلًا كالكحل، لكن القنديل الذي يحمله الرجل أضاء الدرب، حتى وجدت نفسي بعد مدة أقف عند بوابة لم أقف أمامها من قبل، تقدمت المرأة ففتحت الباب بحذر، وأمرتني أن أتبعها، وأن أنتبه فلا أصدر صوتًا، فتبعتها في الظلمة مسترشدة بحفيف وقايتها وهي تسحبها على الأرض.

مشينا حتى طرف الحوش، وهناك نزلنا الدرج إلى سرداب مظلم، به فراش وسراج تتذبذب نار فتيله وامرأتان، شابة تتلوى من ألمها، وماؤها مختلط بالدم تحتها، وعجوز تراقبها من زاوية بعيدة بعينين باردتين.

أمرت العجوز الخادمة بأن تساعدني وخرجت، وعندما عادت

كنت قد لففت الطفل بقماطه الأبيض المشغولة حوافه بعقد من الخيوط الحمراء، ووضعته في حضن أمه الباكية لترضعه، تناولت العجوز الطفل من يد الشابة، وهمست لها بكلام لم أسمعه، لكني رأيت أثر سمه على وجهها الجميل، ورأيت صرخة عينيها المكبوتة، وهي تراقب العجوز تخرج بالطفل وتختفي.

نظرت إلى وجه الشابة قبل أن أخرج، كانت جميلة مثل بيبي ماهتون زوجة السيد أحمد صاحب جلاب، التي كنت أرافق أمي إلى بيتهم في الأعياد، فتأمر الخادمات بأن يناولن أمي من لحم أضاحيهم.

بيبي ماهتون التي قالت لي أمي، إن أمها «مهر خاتون» جاءت إلى مطرح مع أبيها من بندر عباس قاصدين الحج، لكن سفينتهم غرقت قبالة الساحل، وكانوا هم من ضمن القلة الذين نجوا ووصلوا مطرح بين الحياة والموت، فاستضافهم رسول بخش شيروك، وعندما رأى البنت، بهر ببياضها ولمعانها كقطعة فضة تبرق في الشمس، فتزوجها وأنجب منها عشر بنات، كل واحدة منهن أجمل من أختها، صاهر بهن الأعيان في مسقط ومطرح، إلا واحدة، جاء ابن خال لها من بندر عباس، فتزوجها وعاد بها إلى بلادهم.

ماهتون لم تنجب إلا الصبيان، وبحسب ما قالت أمي كانوا سبعة، تبقى منهم جلال وشهبار وشاروه، أما الأربعة الآخرون فأخذتهم الكوليرا.

دققت النظر، حاولت أن أتعرف عليها، من تكون؟ ومن هذه العجوز؟ هل رأيتها من قبل؟ هل صادفتها في مكان أو عند أحد؟

لكني لم أتبين شيئًا، فالعجوز لا تلبس مثل لباس البلوش ولا تتحدث مثلهم، ولا تتحدث مثل العرب أيضًا، بدت لي غريبة، في كلامها وحركتها، وكأنها ليست من مطرح، لكنني مع ذلك كنت أشعر أني أعرفها، رغم أني لم أستطع التعرف على شيء في ذلك الضوء الخافت، إلا على الخوف في عيني الشابة وهما يتبعاني برجاء وأنا ألملم خرقي وأتجه إلى الباب.

أوصلني الخادم إلى عند خيمتي، وناولني خمسة قروش من الفضة، كان هذا أكثر مما تقاضيته في حياتي كلها من عملي كقابلة، رفعت إليه عينين مليئتين بالأسئلة، لكنه وضع إصبعه على شفتيه، ففهمت، ولم أنطق بعدها أبدًا بكلمة.

في ليلة المنتصف من رمضان وقبل السحور بقليل، سمعت أصوات خطوات وراء خيمتي، ثم تعالى صوت بكاء رضيع، فلكزت مراد، ورجوته أن يخرج فيستطلع الأمر، لكنه عاد وبين يديه رضيع لم يكمل الشهر، ملفوفًا بقماط من القطن شغلت حوافه بعقد خيوط حمراء، تناولته منه بلهفة، فسقطت من القماط صرة ممتلئة بالقروش.

قلت له هذا ولدنا، جاء من عند الله، لكن مراد غضب، احمر وجهه ونز العرق على جبينه، وكعادته لم يتفوه بكلمة، ناولني الرضيع وأخذ المال وخرج، وعندما عاد قبل مغيب الشمس، أخبرته أني أسميته حسن، على أبي، حسن جنجلان.

قال: «جنجلان ولا لشكران، الناس كلها بتعرف إنه ما ولدنا».

لم يسأل أحد عن الرضيع، لكن عند فجر كل عيد فطر كنت أجد عند باب الخيمة قطعًا من اللحم، ووعاء من الحلوى.

قلت لمراد هذا الولد جاء ورزقه معه، فأشاح عني، وحاول أن يترصد للشخص الذي يحضر الحلوى، لكنه كان مثل الجني، يترك الحلوى في مكانها، ويختفي قبل أن ينتبه له أحد.

وفي المرة الوحيدة التي تمكن مراد فيها من إبقاء عينيه مفتوحتين رغم سكره، وتبع الرجل في أزقة مطرح، عاد بكدمة تحت عينه اليسرى وكسر في أنفه.

عرف الناس أن حسن لقيط وجدناه وربيناه، فنعتوه بالغبن، وعندما لم أطق ألسنة الناس في جبروه، ابتعدت به واكتريت هذا البيت في الشجيعية. فكبر حسن وتزوج، وحلت به مصائب الدنيا هنا، وبقيت السبة ملتصقة به، فلم يستطع أن يتخلص من «الغبن» الذي صار كنيته، حتى سقط في مرجل مريم دلشاد. يومها جاءني البيت بعد الفجر، وأيقظني من نومي:

«ماه.. ماه.. فاطمة لولاه... أمي، قومي.. قومي.. أنا التو حسن لبن.. خبري كل حد اسمي حسن لبن».

مريم دلشاد
مكتبة
t.me/t_pdf

مع الوقت نسي الناس أيام الحرب وشُحَّها، وما هي إلا سنتان أو ثلاث حتى خرجت القروش من مخابئها، وانتعشت التجارة، وتوفرت أنواع البضائع، وراجت تجارة الأقمشة أكثر، ورمليكداس، أكبر مستوردي الأقمشة وتجارها، عرض عليَّ سعر جملة أقل، على أن لا آخذ أقمشة من غيره، فأضفت إلى صرر الأقمشة، بكرات الخيوط والزري، والأمشاط والعطور.

كنت أختار بضاعتي بحرص، فأقسمها إلى نوعين: نوع لبيوت صغار التجار، ونوع للبيوت الكبيرة الميسورة في العريانة وجيدان. النوع الأول كانت تذهب به البنات إلى الحارات، من بيت إلى بيت، أما أنا فكنت أذهب إلى بيوت بعينها، تعرف نساؤها قيمة النفيس والنادر.

في بيت لوماه عرفت ما يعجب نساء البيوت العالية، أي الأقمشة وأي الروائح تطيب لهن أكثر، وهذه كانت ميزتي، وهذا الذي لم يستطع أحد منافستي فيه، فأنا أدرى بهؤلاء النساء، وأعرف

كيف أرضيهن، فقد كنت أعرف أن القيمة التي يبحثن عنها ليست في ملمس القماش ولونه ونوعه فقط، بل في المنافسة بينهن، أيهن تقتني الأغلى والأندر، كن يتنافسن على الأشياء الصغيرة، فعالم البيوت المغلقة ضيق جدًّا، تحده الجدران وكلام الناس. وأنا أعرف ذلك أكثر من أي بياعة في مطرح، وبهذه المعرفة كنت أدخل البيوت، فأبيع لهن الصورة التي يردنها لأنفسهن، صورة تشبه صورة فردوس عن نفسها، الصورة التي توهمها بأنها بما تملك، تصبح أعلى بدرجة أو ربما بدرجات عن الآخرين.

حظيت بثقة التجار البانيان، ثم بثقة نساء البيوت العالية، ثم جاء ناصر لزيارتنا، وأخبرني أنه لاقى سخي الذي أخبره بأن فردوس وزوجها رحلوا إلى المنامة واستقروا فيها، فلم أعد أخاف، لا من فردوس ولا من سلطة بيت لوماه.

منحني بيت لوماه الكثير، الكثير جدًّا، لكن الحياة عادت وأخذت الكثير أيضًا، وحتى لا أكون ناكرة للمعروف وكافرة بالنعمة، أقول بأنها أبقت لي بعض الأشياء، فمن أمي التي لم أرها بقي الجمال الذي أسير به وفريدة بين الناس، ومن أبي هذه الضحكة الفارعة، التي وإن أحرجتني أحيانًا، فإنها تخفف عني الكثير، ومن عبد اللطيف، الصيغة والقروش والكلام الذي كان يقوله، فيستقر في قلبي وعقلي وكأنه ينقش في دفتر، وفريدة، وفريدة معي، وستبقى معي إلى الأبد، ولن تستطيع فردوس أن تنال منها شعرة واحدة.

ليست الأمور سهلة في مطرح، وطريق الغريب صعب فيها،

لكني أيضًا كنت أشعر بأن الحياة ستفتح لي باب الرزق هنا، وستعطيني أكثر مما أعطتني في وجات، فمطرح ملتصقة بمسقط كأنها فلقة توأم، إلا أنها كما كان عبد اللطيف يقول عندما يذهب إليها في عمل أو زيارة للتجار: «السوق والفلوس في مطرح والحكومة والقناصلة في مسقط، والواحد لازم تكون له رجل هنا ورجل هناك»، وأنا لي رجل واحدة فقط، وأعتمد على تجار البانيان في توريد البضاعة، وهذا مناسب لي حتى الآن.

كانت هذه الأفكار تشاغلني عن نفسي، وأنا أخرج من بوابة بيت آل داوود في جيدان، فنسيت أن أسدل الغطاء على وجهي، وتنبهت فجأة أن للدكاكين وبضاعتها ألوانًا أزهى عمّا اعتادت عيناي رؤيته أثناء سيري فيه من قبل.

امتدت يدي إلى الغشوة أريد أن أرخيها على وجهي، عندها التقت عيناي بعينيه، كان واقفًا هناك يراقبني، ومثل رجل لا يخاف شيئًا كان ينظر إليَّ، وأنا بلا خجل وقفت في مكاني، أبادله تلك النظرة الطويلة.

ثم صار يتقدم نحوي في ثياب العسكر، فجمدت في مكاني، كل شيء فيَّ يدعوني إلى الفرار، وقدماي تتيبسان، وتخذلان تسارع وجيب قلبي.

اقترب، وكانت عيناه لا تحيدان عني، ينظر إليَّ وكأنه يعرفني، وأنظر إليه وكأني أعرفه، وأن وقوفي هناك كان على موعد وانتظار، لكن المقهوي عبر بيننا فجأة، وهو يهز فناجينه باحثًا عن شاربين.

انقطعت النظرة، فلملمت نفسي، وأسدلت غشوتي، وغذذت خطاي إلى خارج السوق، أكاد أن أتعثر بطرف البويبوي، وصرة القماش على رأسي توشك على السقوط، أمرُّ بأهل السوق ولا أراهم، لا الباعة ولا العتالين ولا المشترين، لا أرى أحدًا إلا ذلك الرجل، وعينيه اللتين مثل السهام.

تسارعت خطواتي حتى وصلت عند مخرج السوق، وعندها وقفت لحظة لألتقط أنفاسي، ونظرت ورائي على عجل فلم أجده، أعدت النظر أبحث عنه، لكنه لم يكن هناك.

وصلت بيتي مشوشة والعرق يتصبب مني، وعندما رأتني فريدة على ذلك الحال، أنزلت الحمل عن رأسي، وناولتني كوب ماء، فغسلت وجهي به قبل أن أشرب منه، لأبدد غبش ما حصل وأستعيد نفسي. جلست على أرض الحوش، فجلست فريدة قبالتي، وبدأت عيناها بالسؤال، فاضطررت إلى أن أكذب وادعيت أن كلبًا كان يطاردني، وأني رميته بحجر تلو حجر، لكنه ظل يتبعني، فركضت من عند طرف سور اللواتيا حتى البيت.

- إنتِ خيفانة؟

- لا، ما خيفانة، خلاص دخلت البيت، وإنتِ هنا، ويش بيخوفني في الدنيا وأنا في بيتي وإنتِ معاي؟!

في داخلي أيضًا كنت أردد ما قلته لها بصدق، فأنا في البيت الآن وهي معي، وهذه طمأنينتي وكل ما كنت بحاجة إليه.

أزحت صورة الرجل من رأسي، وطلبت من فريدة أن تحضر دفاتر الحساب، فأُملي عليها أسماء النساء، من اشترت وماذا اشترت، وكم اشترت من الياردات، ومن دفعت في لحظتها ومن وفت دينها، ومن أجلت الدفع.

أُملي كل شيء على فريدة، فتكتبه فلا يضيع منه شيء، وأنا أفعل ذلك كنت أتأمل القلم وسيره بين أصابعها، رأيتها تشرق في كل حرف وكل رقم تكتبه في الخانات الطولية.

فريدة تعرف الأرقام والحساب، لكنها لا تعرف التجارة: «التجارة ما بس بيع وشراء، التجارة حس، كنك تشم الريح قبل هبوبها، وتعرف من أي جانب بتجي، وتسبق غيرك، تفك شراعك وتطاردها وتصيدها قبل أي حد ثاني، التجارة ما أرقام وزايد وناقص، التجارة مثل البحر هوا».

هكذا وصفها لي عبد اللطيف، عندما سألته لماذا لم يقدر حميد بن عبد الله على أن تكون له تجارة تخصه بعيدًا عن دكانه، وهو رجل ممتاز في مسك الدفاتر والحسابات، كما وصفه هو نفسه.

وربما لهذا يمكن لفريدة أن تجيد الحساب لكنها لن تصبح تاجرة أبدًا، فمن لا يحدس بهبوب الريح ليس بتاجر، ومن لا ينتهز الفرص ليس بتاجر، ومن يترك مكانه ليتوسع فيه الآخر ويثبت رجليه دون أن ينال منه المثل أو أكثر ليس بتاجر، ومن لا يستخدم كل ما يحدث ويحوله إلى مصلحته ليس بتاجر.

اشتريت الدكان، ولم يعرف صاحبه أني سأجلس فيه، وأتاجر

منه، ظن أني سأتركه لصبي من صبيان السوق يبيع ويشتري فيه ثم يأتيني بالغلة، لكنه مالي، بل كل مالي، ولن أسلمه لأحد.

في البداية كانوا يمرون عليَّ وأنا أنظفه مع حسن لبن وأصف فيه البضاعة، فيتهامسون، ثم ينادون حسن ليسألوه. كنت أرى أصابعهم تمتد بالهمس إليَّ، فتجاهلتهم وأمرت حسن أن يتجاهلهم كذلك، وصرت أقضي وقتًا أطول في الدكان، لكنني لا أخرج منه، أرسل لرمليكداس، فيأتي إليَّ ويعرض بضاعته بين يديَّ، ثم صرت أطلب منه أن يحضر لي عينات من الهند قبل التوريد، فأختار ما يورد في كل موسم، وأدفع إليه نسبة أكبر فلا يورد لغيري، وهكذا صرت أحدد ما يلبس في مطرح ومسقط من الثياب، من أنواع الخامات، حتى الألوان والنقشات.

فاستوردت الململ والترون والبوبلين والكيمري والجزراتي والبريسم والأطلس والشيناوي والدرياهي والشيت والمخمل. وأطلقت الأسماء على كل نقشة ترد، فأول ما تقع عيناي عليها تهمس كل نقشة باسمها في أذني، فتسير بو شواهد والخنايري وبو رسمة والزليبيا وبو كازوة وبو وردة وبو طيرة بين النساء، وتشتهر بها البضاعة والدكان.

صرت أحدد حتى اللون الذي يشيع في كل عيد بين النساء، فيسود على غيره من الألوان حولًا بأكمله، وما كنت أحضر ما يناسب لبس نساء مسقط ومطرح فقط، بل ما يناسب كل عمان من نزوى حتى صحار وبلاد الشرقية، ما عدا صور، فأهل صور

يستوردون من الهند مباشرة، لكن مطرح هي البندر، والناس تتحدر ناحيتها مرة أو مرتين في السنة، فتقصدها لشراء الثياب على أنواعها، خاصة أقمشة الأعياد والأعراس.

وكنت أوصي البائعات اللاتي صرن يعملن معي، فيبسطن أمام مستشفى طومس، ويصطدن زبائنهن في أول خروجهم من المستشفى، وقبل حتى أن يصلوا باب السوق الشرقي، ويضيعوا في أزقة خور بمبة.

كل صباح، وقبل أن يبدأ التجار بالوصول إلى دكاكينهم، أكون قد جلست وسط دكاني، محاطة بالأقمشة، بتزاحم ألوانها وملمسها وروائحها، نعم روائحها، فكل قماش في دكاني له رائحة خاصة به، فربما فعلت رطوبة البحر فعلتها في خشب الأبواب، ونورة الطلاء، فأخرجت الروائح المكتومة في نسيج كل نوع منها، فأستطيع أن أشم في المخمل رائحة الدخان، أما الشيت فله رائحة الخشب، والكيمري له رائحة الخبز، وللبريسم رائحة الطحين المقلي، والدورياهي له رائحة السكر المحروق، الذي أصنع منه الحلوى، أما البوبلين فله رائحة السمك.

كنت أجلس في دكاني منشغلة بالأقمشة، تراودني الأفكار بالذهاب إلى الهند والسير في أسواق الأقمشة ومصانعها، أردت أن أرى كيف ينسجون الحرير، وكيف يصبغون الكيمري، وكيف يطبعون الشيت، كنت مستغرقة في أفكاري وأحلامي عندما دخل عليَّ حسن لبن مضطربًا:

- عمتي، ما لازم تجي الدكان، التجار العرب ما عاجبتنهم جلستش وسط السوق.

- ما لك حسن؟ يا كافي الشر؟ ويش فيك؟ وليش ما أجلس في دكاني؟ صار شي؟ وليش التجار ما عاجبنهم جلوسي في دكاني وملكي؟ أنا جالسة وسط دكاني بالبوي بوي، لا شافوا وجهي وما عرفوا مني غير الصوت.

- يقولوا مكان الحريم في بيوتهن.

- البيوت مكان حريمهم، هم يكدوا وهن ياكلن، لكنه ما مكاني أنا، وبعدين أنا التجار العرب ما عندهم بضاعة لي، لا أشتري منهم ولا أبيع. أنا شغلي مع الهنود، والهنود ما يعرفوا غير البيسة والبيع والشرا.

- لكن العرب ما يعجبهم.

- هذا مالي وهذي تجارتي. بس هم يمكن ما متعودين، معذورين، أيام وبيتعودوا، التو خليهم يقولوا، الزمن والمصلحة والغوازي بيعودوهم.

- العسكري يقول الوالي طالبنش.. إنتِ روحي البيت وأنا بسير بدالش.

- أي عسكري؟

- عسكري الوالي.

- ويش يريد؟

- يمكن التجار اشتكيوا عمتي.

أي عسكري؟ عادت إليَّ صورة ذلك الرجل في زي العسكر الذي رأيته من مدة، هل كان يتجسس عليَّ؟ هل كلفه الوالي بمراقبة حركتي في مطرح؟ تسارعت أفكاري، وبدأ سيل من الكلام الحاد يتدفق في رأسي، كلام للعسكري وكلام للوالي.

لكن العسكري الذي كان ينتظر خارج الدكان لم يكن يشبه ذاك العسكري في شيء، فهذا قصير، نحيل يرتدي دشداشة يكاد يتهاوى داخلها، ومصرًّا تفوح رائحته، وفي عينيه نظرة خائبة، بينما ذلك العسكري الذي صادفته كان أطول مني بكثير، ولكتفيه عرض من تعود حمل الدنيا عليها، ويرتدي ثياب عسكر وكأنه من عسكر الإنجليز، الواقفين عند باب الوكيل في مسقط.

كنت خائفة، لكن غضبي طغى على خوفي، فتأبطت دفاتر الحساب، وأمرت حسن أن يمشي أمامي، فيدلني على مجلس الوالي.

صرت أمشي والأفكار تتقاذفني، وعقلي يحدثني بالعودة إلى البيت والاستتار به، وقلبي يقول: امضي في الأمر حتى آخره، ولا تتنازلي عن حق لك. عقلي يقول: أنت امرأة ضعيفة بلا سند، وقلبي يقول لم تخطئي في شيء. لا عيب في التجارة، فعبد اللطيف أخبرني أن خديجة زوجة النبي محمد كانت تاجرة، ودائمًا ما كان يردد أن تسعة أعشار الرزق في التجارة.

مشينا حتى وصلنا عند باب الوالي، فتقدمني العسكري، وعندما أراد حسن أن يأتي معي ألزمته بالبقاء في مكانه عند الباب.

دخلت مجلس الوالي وأنا ملتفة في سواد بويبوبي، ولا يُرى مني شيء، وقفت عند الباب برهة من الزمن، حتى أشار إليَّ الوالي وقال: تقدمي، فتقدمت، ورفعت رأسي لأول مرة، فوجدته رجلًا أبيض يكاد الدم يطفر من خديه.

من وراء الغشوة فحصت وجهه مليًّا ووجوه من حوله من الرجال المهابين، علِّي أجد باب رحمة ألج من خلاله إلى قلوبهم، فوجدتهم يلبسون عمائمهم، ويتمنطقون خناجرهم، وفي أيديهم عصي يتكئون عليها وهم جلوس.

جف حلقي، وتسارع وجيب قلبي، وشعرت بأن صوتي سيخذلني لو نطقت.

- تجار السوق مشتكين عليك.

- لكني ما أتذكر إني سرقت ولا تدينت من حد.

- صحيح، لكنك تزاحمي الرجال. جلوس حرمة في السوق ما زين.

- بس أنا ما زاحمت حد، وما لمس كتفي كتف حد منهم؟

- صحيح، لكن وجود امرأة في السوق فتنة.

- لكني ما فتنت على حد، ولا تكلمت مع حد.

- أقصد عيب، عيب حرمة تجلس في السوق، وتشاغل الرجال عن أمورهم.

- حد شاف وجهي أو شاغلته بعيني؟

- ما حد قال كذا، لكنك حرمة..

- يا سيدي أنا حرمة فقيرة ما يلي لا أب ولا أخ ولا زوج، والحريم يبيعن الشربة والدنجو واللولاه في ساحات نازيمويه والكومبار وقدام السور، فليش ما يعترض حد على بيعهن وشراهن؟

- هن خارج السوق ما داخله.

- والسوق حرام عليهن وحلال على الرجال؟ ولا التجار يخافوا منهن ومني...

- الرجال ما يخافوا... لكن شكلك حرمة طويلة لسان.

- سامحني... ما قصدي أغضبك بسؤالي يا سيدي.. لكن هذي دفاتري.. خذها، شوفها.. أنا ما عندي مانع أسكَّر دكاني وأبقى في بيتي وما أخرج منه، بس يشتغل حد من التجار بدالي في الدكان، ويسلمني مثل الربح المقيد في الدفاتر، ما شي أحسن عن كذا، أجلس في بيتي ويوصلني رزقي كامل أول كل شهر، وكذا أكون أرضيتكم كلكم، وضمنت لبنتي ولي الستر، وأعف نفسي عن حاجة الناس.

فتح الوالي الدفاتر، بدت الدهشة على وجهه، ثم علت شفتيه ابتسامة خفيفة، ثم سلمها إلى الرجال، وسألهم: «تتعهدوا لها أنكم بتسلموها مثل المكتوب في دفاترها أول كل شهر؟» فترددت

نظراتهم، وسكتوا ولم يجرؤ أحد منهم على الكلام، فأعاد الوالي الدفاتر لي وقال: «استأجري صبي يمشي بحاجتك في السوق، وجلسي في دكانك ولا تتركيه، ولا ينكشف من وجهك أو جسمك شي. والحين روحي لبيتك، هداك الله».

عدت إلى البيت، وحكيت لفريدة ما جرى في البرزة، أظن أن فريدة لم ترني من قبل بهذا الغضب، نعم كنت غاضبة، كنت غاضبة من تجار مطرح والوالي، لكن في قلبي كنت أعرف أيضًا أن غضبي أقدم بكثير، وإن أحسنت مداراته، غضب ولدت فيه، ورافقني من حارة لوغان إلى ولجات، غضب من دلشاد عندما تركني ليدي فردوس تعبث بي، غضب من فردوس عندما سجنتني في بيت العقاب، ثم بعد كل ذلك أرادت أن تأخذ فريدة مني، وغضب من عبد اللطيف، كيف يتركني وفريدة هكذا؟ كيف يموت ونحن لم نشبع من وجوده في الدنيا؟ كيف تركنا بلا ستر، عرايا، عرضة للناس ولتجار السوق يتناهبوننا؟

غضبي الذي داريته بكياسة في مجلس الوالي، خرج في البيت، وتوجه أول ما توجه نحو البويبوي، فخلعته عني وكأني أمزقه، ثم استدرت إلى حسن، الفقير الذي لا يكف عن المشي ورائي ومتابعتي مثل ظلي، فناولته قرشًا:

«خلي عنك التسرسيرة والدوارة طول النهار، وروح اشتري لك دشداشة ووزار جديد وكمة، واشتري لك عصا، ومن باكر، بتسير باسمي في كل مكان».

«وخلي عنك شرب العطر والسكر، استوي رجال ولا تخلي الدنيا تزيد عليك، سمعتني؟».

«كلام تجار السوق إذا ما فيه فايدة لنا، صم أذنك عنه، سمعتني، صم أذنك عنه، أنا في سوق مطرح ما حرمة، أنا تاجرة، وتراهم كان شافوك خفيف، شدوا عليك، وطلعوك من السوق بلا شي، فهمت؟».

صباح اليوم التالي جاء حسن لبن، ووقف طويلًا عند الباب وقد استحم، وحلق شعر رأسه ولحيته، وارتدى دشداشة جديدة نظيفة.

وقف هناك ينظر إليَّ وإلى البساط الذي وضعت عليه التمر والقهوة واللبن، وقف وسط الباب، وكأنه في حيرة، أيدخل أم يبقى أم يعود أدراجه، أردت أن أشير عليه بالاقتراب، لكني بقيت للحظات أنظر إليه وإلى هيئته الجديدة، فجسد حسن لم يستره من قبل إلا إزار يصل إلى منتصف ساقه، وها هو الآن يقف في وسط الباب تمامًا، والضوء ينسكب على دشداشته التي بين البياض والصفرة، وهو واقع في إطار من الخشب الأزرق.

كانت الدشداشة معلقة على كتفيه، وكأنها خرقة وضعت على عصًا، واسعة وبينها وبين صدره هواء كثير، فبدا لي كخيط رفيع يوشك على السقوط لولا قبضه على العصا الغليظة التي بيمينه.

كنت أراه واقفًا بين دفَّتَي الباب، يوشك على الدخول، وكنت أشعر ببؤسه موجعًا بشكل مضاعف، أنظر إليه ولا أعرف كيف يمكن لثياب أن تعري بؤس صاحبها أكثر من ستره.

هو واقف هناك، يقلِّب بصره بيني وبين البساط، ولا يخطو العتبة الحجرية إلى الداخل، ولا يتراجع إلى الخلف، وكأنه أرادني أن أراه بهيئته الجديدة تلك، وأن أوافق عليها.

لوهلة رأيت أبي مكانه، فاجتاحني شعور بالخزي، خزي لم أفهمه ولمِ أعرف سببه، لكني طعمت مذاقه في فمي، فبلعته مع ريقي وداريته، نكست رأسي ثم رفعته، وناديته أن يقترب ويأكل معنا.

دلشاد

أقف في مقدمة الباخرة الإنجليزية دواركا، وورائي مدخنتها العظيمة تنفث دخانًا أسود ما يلبث أن يتلاشى في الهواء. للباخرة صاريتان، واحدة في المقدمة وأخرى في المؤخرة، علقت عليهما شرائط وأعلام، وعلى جانبي الباخرة علقت قوارب النجاة.

وصلنا مسقط بعد أن وقفنا لأيام في كراتشي وجواذر، وركب معنا خلق كثير من هناك، أظن أن أغلبهم يتجه إلى دبي والمنامة والكويت.

أقف في المقدمة، فيلفح هواء البحر الرطب وجهي، وأشعر بحرارة الشمس وهي تنصب فوق رأسي، فيغلي يافوخي، بينما تغرق الرطوبة رئتي بملوحتها.

أغمض عيني للحظات، فتختفي الملوحة والرطوبة، ولا يبقى إلا رائحة البحر، تتسلل عبر خياشيمي وتملأ رأسي بخدر خفيف، ثم أفتحهما، فأرى الميراني على يميني والجلالي على يساري، أمامي بيت العَلم والجبال السوداء خلفه، الفرضة والجمرك وبيت الوكيل

الإنجليزي، كل شيء في مكانه.. كل شيء.. وكأن الزمن الذي مر، مر في كل مكان، لكنه توقف عند مسقط، فلم يغير منها شيئًا.

كم سنة مرت؟ أعد على أصابعي، فأطويها، الواحد تلو الآخر، الكف الأول ثم الثاني ثم مرة أخرى، اللعنة تعلمت الحساب في بومبي... لكني لا أستطيع حساب مرور السنين على وجه مسقط؟

في أي عام غادرتها؟ لا أتذكر، لكني أتذكر الوجع في قلبي، تاريخ الوجع كله، رائحة محلب أمي، حرارة حصى الوادي، الجوع، ما حليمة، الكوليرا، فخاخ الحصينيات، آخر صرخات نورجيهان، عيني مريم، النوخذة، الشيخ. وكأن الوجع لا يغادر القلب إلا ليفسح مكانًا لوجع آخر يحل محله.

كان السلطان تيمور ما زال في الحكم، وبدأ الشيب يخط لحية عيسى، ووصل رأس مريم إلى عند صدري.

كم سنة مرت منذ أن سلمتها ليد العجوز؟ كم سنة مرت منذ اللحظة التي حملني فيها عيسى إلى الميشن، وأعاد الضوء إلى عيني لأعرف الظلمة الحقيقية في غياب مريم؟

كم صار عمر مريم الآن؟ كم طالت ضفيرتها؟ وضحكتها هل ما زالت كما كانت تهز حجارة الجبال؟ أم أنها تلاشت في بيت لوماه كما تلاشت ضحكتي في دروب بومبي؟

نقترب أكثر، فأتبين ثلاثة أعلام ترفرف فوق الأسطح، علم السلطان الأحمر، علم الإنجليز، وعلم جديد، لم أره في سماء مسقط

من قبل. أضيق عيني قليلًا لأستجلي اللون، آه، طبعًا، هذا علم الهند، الأخضر والزعفراني والأبيض، تتوسطه التشاركا، عجلة غاندي العجوز، عجلة الفقراء والبسطاء والمحرومين.

رأيت غاندي مرة واحدة فقط، كان ذلك قبل الاستقلال، وقبل موته بخمس أو ست سنوات، كنت ذاهبًا لإيصال مبلغ من المال إلى أحد شركاء بن سري في شارع يقع خلف ميدان غواليا تانك، وفي طريق عودتي علقت والريكشا التي تحملني، فنقدت الرجل الذي يجر العربة آناته، ودفعت نفسي وسط الناس حتى وصلت إلى الصف الأمامي، سقطت كوفيتي أثناء ذلك، وكاد إزاري أن يسقط أيضًا، لكني شددت قبضتي عليه، ومضيت لأرى الرجل الذي تردد الهند كلها اسمه.

كان يسير ملتفًّا في ردائه الأبيض وسط بحر من الهنود الهاتفين باسمه وبالهند واستقلالها، يبدو مستعجلًا في مشيه، ولوهلة ظننت أني أرى نفسي، عندما كنت أكثر بقليل عن كيس من الجلد تهتز فيه عظامي.

بعد سنوات شهدت لحظة إعلان استقلال الهند وفرح الهنود، ثم رأيت الوجوم الذي طال وجوه الناس في السوق لحظة إعلان تقسيمها بين المسلمين والهندوس، ثم الدموع التي غسلت الوجوه، ثم امتزاج الخوف بالفرح والقلق، الذي كان واضحًا على الوجوه، خاصة وجوه التجار، أما بقية الناس فما لبثوا أن انشغلوا بالرقص والضحك والحلوى التي وزعت مع كؤوس الشراب.

ثم جاءت طلقات الرصاص، السواطير، الحرائق، الدم، جثث الرجال المقطعة وعيون الأطفال المقتلعة، أحشاء الحوامل المبقورة والأجنة الميتة على الأرصفة، طنين الذباب الأزرق، رائحة الموت التي انتشرت بين الهنود، الهراوات والسكاكين، زحف المسلمين إلى الغرب وزحف الهندوس إلى الشرق.

ورأيتني مختبئًا في بقايا بسطة عند طرف السوق، خلف سلال فارغة أخلاها بائع الفاكهة، وهرب بعد أن سمعنا باقتراب الشغب والنهب من السوق.

لأسبوع ظل السوق مغلقًا، لكني عدت ذلك اليوم المشؤوم لأن بن سري كان قد نسي دفتر الديَّانة هناك، وطلب مني الذهاب إلى الدكان وإحضاره.

مشيت بحذر في الشوارع الجانبية، منتبهًا لكل نأمة، لم يعترضني أحد، ولم أرَ في طريقي إلا الكلاب، تسللت إلى الدكان وأحضرت الدفتر، وضعته تحت إبطي وغادرت.

وأنا أغلق باب الدكان، فاجأني صوت جلبة يأتي من أحد الأزقة، ركضت واندسست خلف سلال بائع الفاكهة الذي يحاذي مجرى تصريف المياه، ورأيتهم.

كان الوقت عصرًا، وكانوا ثلاثة شبان غاضبين يجرون صبية ويشتمونها، كانت صغيرة وضئيلة، ربما في سن مريم أو أكبر قليلًا، ترتدي السروال والقميص، بدا لي وكأنها كانت ميتة، لكن ذلك لم يمنعهم، هناك أمام عيني في ضوء النهار، تناوبوا على اغتصابها،

اغتصاب الجثة، أمام عيني فعلوا ذلك، وأنا كنت هناك، عيناي تراقبان تلك الأيدي التي ألقت بسواطيرها وقلبت ذلك الجسد، للحظة التقت عيناها بعيني، عينان فارغتان تصرخان مثل فم هائل، صرخة لم يسمعها أحد سواي.

انتهوا منها، عقدوا حبال سراويلهم، وألقوا بالجثة العارية في مجرى التصريف، وحملوا سواطيرهم وذهبوا، رأيت كل ذلك من مكاني، لكني لم أتحرك، مرت لحظات لم أقدر فيها حتى على التنفس، كان العرق يغطي عيني بطبقة مالحة، لكني لم أجرؤ على رفع كفي ومسحه، كنت عالقًا في خوفي، وكنت أشمه، أشم خوفي، له رائحة ضبع، ولي رائحة جيفة نتنة.

تلك الرائحة هي كل ما أشمه في نفسي منذ ذلك اليوم، رائحة طبقات من خزي، لكني لم أخبر أحدًا، بقيت صامتًا، سلمت بن سري دفتره اللعين وغرقت في الحُمَّى، لأسبوعين كاملين، اعتنى بي شاكر أحمد، صبي الدكان الذي يبات معي، لكن بن سري لم يسألني عن شيء، وأنا لم أقل شيئًا.

فقدت شهيتي، واللحم الذي غطَّى جسمي بعد أن صرت آكل من صينية بن سري تلاشى، تعافيت وعندما ذهبت لرؤيته رأيت السؤال في عينيه، لكني ما قدرت على القول، طمرت تلك العينين وتلك الصرخة الميتة في بئر عميقة، لكنها كانت تعاودني في مناماتي، فتوقظ شاكر أحمد، الذي يركض لإيقاظي وسقيي الماء كل ليلة تقريبًا.

فترت همتي، ولم أعد أطيق بومبي ولا السوق ولا الدكان، طلبت من بن سري أن يسمح لي بالعودة إلى مسقط، لكنه لم يجاوبني، بل طلب مني أن أتناول العشاء عنده في البيت.

تلك الليلة سألني لأول مرة عمَّا حدث في السوق، سألني عن الذي حدث في تلك العصرية، سألني إن كنت رأيت شيئًا أو تعرضت لشيء، وأنا أطلت النظر إلى لحيته، ورأيت تلك الصرخة في عيني الطفلة تخرج من بين خصلاتها، لكني لم أتكلم، فتحت فمي ولم أقدر على الكلام، خشيت أن يخرج الضحك من فمي، وأنا أصف ما رأيت، لكن لا الضحك خرج ولا الكلام، بل صار جسدي يرتجف، ورأيتني أختض على الأرض وكأن جنيًّا قد تلبسني، وعيناي معلقتان في مكان ما من السقف، ترقبان ذلك الجسد المختض، وبن سري الذي وقف فجأة وارتد إلى الوراء مفزوعًا، وشاكر أحمد الذي ركب على الجسد في محاولة لتهدئته، الزبد الذي تطاير بدل الكلام من فمي، ثم فجأة سقطت في تعبي، وعندما استيقظت سمعت الطبيب يقول إنها نوبة صرع.

حجز لي تذكرة سفر، وعندما اقترب موعد رحلتي، ناولني أجرتي التي تراكمت عنده، وطلبت منه منذ سنين أن يخبئها لي في «تجوريه».

ودعت بن سري وشاكر أحمد، وخبأت أموالي في حزام من الجلد عقدته حول خاصرتي. لم أحمل معي إلا صندوقًا فيه ثياب اشتريتها لمريم منذ سنوات، قمصان وسراويل وأقمشة من الحرير

المنقوش بخيوط الذهب، ثم وأنا أغادر الدكان، التمعت أساور من الزجاج في واجهة دكان أحمد حسين شالواني، فتوقفت عنده، وابتعت لمريم درزنين من الأساور الزجاجية الحمراء والخضراء والصفراء، طلبت من البائع أن يلفها حتى لا تتكسر، فلفها في طيات كثيرة من الورق، دسستها بين الأقمشة في صندوق السفر.

وقفت عند مقدمة الباخرة، وصارت مسقط تنفتح أمامي، أطيل النظر إلى وجهها القديم، وأعرف أن وراء واجهتها الضيقة يختبئ بيت لوماه، ومريم في داخله، تكبر وتضيع ضحكتها. أتلمس حزامي ثانية، كنت قد عقدت صفقة في رأسي، سأعطيهم المال وسيعطوني مريم، وستلبس الثياب الجميلة التي أحضرتها لها، وسأطلب منها أن تسامحني، وسأضع الأساور في رسغيها، وسترقص معي على حصى الوادي، وستضحك... ستضحك ثانية... ستضحك حتى لا يعود عقلي لصرخة عيني تلك الصبية.

قاسم

تسبق البنات والأولاد في العمر، وتسبقهم في الوصول إلى الدرس كل صباح، تدق الباب وعندما أفتحه لها تهمس بسلام لا يصلني منه إلا حرف السين، وتمرق إلى غرفة الدرس دون أن ترفع عينيها، تدخلها وتقف أمام الروازن، تقلب عينيها في الكتب، تتهجى العناوين، لامية ابن مالك، الآجرومية، التبصرة، شرائع الإسلام، ديوان المتنبي، نهج البلاغة، تاريخ المشرق، وأحيانًا تمتد يدها إلى الشهنامة، فتأخذها من على الرف، وتحاول تهجي الخط العربي بالكتابة الفارسية، فتردد كلمات لا تعرفها.

لا أمنعها، ومن مكاني كنت أسمعها وأبتسم، أريد أن أقترب منها، وأيسِّر عليها فك مغاليق اللغة، لكني لا أجرؤ على ذلك حتى يأمرني أبي، فأنا هنا مساعده لا أكثر، ولا أستطيع التصرف مع تلاميذه إلا بإذنه وطلبه.

تدخل، فأقف عند باب الغرفة لحظات، مدوخًا برائحة الياسمين الذي ينتشر في الهواء حال دخولها، مأخوذًا بوقفتها أمام

الروازن وكأنها في محراب صلاة، تنتصب دون تردد أو التواء مثل حرف الألف في الكتابة، ممشوقة ولا نهائية المعنى، تمامًا كالحرف الأول الذي يعطي للبدايات معانيها، ألف الألفة، ألف الأحزان، ألف الأشواق، ألف الأفعال والأسماء كلها.

خمس سنوات مرت، ذهب زملاؤها وجاء غيرهم، وهي لا تتخلف عن حلقة الدرس، بعد أن أجادت الكتابة والقراءة أوكل إليها أبي تعليم بتول، وعندما عرفت بتول الحروف كلها قراءة وكتابة، صار يكلفها بتعليم الصغار عندما يضطر هو إلى الذهاب إلى ضرورة يرعاها، فكانت تجلس في مكانه وتبدأ بترديد الحروف وهم يرددونها وراءها، بينما أقف أنا كالحارس في مكاني، مستعدًّا لتقديم أي خدمة تطلبها، تمامًا كما أفعل مع أبي.

خمس سنوات وهِمَّتها لا تفتر، كان همها في البداية تعلم الكتابة، فعلمتها كيف تحول القصبة إلى قلم، وكيف تبريها، وتخزن فيها الحبر. مرة واحدة فقط شرحت لها كيف تفعل ذلك، فصارت تفعله بمهارة وكأنها حريصة على أن لا تلجأ إليَّ في شيء، وحتى عندما كانت تكشط إصبعها بالسكين خطأً، تطويها في طرف لحافها، وتضغط عليها حتى ينقطع الدم، لكني لم أسمعها تطلق أنة واحدة.

تدربت طويلًا، ولم تتوقف حتى صار خطها بديعًا مثل ذلك الذي كتبت به المخطوطات، منساب وواضح ومرصوص بشكل متساوٍ، مستوٍ لا اعوجاج فيه.

يقول أبي إن فريدة حاضرة البديهة سريعة الفهم، وإنها تضع

كل قلبها في الدرس. وكان يراها محرقة كتب عظيمة، كلما أعطاها كتابًا التهمته، فاضطر إلى فتح مكتبته أمامها، تأخذ منها ما تشاء، فتدرسه في البيت ثم تعيده.

وأظنه يرى نفسه فيها، فقد أخبرني أنه وهو صغير كان يوفر مصروفه القليل ليشتري به الكتب، غير مبالٍ بالجوع الذي ينهشه حتى يعود إلى البيت، فيأكل مما يوضع أمامه، ثم يعتكف على كتبه غير منتبه لمرور الوقت، وكان يضطر إلى إخفاء الكتب عن عيني والديه اللذين يجدان في كل تلك القراطيس مضيعة للمال والوقت.

جمع أبي كتبه من أسفاره إلى بومبي وكراتشي وشيراز وأصفهان والبصرة وقم والنجف الأشرف، وأوصى على بعضها من بيروت والقاهرة والشام، وبعضها اشتراه من أجانب يطرحهم البحر والسفن، وما زلت أتذكر فرحه بصندوق كتب عرضه أحد الصيادين في السوق، يقول إنه وجده مرميًا على رمل جزيرة الفحل، وإنه ظن أن به ما ينفع، حتى وجد الكتب، فكاد أن يتركها في مكانها غير عابئ، لولا أن تبادر إلى ذهنه أن يبيعها في السوق، فيلف الباعة في ورقها الحبوب وحلوى القشاط.

اشترى أبي الصندوق بقرش واحد دون أن يعرف محتواه من الكتب، لكنه انقطع لقراءتها ستة أشهر، ثم أعاد صفها في مكتبته، فخورًا بحصوله على تسعة وعشرين مجلدًا من الطبعة الحادية عشرة من الموسوعة البريطانية.

لا تقرأ فريدة إلا اللغة العربية، ولا أظنها تتحدث غيرها، لذا

يظهر الأسى على وجهها وهي تتأمل الكتب الإنجليزية والفارسية والأوردية على الروازن، وتمرر أطراف أصابعها على كعوب الكتب، تضغط على حروف العناوين المحفورة، وتعض على شفتيها وكأن ألمًا عظيمًا يعتصرها.

تعلقت عينا بتول بفريدة منذ اللحظة التي جلست فيها إلى جانبها أول مرة، ومن ذا الذي لا تتعلق عيناه بذلك الوجه النوراني، لكن عيني بتول ليستا كعيني، وقلبها ليس كقلبي، فبتول وجدت في فريدة الأخت الكبرى التي لم تجدها لتحل محل الأم التي اختارها الله لتكون مع الشهداء والصديقين وآل البيت الأطهار، أما أنا فتعلق قلبي بتلك الرموش الطويلة مثل أغصان شجر كثيف، وتلك الرائحة التي تضوع منها في كل حركة والتفاتة.

تقربت بتول من فريدة، حتى صارت تلازمها، إما في الدرس وإما أن تتبعها إلى البيت، أو تنضم إليها عند البحر قبيل المغرب مع البنات اللاتي يتحلقن حولها، ثم تعود فتحكي لنا أطرافًا من حكايات فريدة الغريبة، عن ديكة تتكلم، وفتيات يخرجن من حبات الرمان، وعن امرأة تلد بدل الأولاد أحجار رحى ومدقات من صخر، وعن غزلان محبوسة في قاع بئر سحري، لها دموع من دم.

تقول بتول إنها لم تجد أحدًا باستطاعته أن يفرحها ويغضبها ويحزنها بشدة كما تفعل الملايات في المأتم الكبير وهن يسردن مقتل الإمام الحسين عليه السلام، مثل فريدة وهي تحكي قصة غرق أبيها، وأن فريدة الصامتة الساهمة في حصة الدرس، تحفظ كل

أشعار مجنون ليلى. سألتها: هل قصَّت عليكن القصة، فقالت: لا، تكتفي فريدة بترديد الأشعار فقط. سألتها إن حفظت شيئًا مما قالته فريدة، فردت أنها لا تقبض إلا على بيت واحد فيه جدران وقبل:

أمـر عـلى الديـار ديـار ليـلى   أقبـل ذا الجـدار وذا الجدارا

فأكملت لها:

وما حب الديار شغفن قلبي   ولكن حب من سكن الديارا

هزت بتول رأسها موافقة، ثم سألتني لماذا كان قيس يحب تقبيل الجدران؟ فابتسمت وأخبرتها أن هذه أمور لا يعرفها إلا العشاق والمريدون، أطرقت وبدا عليها التفكير، ثم سألتني: هل يعني هذا أن فريدة عاشقة؟ هل يعني هذا أنها ستجن مثل قيس أو ستشرب السم مثل شيرين حبيبة خسرو؟

لبتول مخيلة طفلة، لكن حقًّا لمَ كُتِب على العشاق الجنون أو الموت؟ وفريدة هل هي عاشقة أم معشوقة؟ فريدة المنغلقة مثل السنسكريتية التي أحاول تعلمها منذ سنوات في مدرسة الهندوس خلف السوق ولا أفلح، لكن لماذا أريد أن أفك لغز صمت فريدة الدائم وانكبابها على قراطيسها؟ ولماذا أريد أن أتعلم السنسكريتية رغم أني أعرف أنه يمكنني الاكتفاء بالأوردو لمعاملاتنا التجارية في بومبي وقراءة الشعر الهندي وفهم معاني الغزل؟

إلا أنه الفضول، الفضول الذي يقود العاقل إلى التحديات والمزالق، تجول المخيلة والأسئلة التي يخرج بها المرء من ضيق مطرح

وأزقة السور ودروب السوق إلى ملكوت الله الواسع. ترانا لولا هذا الفضول وهذا الخيال وهذه الرغبة في معرفة ما هو أكثر وأبعد، هل سافر المسافرون وانطلق الناس يجوبون بحار العالم؟ هل كان لعلم أن ينشأ أو لفعل أن يكون لولا دافع من حاجة ملحة أو فضول طاغٍ؟

صرت أمشي عند البحر قبيل الغروب، فأراها تجلس في حلقة من البنات، بعضهن يقاربنها في السن، وبعضهن في مثل سن بتول، وكلهن يملن بجذوعهن نحوها، فيصرن حولها مثل بتلات الياسمين، وهي في الداخل مثل السر، تحكي لهن ما لا يمكنني سماعه، لكن يمكنني تبين أثره على بتول عندما تعود وفي عينيها ذلك البريق كلما حكت لهن فريدة حكاية جديدة، فأطلب منها أن تقص عليَّ ما سمعت منها عند البحر، فتخرج الحكاية من فمها معجونة ومهروسة لا يعرف لها ساس من رأس.

خمس سنوات، رأيتها تكبر وتنضج أنوثتها أمام عيني، وتزداد صمتًا وشرودًا، خمس سنوات لم تخاطبني فيها مرة واحدة، ولم تنطق فيها باسمي ولا مرة واحدة، وكأنها وضعت بين عينيها وحضوري حجابًا، أو ربما بادلت صمتي صمتًا، فمن أنا كي أعتب أو حتى أسأل؟ ألست أنا مساعد الأستاذ الذي يقف صامتًا إلى جانب المعلم حتى يطلب لأمر، ثم وما إن يرحل التلاميذ حتى يعود إلى دراسته وكتبه، وكل أحلامه أن يجد سبيلًا فيتجنب العمل في التجارة والسفر لأجلها ويجد طريقة لإقناع الكبار لإرساله لاستكمال تعليمه

في حوزة النجف، ثم يعود إلى مطرح وقد حاز العلوم كلها، فيلزم المسجد ويقيم ليالي المأتم؟

تأتي فريدة وتذهب، ألقاها في الأزقة أحيانًا فأكمل دربي دون التفات، وإن سلَّمت لا أرد السلام، أراها في حلقة البنات عند البحر، وأحيانًا ألمحها منفردة تجمع الأصداف أو تخط بأصابعها النحيلة كالأقلام حروفًا على الرمل ثم تمحوها براحتها.

خمس سنوات وما تجرأت ولو لمرة واحدة أن أريها نسختي من البانج كانج، فتتعرف على الكنوز الخمسة لنظامي، على قصائده العظيمة في أسرار العشق والتصوف، على خسرو وشيرين ومجنون ليلى، على حب بهرام جور وقصص إسكندرنامه.

أهداني البانج كانج تاجر فارسي، حلَّ في ضيافتنا لأيام، وعندما عرف عن ولعي بالعلوم والشعر، أهداني نسخة مغلفة بحرير فارسي أصفر، عليه نقش «بتة» وكأنها دموع، تكاد من رهافتها أن تسقط، أما الكتاب نفسه فكانت تزين صفحاته نقوش بديعة وتصاوير لرحلات صيد، وجلسات لهو، ورجال يمتطون الخيول، ونساء جميلات واقفات أو مستلقيات على الأرائك والبسط، وغزلان وأسود ترعى في حدائق اللوز والرمان، صور تثير الخيال، وكأنها تذهب بالمكتوب إلى ما هو أبعد من الكتابة، وبالكلام إلى ما هو أبعد من الكلام.

لكن خمس سنوات مرت، وأنا لم أغادر مكاني، ولم أنطق بكلمة واحدة، وهي لم تتوقف عن الحضور قبل الجميع للدرس، والوقوف طويلًا أمام الروازن وعيناي منغرستان في ظهرها، متخيلًا شلالًا

من الحرير الأسود ينسكب حتى أسفل الظهر، يفوح منه الحناء والياسمين، أراني أقترب منها وألمس كتفها، وأراها تلتفت إليَّ وفي عينيها شوق وانتظار، وكلام يستعصي من فرط خجلها على القول.

ناصر بن صالح

عملت مع ترجمانداس في دكان لوماه، حتى عرف كل ما تحويه الدفاتر، وأعاد كتابتها بالحروف الهندية في دفاتر جديدة، وجرد المخزن مرات، وتأكد من تطابق الأرقام، ثم استغنى عني.

وجدت نفسي تائهًا، لا أعرف ما الذي عليَّ فعله، فصرت إما جالسًا في بيتي، وإما هائمًا على وجهي في طرقات مسقط، أمر على الدكان كالغريب أناظره من بعيد، أو أقف كالمجذوب أمام بيت لوماه الذي صار خاويًا مذ تركته فردوس وحاشيتها، ورحلت إلى صحم ثم البحرين، كما أخبرني سخي الذي اعتذر عن مرافقتهم إلى الباطنة، فتركوه يعمل في السوق، يلف على العابرين بمدلاة قهوة، يصبها للشاربين مقابل آنات.

كنت بحاجة إلى العمل، فالقروش التي خبأها أبي في سحارته، لم تكن لتكفيني تمرًا أكثر من شهر.

درت على دكاكين العرب والبانيان، وكل معارف أبي وعمي عبد اللطيف، لكنهم كلهم اعتذروا بكفاية الحاجة عندهم من

كتبة وعمال، وعندما يئست منهم، أحضرت أقلامي وقراطيسي، وجلست عند طرف السوق، أقرأ الرسائل للناس، وأكتب ردودهم عليها كما يملونها عليَّ، وأحيانًا كما تقتضي الحاجة عندما يتعسر الكلام.

وأنا جالس في السوق رأيت الأستاذ علي الياس، وتمنيت لو أنه لا يلتفت إليَّ، لم أكن خجلًا من عملي، لكنه كان يظن أني أفضل طلابه، ودائمًا ما يشيد بتفوقي في الحفظ وحسن الخط، وكان يقصد دكان لوماه مرات، فيمتدحني أمام أبي وعمي عبد اللطيف، ويطلب مني أن أقرأ قصائد المتنبي، التي عمل على تحفيظي إياها، لما وجد من سرعة حفظي وسلامة نطقي للحروف، فكنت أتردد قليلًا، لكن ما تلبث الحماسة أن تتسرب إلى نفسي، فأتلو القصيدة غيبًا، وبالضبط كما علمني الأستاذ:

وا حرَّ قلباه ممن قلبه شبم ومن بجسمي وحالي عنده سقم
ما لي أكتِّم حبًّا قد برى جسدي وتدعي حبَّ سيف الدولة الأمم

حتى إذا ما وصلت إلى:

أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم

غلبتني الحماسة، فصرت أشحن صوتي بكل ما فيَّ من قوة، وكأني أنافس المتنبي على فخره، فيعلو صوتي ويهتز بدني، وصار وجه أبي يتلون، وعمي عبد اللطيف يغالب ضحكة يداريها بالانشغال ببعض دفاتره.

وما إن أنتهي حتى يصيح الأستاذ علي: «أحسنت.. أحسنت»، بينما يهز أبي رأسه بشيء من الحرج، ويجاري عمي عبد اللطيف الأستاذ فيصيح: «شاباش.. شاباش»، ثم ما يلبث حتى يتناول الدفتر من بين يدي عمي عبد اللطيف، ويناولني القلم: اكتب، اكتب هنا، نعم بخط الرقعة، الرقعة يا ولد:

أريد من زمنـي ذا أن يبلِّغني ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

«شوفوا الخط.. لا يوجد في السعيدية كلها من يخط مثله الحروف، يا صالح ولدك هذا لازم ترسله البحرين، نعم البحرين، عندهم مدارس زينة، لكن من يعلم يمكن ينعم عليه السلطان ويرسله بغداد».

لم أكن أتمنى أن يراني جالسًا هكذا في وسط السوق، أتكسب من جهل الآخرين وحاجتهم، لكنه جاءني مباشرة وكأنه يقصدني، وما إن رآني حتى قمت له وحييته، فعزاني في أبي، ثم تفحصني طويلًا، ودون أن يكثر من السؤال، طلب مني أن أحضر إلى السعيدية في صباح اليوم التالي.

توجهت إلى صف الأستاذ علي، فأخذني إلى مكتب الناظر، وقدمني إليه مذكرًا إياه بإلقائي قصيدة، في حفل تخرجنا في الصف الرابع، بدا أن الناظر لم يتذكرني، فاختبرني شفاهة وكتابة، ثم طلب مني الانتظار خارجًا.

انتظرت مدة من الوقت، وأنا لا أعرف المراد مني، لكنني خمنت أنهم سيفتتحون الصفوف الخامس والسادس، كما وعدونا عندما

أنهينا الصف الرابع، فصرت أفكر كيف لي أن أكمل تعليمي، وأنا لا أملك ما يكفيني لأقيم نفسي.

بعد قليل أطلَّ الأستاذ من باب الناظر، وأشار إليَّ بأن أدخل، وقفت أمام الناظر الذي أخبرني أني أديت الاختبار بنجاح، وعرض أن أعمل مدرسًا لصفوف التمهيدي، مقابل خمسة قروش في الشهر.

علَّمت الصغار في السعيدية حتى انتهت الحرب، وما إن استقرت الأوضاع بعد الحرب، وبدأت السفن في العودة إلى ميناء مسقط، حتى بدأ زملائي من المعلمين يغادرون المدرسة، منهم من رجع إلى بلاده، ومنهم من وجد فرصة في بلاد أخرى فسعى إليها، وحتى أغلب الطلبة الذين تخرجوا في السعيدية، رحلوا إلى البحرين والكويت بحثًا عن العمل.

أما أنا، فما كنت أعرف إن كنت أريد أن أبقى أو أن أرحل، فأحلامي كانت أعلى من سقف الرابع الابتدائي، والخمسة قروش كانت تتبخر سريعًا من بين أصابعي، وكان المتنبي يلح عليَّ أحيانًا، فأريد مثله أن يبلغني الزمن أكثر من مسقط والسعيدية وهذه البلاد، لكنني لم أكن أعرف بالتحديد ما هذا الذي أريد أن أبلغه.

ثم وفي صباح أحد الأيام، وكنت متوجهًا إلى المدرسة، وأردد فيما يشبه اليأس:

بم التعلـل لا أهل ولا وطن ولا نديم ولا كأس ولا سكن

مرَّ بي رجل يمشي في الاتجاه المعاكس نحو السوق، تجاوزني

ببضع خطوات، ثم سمعته يناديني، فاستدرت ناحيته، فأقبل عليَّ رجل ضخم البنية يلبس دشداشة من الساسوني الخفيف، ويحمل في يده صندوق سفر، لم يكن وجهه غريبًا عليَّ، لكني لم أعرفه.

السلام عليكم، إنته ما ناصر بن صالح بن أحمد، اللي كان يشتغل عند لوماه؟

لم أتعرف على الرجل، وكنت في عجلة، فأردت أن أختصر الحديث معه، إلا أن ذكره لأبي ودكان لوماه أيقظا فضولي.

- وعليكم السلام، نعم أنا هو، حاجة أمارة الوالد؟

- أنا خلف بن سويلم، اشتغلت مع لوماه، كنت عقيد أنفار قاعدة مصيرة.

فجأة تذكرت الرجل، فلقد رأيته مرارًا في دكان لوماه، وكنت أسمع اسمه يتردد كثيرًا في الحديث بين أبيَ وعمي عبد اللطيف.

- سامحني عمي، تو عرفتك، سامحني، من زمان ما لقيتك، من راح أبوي وعمي عبد اللطيف ما صادفتك في مكان.

أطرق الرجل وتمتم: «رحمهم الله، فجيعة كبيرة» ثم سألني:

- وإنته ما شاء الله كبرت واستويت رجال، تشتغل؟

وقفنا في مكاننا، وتبادلنا الأخبار والعلوم، وعرفت منه أنه مسافر ليلتحق بأخيه في قطر، وأنه سيعمل في حقول النفط بدخان، قال إن الفرص في قطر كثيرة، وإن النفط حوَّلها إلى جنة. توادعنا فتوجه إلى الفرضة، وأكملت أنا طريقي إلى المدرسة.

شوَّشني كلام الرجل ذلك النهار ولأيام كثيرة بعده، فذلك الحديث القصير لم يطمعني في السفر فقط، بل أعاد تلك الصور المغبشة، لتطفو أمام عيني، ألم يقل أبي إنها ذهبت مع زوجها إلى قطر؟ لكن ما معنى هذا؟ وما الفائدة منه؟ وكيف سأستدل عليها، وأنا لو لقيتها في الدرب ما عرفتها، وهي لولا اسم أبي لن تستدل عليَّ، ما الفائدة، حتى لو ذهبت للبحث عنها، كيف سأسأل، وماذا أقول، وأنا لا أعرف اسمها ولا اسم زوجها، هل ما زالوا في قطر؟ هل عادوا؟ هل ذهبوا إلى مكان آخر؟

انتبهت إلى أنها لم تخطر في بالي بعد موت أبي، ولم أفكر يومًا في الذهاب إلى قريات حيث يسكن أهلها والبحث عنها، لكن كيف سأبحث عنها؟ وكيف سأستدل عليها وأنا لا أعرف حتى اسمها؟

«أيش اسم أمك؟» يعود صوت مريم دلشاد ليطفو على سطح ذاكرتي، كيف لي أن أعرف اسم أمي؟ ولماذا أريد أن أعرفه؟ لسنوات طويلة أغلقت على هذا السؤال كل المنافذ حتى لا يراه أبي في عيني قبل شفتي.

أنا بلا أم، هكذا أعرفني، لم يحملني رحم، ولم تشق صرخة ساعة ولادتي، بل سقطت من السماء في حضن أبي مباشرة، فتعلمت أول ما تعلمت من أبي، أن لا قيمة لي إلا بمقدار ما أجيد من العمل، وأن الرجل لا يكون رجلًا إلا عندما ينسى اسم أمه، يا له من ظلم، يطلب أن أنسى اسم أمي وأنا لم أعرفه، قُضي عليَّ أن أكون إنسانًا

وُلد من فراغ، وعاش في فراغ، فعشت عمري كله وأنا أهوي ولا يلتقطني أحد.

ظل كلام الرجل يتردد في داخلي لشهور طويلة، وصار يثقل عليَّ أكثر وأكثر مع الأيام.

فكرت في الذهاب إلى مطرح وعرض الأمر على عمتي مريم، لكنني ترددت، شعرت بالضعف والخزي لمجرد مروق الفكرة في ذهني، عليَّ أن أفكر وأقرر فأنا رجل، ويجدر بي أن أتخذ قراراتي بنفسي دون اللجوء إلى أحد. لكن القرار أخذ مني أكثر من سنة، وعندما قررت اللحاق بخلف بن سويلم، واستخرجت وثيقة السفر وابتعت التذكرة، ذهبت إليها، أردت أن أطمئن عليهما قبل سفري وأودعهما، حتى تعرفا أني لم أعد هنا، فلا تفقدا زيارتي.

وصلت فرضة مطرح عند الضحى، وتوجهت مباشرة إلى دكان عمتي، لكني وجدته مقفولًا، وعندما سألت عنها قيل لي إنها لم تفتح الدكان ذلك اليوم.

ذهبت إلى حارة الشمال، ودققت الباب ولم يفتح لي أحد، جلست عند الباب حتى مرت امرأة من جيرانها، وأخبرتني أن مريم وفريدة في السور، فجلست مكاني ولم أبرحه، حتى رأيتهما تقبلان عليَّ، رفعت عمتي الغشاء من على وجهها، وأشعت ابتسامتها: «ناصر؟ هذا أنت؟ غبت عنا شهور طويلة وحتى ما سألت.. تعال.. تعال.. ادخل». وتقدمتنا ففتحت الباب، بينما بقيت وفريدة نتبادل نظرات خاطفة، متقلبة بين التردد والشوق.

«كنا في بيت ماستر علي، فريدة اليوم خلصت علمها».

كنت منشغلًا باختلاس النظر إلى وجه فريدة التي كانت تتمتم: «العلم ما يخلص»، ووجهها يشع بالفرح.

- والتو تعرف تكتب وتقرأ وتحسب، وتريد تتعلم إنجليزي وفارسي وأردو... أنت تعرف إنجليزي؟

- أعرف شوية إنجليزي وشوية أردو، بس فريدة شاطرة، وتقدر تتعلم كل اللي تريده.

- ما تسير مكان، اليوم تتغدى معنا، بسوي مرنجوش وسمك صافي.. لا تتحرك من مكانك، كذا تغيب شهور، لا تسأل عن عمتك ولا عن فريدة؟

بعد الغداء أخرجت فريدة قراطيسها، وبدأت تريني جمال خطها وهي تكتب اسم أبيها «عبد اللطيف أحمد فضل لوماه» بخط الرقعة والنسخ وبالديواني، ثم أمالت ريشتها وخطت بالفارسي، ولا أعرف لماذا رجف قلبي من ذلك الميلان.

عند العصر، ونحن نتوادع عند الباب وعمتي تسكب عليَّ أدعية الحفظ، قلت لهما إني سأكاتبهما، وسأرسل إليهما الرسائل من الدوحة، ومازحتهما أنه بإمكان فريدة أن ترد عليَّ كل مرة بخط جديد، فجفلت فريدة وارتدت إلى الوراء، بينما تقدمت أمها وبصوت مرتبك أكملت توديعها لي، فمضيت في السكة، وأذني تلتقط صوت إغلاق الباب الذي بدا لي مستعجلًا بعض الشيء.

نظام أحمد رسلان خير الله

سافر أبي كثيرًا، وعندما تعب قرر الاستقرار في مطرح، والزواج فيها واعتبارها بلاده.

أتذكره الآن في زيه العسكري الأبيض المائل إلى الصفرة، وعمامته الحمراء، وحزامه العريض بمشبكه الفضي، وأشرطته على الكتفين، يتوكأ على العصا في يده، فيسحب ساقه من بيتنا في كهبن إلى الفرضة، حيث يجلس مدونًا للعشور، التي تؤخذ على البضائع الواردة إلى ميناء مطرح.

اسم أبي: رسلان، وعند العرب هو الأسد، وكان أبي أسدًا، حتى قيل إنه كان بمقدوره وحده صرع فرقة كاملة من الجنود، لكن رصاصة أطلقها جندي من جنود الإمامة، في معركة بيت الفلج، أصابت كتفه، فسقط من على مرتفع عند دراسيت، وكسرت ساقه، ولم تجبر بعدها أبدًا.

كبرت، ورأيته يسحب ساقه المعطوبة، معتمدًا على عصاه كي يبقي ميلان خطوته في حدود مشيته العسكرية، يوزع ابتساماته

على أهل السوق، ويقف لتحيتهم مداريًا حاجته إلى التقاط أنفاسه بإيماءة من رأسه.

وعندما يعود إلى البيت آخر النهار، يعود بتعبه كله، فيجلس ليرتاح، ونبدأ بخدمته وإزاحة غضب العطب الذي يهلك روحه.

كنت أكبر إخوتي، وأكثرهم فخرًا بساق أبي المعطوبة، وكان هو يعرف ذلك، فشدَّ عليَّ وأرسلني بعيدًا إلى أعمامي في بوشهر، لأتعلم مثله ومثلهم في مدرسة السعادات، قبل أن يقرر هو الانضمام إلى جيش الهند، وينشغلوا هم بتجاراتهم وأراضيهم.

وعندما عدت من بوشهر كان أبي قد رحل، وأمي صارت أرملة، ونوران كبرت وشارفت على سن الزواج، أما عاكف فكان قد سافر إلى تبريز بحثًا عن أصولنا البعيدة.

حكى لنا أبي الحكاية أكثر من مئة مرة، وفي كل مرة يحكيها بشكل مختلف، لكن ما علق في ذاكرتي هو أن الروس دكوا قلعة لنكران بمدافعهم، وعندما هاجموا القلعة لم يأخذوا أسرى، فقتل كل من كان فيها من الجنود الفرس والأذريين، والذين قيل إنهم كانوا يعدون بالآلاف، لكن جدي نجا لأن صادق خان أرسله متخفيًا إلى الأمير عباس ميرزا، يطلب منه التعزيزات لمواجهة المدافع الروسية التي تحاصر القلعة، وتدكها حتى لم تبقَ حصاة في مكانها، فسقطت بأيديهم رغم خنادقها وتحصيناتها وموقعها على قمة ذلك الجبل المشرف على بحر قزوين.

يحكي أبي الحكاية لنا ربما بالحرقة نفسها التي حكاها أبوه هم

نقلًا عن جده الذي نقلها عن أبيه، وكان بإمكاننا نحن المتحلقين حوله، المصغين لتلك التفاصيل التي لم تغادر إيماءة أو نأمة إلا وصفتها، أن نشم رائحة نهر الدم الذي سال من قلعة لنكران حتى بحر قزوين، مختلطًا برائحة الحريق والبارود، ورؤية عيني صادق خان الجاحظتين لحظة إصابته برصاصة روسية اخترقت رأسه من جهة اليمين لتخرج من اليسار، فتركته ليترنح قليلًا في مكانه ثم سقط.

لم يشهد جدي المعركة، ولم يصل إلى عباس ميرزا، ففي الطريق وصله خبر سقوط القلعة، فعاد يسابق الريح على فرسه، وصعد تلة مشرفة على المكان، وتحت شجرة دردار وقف ينتحب على أطلال قلعته الحبيبة التي يشهد حرائقها وحزنها.

في أثناء وقوفه هناك، مغمورًا بالحزن والأسى، أحس بفوهة بندقية تغرس في ظهره، فعرف أن الروس تمكنوا منه أيضًا، فرفع يديه مستسلمًا، إلا أنه وفي لمح البصر التف على الشخص الذي وراءه، ونزع البندقية من يد مهاجمه وأطلق النار، لكنه عندما رأى وجه الشخص الذي أطلق رصاصه إلى قلبه، كان وجه صبي يلبس ثياب جندي أذري، وجه مفجوع بموته وغير مصدق له. عرف أنه صوب بندقيته في الاتجاه الخطأ، وأدرك أنه ليس أكثر من جرذ مرعوب، لا يستحق شرف الجندية.

تخفى جدي في زي فلاح، وهرب إلى تبريز حيث يمتلك أهله أرضًا صغيرة توارثوها عن أجدادهم النازحين من الأناضول، أقام

بينهم شهورًا، لكن وجه ذلك الفتى ظل يطارده، وعندما عرف عن توقيع معاهدة جلستان، وسقوط بلاده في أيدي الروس كغنيمة حرب، هرب من تبريز إلى أصفهان ومنها إلى مكران، حتى استقر في بوشهر، وهناك في تلك البلاد القاحلة، حيث لا منفذ إلا البحر الذي لا يشبه بحر قزوين في شيء، وجد جدي الأكبر راحته، فتزوج فيها، واستقر وعمل في التجارة.

حاول جدي أن يبتعد عن العسكرية والعسكر، لكنه لم ينجح في ذلك، فسلالة رسلان كانت تطغى بتوقها إلى الحرب والدماء، فانسل من أبنائه الذكور الثلاثة، أصغرهم جدي خير الله رسلان، والتحق بالجيش البريطاني ولبس زي المشاة، وخدم في الهند تحت راية الملكة فيكتوريا، ثم خدم ابنه في العراق ومصر تحت راية الملك إدوارد، أما أبي فوصل إلى مسقط في أكتوبر ١٩١٤ كعسكري في فرقة الملك إدوارد الثانية للمشاة، ومثلهم فعلت أنا.

عندما عدت إلى مطرح، التحقت بكتيبة مسقط في بيت الفلج، ومنذ أن بدأت خدمتي صرت أشعر بأني عماني أكثر من أي شيء آخر، فأنا لست أذريًا ولست فارسيًا أو مكرانيًا، بل عمانيًا أخدم تحت راية سلطانها، ويغيظني أكثر ما يغيظني رؤسائي من ضباط الجيش من الإنجليز والهنود، الذين ينهون ويأمرون، فيشحنونا إلى صحار لنستعد لمواجهة جنود آل سعود في واحة البريمي بصفارة، ثم يعيدونا إلى بيت الفلج مشحونين مرة أخرى في لوريات، تخضنا الدروب والحصى دون أن نفهم ما الذي حدث وكيف، القائد الإنجليزي

يأمر الضابط الهندي، والضابط الهندي يأمر العسكري العماني، فيأتمر دون سؤال، ولا أعرف أيهما يغيظني أكثر الغطرسة أم الذلة، لكنني عسكري، وللعسكر رتب وأوامر لا تتخطى ولا تكسر.

عائدًا لتوي وبكل خذلاني من أول معاركي التي لم تحدث، لمحتها، فبُهِت في مكاني، وتعلقت عيني بالوجه وكأنه كمين نصب لي، شعرت بوجيب قلبي طبولًا تقرع في أذني، لكنني تقدمت منها غير مكترث لموقعنا في السوق، وهي انتبهت لعيني وتقدمي نحوها، فخبأت ذلك الوجه المسكوب من فضة القمر خلف غشاوة رقيقة، وحجبت تلك العينين اللامباليتين، اللتين وهما في سهوهما أشعلتا معارك قلبي، يا الله! كيف لو أنها لم تكن ساهية؟ وأي ذهب ذاك الذي التمع في تلكما العينين وانسكبت قطراته في روحي؟ أي حليب ذاك الذي مخرته نظرتي العجلى وحفظت تفاصيل تقاسيمه الدقيقة؟ أي أنف ذاك الذي في استقامته شموخ الرايات على القلاع، وفي دقته صنعة أمهر سياف؟ أي وردتين تلكما التي عضت عليهما خجلة عندما انتبهت لنظراتي التي التهمتها باحتشاد شهوة مباغتة؟

كيف تركتها تفلت مني بعد أن ثبتها بنظراتي في مكانها للحظات؟ كيف نجت من خطواتي نحوها بهزات فناجين المقهوي؟

أدركت منذ أول لحظة أنها فخي وشركي وكميني، لكن وفي لحظة جمودها العابرة وهي معلقة عينيها في عيني، ظننتني صرت فخها وشركها وكمينها، لكنها أفلتت، اللعنة، أفلتت، استدركت وأنزلت غشوتها على ذلك الحليب الذي سال في قلبي، وغذت في

خطواتها ومشت، وتركتني وقد اخترق رمح نظرتها قلبي وفتك بي.

استدارت ومشت، فمشيت وراءها في أزقة مطرح، كانت تدرك ملاحقتي لها، فهرولت وأسرعت واختفت.

لكن ما كنت فاعلًا لو أنها وقفت؟ لو أنها استدارت ورفعت ذاك الغشاء الرقيق وواجهتني؟ لو أن صوتها علا أو صرخت فاجتمع الناس علينا؟ لا أملك جوابًا لو أنها سألت: من أنت وماذا تريد مني. هل سأقول أنا قتيلك؟ أم أنا العسكري المخذول الذي عاد بعد سفر طويل فما أطلق رصاصة ولا اخترق سيفه قلب أحد؟

هل سأقول لها: ارفعي الغشوة عن وجهك فأنا بحاجة لأن أستدل على نفسي في مرآة عينيك، يا رب السماوات والأرض أنا العسكري، أنا نظام أحمد رسلان خير الله رسلان، ابن سلالة من الأسود الأذرية، تهزمني عينا امرأة أراها خطفًا في السوق؟ وأنا الذي ظننت أني قد حصنت نفسي وأعليت أسوار قلبي فلا يقدر عليَّ أحد، لا صديق ولا عدو، لا رجل ولا امرأة.

بحثت عنها كثيرًا بعد ذلك، في أزقة مطرح وحواريها، فلم أجد لها أثرًا، حتى جاء ذلك اليوم الذي وجدت نفسي فيه أهرع مع أهل مطرح كلهم إلى الساحل.



دلشاد

قبل الضحى نزلنا من الباخرة إلى مركب صغير لينقلنا إلى الشاطئ، اهتز المركب تحت ثقلنا وثقل ما يحمله الركاب، وتمايل بقوة، حتى خشيت أن يدلقنا كلنا في الماء، ثم يقف هناك ويضحك من بللنا جميعًا، تشبثت بجوانبه بقوة، ولم أفلته حتى وصلنا حد الرمل.

بدأ المسافرون الآخرون بالهبوط الواحد تلو الآخر، أما أنا فتأخرت قليلًا، ثم وما إن لمست نعالي الرمل، حتى غاصت فيه، شعرت بقدمي ثقيلتين لا تريدان الحراك من مكانهما، وكأن الرمل يشدني إلى المكان ويثبتني فيه.

كبوت في مكاني، وبقيت وركبتاي منغرستان في الرمل لحظات، وصرت أتأمل واجهات البيوت ونوافذها، أبحث عن طيف مريم وكأنها ستطل منها في أية لحظة، أو أن خيالها سيعبر من سطح إلى آخر.

ناداني رجل من الذين كانوا معي في القارب، ثم عندما لم أجبه اقترب مني، ولكزني وأشار إلى مبنى الفرضة، فقمت وحملت صندوقي ومشيت خلفه.

في الفرضة سألني العسكري عما أحمله، ففتحت الصندوق، فتشه فلم يجد فيه إلا ثيابي والأقمشة التي جلبتها لمريم، ثم من تحت طيات القماش، برقت أساور مريم الزجاجية الحمراء، امتدت يداه إلى البناجري، أردت أن أوقفه وأن أقول له: لا تلمسها، لكن صوتي ظل حبيسًا. قلَّب البناجري بين كفيه، نظر إلى وجهي بقسوة، خشيت أن تتكسر الأساور بين أصابعه العظمية كالمسامير، لكنه أعادها إلى الصندوق، وأمرني بإغلاقه والتفت إلى المسافرين الآخرين.

خرجت من الفرضة وأنا أحتضن صندوق سفري الخفيف، وذهبت إلى ولجات مباشرة، وجدت بيت لوماه في مكانه، والبوابة التي دخلت منها مريم مفتوحة، دققت الباب مرات ومرات، ثم عندما لم يستجب لي أحد دفعت الباب ودخلت، كان الحوش خاليًا إلا من عجوز ضئيلة ملتفة في ساري أبيض، تجلس على سرير من الحبال، وصحن رز في حضنها تنقيه بأصابع نحيلة من الحصى والشوائب.

تنحنحت علها تنتبه لي، ثم عندما رفعت عينيها إليَّ، سلمت وسألتها إن كان هذا بيت لوماه، سألتها عن مريم وما مويزي، وعبد اللطيف لوماه، سألتها بالأوردو إلا أنها لم تجبني، وكأنها لم تسمع كلمة مما قلت، بل ظلت تنظر إلى وجهي، ثم قامت وتناولت

مكنسة من الخوص كانت ملقية على الأرض، وكنستني بها، حتى أخرجتني إلى الشارع دون كلمة.

مشيت حتى وصلت السوق، وسألت المارة عن دكان لوماه، فلم يدلني عليه أحد، ذهبت إلى المسجد، وعندما انتهيت من صلاتي، انتبهت لرجل عجوز يجلس في زاوية منه، وبين يديه مسبحة من الصندل، يقلب حباتها وعيناه معلقتان بالسقف، اقتربت منه وبعد السلام سألته عن عبد اللطيف لوماه، رفع الرجل إليَّ عينين أكلهما الرمد، ولم يقل شيئًا.

عدت إلى بيت لوماه، لكني وجدت الباب مغلقًا، فجلست عند الباب، أنتظر مرور أيٍّ كان حتى أسأله، لكن جلوسي طال، وبدت لي السكة في منتصف النهار مهجورة إلا من الشمس، ثم أقبل رجل من البانيان، فسألته بالأوردو عن عبد اللطيف لوماه، فقال: مات، أردت أن أستوقفه، وأسأله عن البيت ومريم، لكنه تركني والكلام معلق بفمي ومضى.

خرجت من ولجات، وتركت قدميَّ تأخذاني عبر دروب السوق، لأنفذ عبر الباب الصغير من السور إلى مسقط التي خلفه، مسقط التي تعرفني جيدًا وأعرفها أكثر من أي مكان آخر في الدنيا، لكن هل ما زالت تعرفني حقًّا، أم سقط عليَّ حجاب النسيان؟

مشيت إلى لوغان، في الدرب لاحقتني عيون فضولية، لكن أحدًا لم يستوقفني للسلام أو السؤال، وأنا أيضًا لم أتعرف على أيٍّ من الوجوه التي رأيتها.

عندما وصلت إلى مدخل حارة لوغان، ركض طفل شبه عارٍ تجاهي، ثم وقف أمامي، ينظر إلى وجهي بعينين واسعتين تكادان أن تكونا أكبر من وجهه، ومخاطه الأخضر يكاد يصل إلى شفته العليا، وسرب من الذباب يحوم حوله، ثم صار يبكي، وهو يشير إليّ، ولم أكد أفتح فمي لأهدئه، حتى سمعت صوت امرأة يناديه: عبدوك، عبدوك، مرفقًا بسيل من الشتائم موجهة إليه وإلى أبيه وكل خلق الله.

ابتسمت وأنا أسمع تلكم الكلمات، هذه شتائم حقيقية، تحس معها بأنك تعود إلى حضن أمك، أما شتائم الهنود والإنجليز وحتى تجار السوق العرب في بومبي فلا معنى لها، وحدها الشتائم التي تعرفها في لغتك يمكنها أن تقول شيئًا ما وأن تؤذيك.

وقفت المرأة أمامي، وهمت بجر ولدها من أمام هذا الغريب، سألتها: «تعرفي عيسى؟ عيسى عبد الرسول». هزت رأسها بالإيجاب، ثم حملت طفلها ومشت أمامي، ولم تلتفت إليَّ ولو مرة واحدة، مشت غير عابئة بي وغير مكترثة إن كنت أتبعها أم لا.

في دربنا تكاثرت الوجوه، رجال ونساء، كانوا يتركون ما في أيديهم ويقفون ليتفحصوا المسافر وصندوقه الصغير، ثم التمَّ حولي بعض الأطفال، في البداية تلمسوا الصندوق بأصابعهم الفضولية اللزجة، ثم حاولوا انتزاعه، لكني أحكمت قبضتي على مقبضه، فتراجعوا وهم يرددون شتائم صغيرة خافتة.

سأل الناس المرأة عمن أكون، فلوت شفتيها بإنكار، وهي

تردد عيسى عبد الرسول، فصار الناس يفسحون لها الدرب وأنا أمشي خلفها متسائلًا عمن تكون هذه المرأة التي ما تكاد تقول كلمة حتى يفسحوا لها الدرب، وهي تمضي في دروب لوغان واثقة وغير مكترثة، حتى تجاوزت المكان الذي كانت فيه خيمتنا، وظلت تمشي باتجاه الجبل، مبتعدة عن الوادي الصغير، فمشيت وراءها والناس تمشي معنا، حتى وصلنا إلى تلة صغيرة، صعدتها فصعدت وراءها والناس خلفنا، ثم وقفت وأشارت إلى قبر مغطًّى بخرق خضراء، وقالت: هذا ملا عيسى عبد الرسول.

لم أفهم، قلت لها: أين؟ فأشارت إلى القبر المغطى ثانية، أشرت إليه مستغربًا، هذا؟ قالت: نعم، قلت لها: هذا عيسى عبد الرسول؟ قالت: نعم. اقتربت من القبر، يمكن لعيسى أن يموت بالطبع، أما أن يكون هذا قبره المغطى بالأخضر، وكأنه ضريح، فهذا ما لا يمكن، عيسى ليس ملا، كان رجلًا طيبًا، لكنه لم يكن وليًّا من أولياء الله، وكل لوغان تعرف ذلك.

استدرت وواجهت الناس وسألتهم: «هذا عيسى عبد الرسول ولد ما حليمة؟ أخو حسين ونورية؟» عندها سمعت صوت رجل يخرج من بين الجمع فيقاطعني: «... ودلشاد».

بهت، وبحثت عن الرجل بعيني، فلم أجده، حتى رأيت عجوزًا ضئيلًا محمولًا على لوح خشبي: «وأخو دلشاد».

أعرف الصوت، هذا الصوت المرتجف أعرفه، لكن هذا الرجل شبه الميت لا أعرفه، أذني تعرف شيئًا وعيني تنكره:

«با سنجور... با سنجور».

تقدم الرجل محمولًا على أكتاف أربعة صبية: «نعم دلشاد.. أنا سنجور جمعة».

تلك الليلة قضيناها أمام برستي با سنجور، تعشينا بقايا الغداء، وأخبرني بكل شيء، كل ما حدث منذ أن هربت من مسقط. لم يعاتبني، ولم يسألني إلي أين فررت ولماذا، كان متعبًا، أقعده ألم المفاصل، لكن ذاكرته لم يمسها شيء، ولسانه لم يتلجلج، ولو أن نفسه كان يتقطع كثيرًا، وكأنه يحمل على صدره جبالًا من الكلام.

حدثني عن عيسى وكيف مات شهيدًا، عيسى الذي لم يتزوج ولم يكن له ولد، ألقى بنفسه وراء طفل باغته الماء في وضح النهار وهو يلعب في الوادي فسحبه، دون حساب قفز وراء الطفل، وغاب معه، رآه الناس وهو يصارع الماء المتدافع، فيطفو مرة ويغطس مرة، ثم اختفى ولم يعد إلى الظهور.

يئس الناس منه ومن الطفل، فعادوا إلى خيمهم، يرتِقون ما ثقب الماء، أما أم الطفل فأقامت العزاء وبدأت في النواح، ثم وقبيل المغرب جاء عيسى يحمل الطفل على كتفه، وسلمه ليد أمه، ثم ترك الناس الذين تحلقوا حول خيمتها، ومشى إلى تلك التلة، وسقط هناك ومات، دفنوه في تلك البقعة، وهناك أقامت الأم ثلاثة أيام تأخذ عزاء عيسى بن عبد الرسول، ثم فرشت على قبره شالها الأخضر، فصارت النساء عندما يمرض أولادهن يذهبن إليه ويتبركن به، فيعود الأطفال إلى صحتهم ولعبهم وركضهم في بطن الوادي.

كانت بطانة كلامه عن عيسى لومًا وعتابًا، وإن لم يصرح أو يقل كلمة واضحة، وأنا لم أشعر بشيء أكثر من فراغ هائل يلف رأسي، لم يكلمني عن مريم، لم يشر إليها في الكلام، أردت أن أسأله، لكني خفت، خفت أن أسأله فيدلني على ضريح آخر.

أطلق سنجور جمعة آهة طويلة وهو يحاول فرد ساقيه، فركض نحوه واحد من أحفاده يساعده، قال لي: «هذا ولد ابني نوح، عنده أربعة أولاد، أنا سميتهم كلهم، هذا سميته هارون، والثاني يونس، والثالث يوسف ورابعهم عمران، عمران أبو مريم»، ونظر إلى وجهي. نكست رأسي، ثم سألته كمن يستجدي:

- ومريم يا سنجور؟ مريم؟

- بعدك تتذكر مريم؟ تتذكر بنتك؟ أيش من أب إنته دلشاد؟ أيش من أب؟

- إنته يا سنجور قلت عطيها بيت لوماه، عطيتهم مريم، ورحت أشوفها وما فتحوا الباب، كم مرة رحت، وما حد فتح لي الباب، أيش أسوي؟ هربت، سرت الهند، والتو رجعت ورحت بيت لوماه وما لقيت حد، قالوا عبد اللطيف لوماه مات، بس ما حد قال وين أهله، ولا حد قال شي عن مريم، وين مريم يا سنجور، وين بنتي؟

- ما أعرف، ما حد يعرف وين مريم وبنتها.

لم أجد نفسي إلا وأنا راكب على صدره، ويداي تقبضان على رقبته وأحفاده يحاولون دفعي من عليه.

- مريم من وين جابت بنت؟ من وين؟ إنته كذاب با سنجور، إنته كذاب، مريم ما تسوي كذا، مريم ما تجيب بنت حرام.

نجح هارون ويونس ويوسف، في إزاحتي من على صدر جدهم وتثبيتي على الأرض رغم مقاومتي، أما عمران، فأعاد جده إلى جلسته، وناوله قدح ماء، بينما ما زلت أنا مثبتًا على الأرض، أرفس بقدمي مهتاجًا وأشتم:

- أنتو أولاد حرام، كلكم أولاد حرام، كلكم غبون، مريم بنت دلشاد ما تسوي كذا، مريم بنت دلشاد ما تجيب غبون، مريم ما تسوي كذا.

- دلشاد، إنته مجنون.. مريم تزوجت عبد اللطيف لوماه وولدت له بنت.

- تزوجت عبد اللطيف لوماه؟ كيف؟ ومن زوجها؟

- زوجها عيسى عبد الرسول.. عمها.

صرت أردد بين تصديق وتكذيب، بين حزن وفرح: «مريم تزوجت عبد اللطيف لوماه وجابت بنت». ابتسمت، وسجدت عند قدمي با سنجور النحيلتين أقبلهما، غسلتهما بدموعي وأنا أتوسل إليه:

«با سنجور خبرني، خبرني با سنجور، أيش اسم بنتها؟ ووين؟ وين سارت مريم؟».

فريدة

أجلس عند البحر، فتلتف حولي البنات، وأحيانًا تنضم إلينا بعض النساء اللاتي يأتين إلى البحر لغسل ثيابهن، تجذبهن خيوط الكلام وعيون الصغيرات المعلقة بحركة يدي وتعابير وجهي، يجلسن وسط البنات، ويصغين مثلهن بأفئدة كاملة.

كن يردن سماع حكاياتي، تلك الحكايات التي قصَّتها عليَّ أمي، وما مويزي وعمتي فردوس، حكايات تأتي من جواذر ومكران وإيران وزنجبار، فأعيد قصها عليهن، وفي كل مرة، كنت أزيد على الحكاية نتفًا من حكايات سمعتها من أبي، عن رجل مغامر يسمى السندباد، وعن بلاد ينبت فيها شجر من ذهب، تتدلى من أغصانها الجواهر، وعن رجال ذهبوا في البحر فلاقتهم جنيات، لهن وجوه نساء وأجساد سمك، يغوينهم بالأغاني فيقعون في شباكهن ويغرقون، حكايات عن حيوانات تتكلم، هداهد ونمل وغزلان، وعن لصوص ومصابيح سحرية وجن ومردة، وسجاد يطير فيلف الدنيا في طرفة عين.

كنت أخترع لهن في كل يوم حكاية، وكن يصغين مدهوشات بكامل آذانهن وعيونهن وقلوبهن، ثم يقمن خفيفات، يمشين على الرمل وكأنهن حمامات تخطو على الغيم، حتى حكيت لهن حكاية مجنون ليلى، وقرأت لهن بعضًا من شعره، فتحولت دهشتهن إلى غضب وأسئلة، لماذا لم يزوجوهما؟ لماذا قال فيها الشعر إن كان الشعر في المحبوب محرم؟ لماذا يقبل الجدران؟ ما فائدة ذلك؟ لماذا جن؟ لماذا عاقبوهما؟

أنا نفسي لم أكن قد فكرت في هذه الأسئلة، وفي الحقيقة لم أفكر في الحكاية بعيدًا عن الحكاية، فلم أجد لهن إجابة، لكن امرأة انضمت متأخرة إلى الحلقة ذلك اليوم، قالت: «هذا كله كذب»، ثم قامت.

هل هو كذب فعلًا؟ كل تلك الحكايات التي ورثتها وأحكيها للبنات، هل هي كذب؟ مجرد كذب؟ أم هي أمور دارت في رأس أحدهم فصدقها ثم حكاها وتناقلها الناس مثلي، دون أن يسألوا عن صدقها وكذبها؟ ثم هل أحب قيس ليلى فعلًا؟ وهل كان ابن عمها يرعى الشياه معها في البادية؟ وهل كان حبه من الغزارة والقوة فتدفق وفاض حتى سال شعرًا؟ أم أنها حكاية، مجرد حكاية حدثت في عقل أحدهم، أو ربما عقل قيس نفسه ثم تناقلتها الألسن فتوورثت؟ لكن لماذا عاقبوهما على الحب؟ ولماذا رضيت ليلى بزوج غير قيس؟ ولماذا جن المسكين؟

حملت أسئلتي وأسئلة البنات في رأسي، وعدت إلى البيت

مكدرة بالأسئلة، وجدت البيت ساكنًا بلا صوت، فظننت أن أمي في بيت واحدة من الجارات، لكني فوجئت بها داخل الصفة، تقف أمام المرآة في ضوء السراج الشحيح، تسير بأصابعها على قسمات وجهها.

لم تنتبه لي، حتى اقتربت منها، فظهر وجهي إلى جانب وجهها في الزجاج، بوغتت قليلًا، فاستدارت وواجهتني، وهي تضع كفها على صدرها لتسكن خوفها.

- الله يسامحش فريدة، طفرتي روحي.

- من زمان ما شفتش توقفي قدام المنظرة.

- من راح أبوش ما عاد لي وجه.

- وجهش حلو، واجد حلو، ماه، إنتِ جميلة، وإنتِ تعرفي، وتغطيه بالغشوة عشان ما تسحري الرجال في السوق، كما سحرت ليلى قيس وجننت به.

- من قيس ومن ليلى؟ ومن سحر من؟ ومن جنن من؟

حكيت لأمي حكاية قيس وليلى، تعاطفت أمي معهما، وبان الأسى في وجهها وأنا أحكي لها عن حبه لبنت عمه، وأنه كان يذهب إلى خيامهم متعللًا بطلب النار، حكيت لها عن غضب أبيها لأن حبه سار بين الناس وشاع خبره، ثم عن تزويجها برجل آخر، وحسرة قيس وجنونه.

تعاطفت أمي كثيرًا، وكان وجهها يتلون بتلون أحداث

الحكاية، حتى قلت لها إنه من فرط الشوق والحسرة، كان يجلس في الشمس طوال النهار، ويمشي فيقبل جدران الأطلال، هنا تحول كل تعاطف أمي إلى ضحكة هدرت في بيتنا، فغطت على أذان المغرب الذي تعالى من مسجد المنذري في تلك اللحظة، وبقيت تضحك، حتى امتدت ضحكتها إلي فتمكنت مني، فوجدت نفسي أعانقها وأضحك مثلها، وهي تردد بين شهقاتها، مسكين قيس.. مسكين.

بعد أن انتهى الضحك، ومسحنا وجوهنا من أثره، أجلستني أمي إلى جانبها، وضمتني وحكت لي حكاية هاني وشاه مريد، التي انتهت أيضًا بما يشبه الجنون، سألتها:

- ليش كل قصص العشاق وجع وجنون؟

- ما أعرف.. إللي أعرفه إنه العشق إللي هوه عشق بالصدق، يوجع القلوب ويكسرها ويجنن بالآدمي.

- وإنتِ؟ عشقتي أبوي؟

- عبد اللطيف كان كل الدنيا في عيني، لفاني وحماني وعزني.

- عشقتيه؟

- أنا تزوجت صغيرة واجد، وما كنت أعرف شي عن العشق، لكن ما مويزي تقول إني عشقته وقالت: «حظه عظيم من عشق في حياته مرة.. ومن عشق مرتين حظه أعظم».

قالت أمي عبارتها الأخيرة وهي ساهمة، ثم استدارت صوبي:

- لكن أبوش عشقه كان قوة ما ضعف، كان رجال قوي، والرجال القوي حبه قوة، يعز محبوبه ويغنيه.

- وإنتِ؟

- أنا تمنيت لو روحي فارقتني ولا شفته في رقدته ذيك على الرمل، عبد اللطيف جبل ما ظنيته ينهد، كان الدنيا بكبرها، ويوم راح حسيت إن الدنيا كلها راحت معاه.. لكنهم يقولوا ما يموت حي ورا ميت، وأنا كان لازم أسوي قوة ولو من ضعف، لأني لو ما سويت كذاك ما كنت أقدر أحمي نفسي ولا أحميش، وإنتِ دنيتي كلها بعد عبد اللطيف.

- ليش عمتي فردوس تغيرت وصارت ما تحبش.. ما تحبنا؟

- عمتش ما تغيرت، لكن القوي راح، ويوم يروح القوي يستقوى الضعيف على الضعيف.

- عمتي ضعيفة؟

- عمتش واجد ضعيفة، لكنها مسوية من صوتها ولسانها قوة، تحسب الناس تخافها، لكن ما يخافها إلا جاهل ما شاف من الدنيا شي، أما القوي فينعرف، كلمته ثقيلة وينهر بنظرة عين، كذا كان أبوش، نظرته حد سيف.

- بس بعدني ما عرفت... ليش كل العشاق يجنوا؟

- خلي عنش العشاق والسوالف تو، وهيا نقوم نسوي لنا

لقمة، أنا جوعانة والسمك ببزاره، قومي اقليه وأنا بقوم أخبز ستبوري، يالله تحركي.

شهية رائحة السمك على الطوبج، تتعالى منها رائحة التوابل والبحر، التي تأخذني إلى الساحل والرمل، أقليه وأنا أفكر، لماذا يجن العشاق، ما الذي يحسون به عندما يغيب المعشوق؟ ولماذا تنتهي كل الحكايات بغياب في الصحراء؟ قيس وشاه مريد، كلاهما انتهى إليها.

كيف هي الصحراء؟ هل رملها مثل رمل البحر الذي أمشي وأجلس عليه كل يوم، وأقبض منه أحيانًا قبضات، أنثرها في الريح فتطير، ويعلق بعضها في راحة كفي؟ هل حبات الرمل مصنوعة من خطواتهم عليه؟ أم أنها أجسادهم التي أهلكها الشوق فتحولت إلى رمل خشن؟

ثم كيف هو العشق؟ وأين يشعرون به؟ وكيف هو ألمه؟ أمثل وجع البطن؟ أم كما يقولون هو وجع في القلب؟ وكيف هو القلب؟ لقد رأيت قلب شاة ذبحها حسن في العيد، وقدمه إلى أمي مع الرئة والكلاوي، هل يشبه قلب الإنسان قلب الشاة؟ أم أن قلب الإنسان صنع من شيء آخر، من زجاج ربما، أو من شيء يشبه العشق، عصي وحزين وضائع؟

إلى من أذهب بهذه الأسئلة، أأسأل ماستر علي؟ هل سيجيبني أم سيظنني جننت مثل قيس فيمنع عني الكتب؟ أم أسأل قاسم الذي أعارني كتاب الأغاني وقيده في دفتر وضعه أبوه لذلك؟

قاسم؟ كيف لي أن أسأل ذلك الصامت الذي يبدو وكأنه خلق بغير لسان؟

تنام أمي فأختلي بالسراج وكتاب الأغاني وأقرأ:

ما بال قلبك يا مجنون قد خلعا   في حب من لا ترى في نيله طمعا
الحب والود نيطا بالفؤاد لها   فأصبحا في فؤادي ثابتين معا

وأقرأ:

فواكبدا من حب من لا يحبني   ومن زفرات ما لهن فناء
أريتك إن لم أعطك الحب عن يد   ولم يك عندي إذ أبيت إباء
أتاركتي للموت أنت فميت   وما للنفوس الخائفات بقاء

أغلق كتاب الأغاني، وأنفخ لأطفئ المصباح، أغمض عيني، فتسيل دمعة لا أعرف لها سببًا، هل بإمكان الشعر أن يجعلنا نعشق بلا معشوق، هل يمكن أن نعشق العشق نفسه؟

مريم دلشاد

قبل انسحاب ضوء النهار، لملمت فريدة الثياب من على الحبل، وكومتها على المبخرة داخل الحجرة، وتركت الدخان المطيب بالصمغ واللبان يتغلغل في خيوطها الدقيقة، ويعلق فيها، ثم ودعتني وذهبت إلى البحر.

تبلت سمك العشاء، وأنهيت عجن الخبز وتركته ليرتاح قليلًا، ودخلت غرفتي فتناولت الثياب، وجلست تحت النافذة المطلة على البحر وبدأت ببسطها أمامي. يسقط الضوء خفيفًا على حركة راحتي التي تدربت في بيت لوماه، على تسوية تجعدات الثياب وكيها بالضغط الرقيق عليها، فيخرج نسيج الثياب من بين يدي مفرودًا، وكأنها ثياب لم تلبس ولم تغسل من قبل، فأطويها وأعيد تسويتها في كل طية، ثم عندما أطمئن لاستوائها أودعها بطن المندوس.

فجأة انتبهت إلى أن كفيَّ ما عادا كفي الطفلة التي كنت، وما عاد لهما ذلك الاكتناز، لم يعد الجلد على أصابعي مشدودًا كما كان، ولاحظت تجعدات خفيفة ظهرت عند المفاصل، دققت أكثر،

فانتبهت لوجود عرق أزرق يمتد من عند منابت أصابعي حتى وسط الكف، شعرت بجلد كفي رقيقًا، ذابلًا، فامتد كفي الأيمن يمسح كفي الأيسر ويفرده، ثم إلى وجهي يتحسسه.

قمت واقفة أمام المرآة، أنظر إلى وجهي وأفحصه، أبحث عن الطفلة التي كنتها، الطفلة التي وصلت إلى بيت لوماه خائفة وحزينة.

أجس حمرة خدي، أضغط عليهما براحتي، وأفركهما ليعود الدم إليهما، وأسأل صورتي، هل ما زلت بدر التمام الذي رآه عبد اللطيف؟ أم أن موته أطفأ قلبي، فبان ذلك في وجهي ووضح.

تقول نساء الشجيعية إني جميلة، وإن أعينهن ما رأت مثلي قط، لكن نساء الشجيعية أحببنني وعين المحب عمياء، كاذبة. هذا ما سمعت فردوس تقوله لعبد اللطيف، وهي تجادله في جمالي وحبه عندما وضع فريدة في حضنه ملفوفة في أقمطتها، وضحك وهو ينظر إلى وجهي: «بدر يخلق من بدر».

هل ما زلت جميلة حقًّا؟ ألم يأخذ الزمن والحزن الذي ينخر قلبي منذ وفاة عبد اللطيف حصته من شبابي، ألم تأخذ هذه القوة التي أداري بها ضعفي شيئًا من بريق عيني.

أتأمل أنفي، استقامة حده وضيق منخريه، اتساقه ونهوضه ومكانه في وجهي، هذا الأنف الذي قال أبي إني أخذته من نورجيهان، أمي التي كانت في عينيه نور الدنيا وجمالها، النور الذي انطفأ سريعًا، أسرع حتى من أن تطبع صورتها في عيني وقلبي، فأعرف نفسي فيها.

قال أبي إني أخذت عنها أنفي، واتساع عيني وظلال رموشي الكثيفة، وسيل شعري الهابط حتى أسفل ظهري.

أزحت وقايتي، وفككت ضفيرتي، وهززت رأسي، فتفرق شعري، وانثال وغطى كتفي وكل ظهري، فصرت أفرقه خصلًا، ثم تناولت المشط، فسرت بأسنانه فيه، فالتمع وانجلى لونه أكثر.

رأيت في المرآة عبد اللطيف يقف خلفي مباشرة، يبتسم لي كما ابتسم أول مرة، عندما رآني طفلة مرتجفة، تختبئ وراء فردوس، ودمعها يملأ عينيها ولا يفيض.

كم من الزمن مرَّ يا عبد اللطيف، خمسة عشر؟ ثمانية عشر؟ أم عشرون عامًا؟

كم صار عمري الآن؟ هل بلغت الثلاثين؟ أم أني ما زلت في العشرين؟

كيف أحسب عمري؟ هل أحسب السنوات التي قضيتها في فقر حارة لوغان؟ أم تلك التي في عز بيت لوماه؟ أم في هذا الزمن الذي أعيشه مضطرة إلى مداراة حزني ووجعي حتى عن فريدة، كي لا أثقل عليها فوق حزنها بحزن؟

فريدة صار عمرها الآن خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وتسعة أيام، أعرف عمرها يومًا بيوم، لم يفتني في الحساب منها شيء، لكن كم صار عمري الآن؟ وكم كان عمري عندما تركني أبي ليدي ما مويزي؟ هل كنت بنت إحدى عشرة سنة أم ثلاث عشرة؟

لا أعرف عمري، لكني أعرف أن هذا الوجه ليس وجه الفتاة الذي رأيته منعكسًا في المرايا في زينة ليلة الزفاف، وليس الوجه الذي رأيته منعكسًا في عيني عبد اللطيف وهو يكشف عنه الأغطية الواحد تلو الآخر، ويضع قبلته على جبينه، ذلك كان وجه طفلة خائفة مترددة، وهذا وجه امرأة ما عادت تخاف من الدنيا شيئًا، وأنا أعرف الفرق، ليس في صورتي وحدها بل في قلبي.

امتدت يدي إلى المرود أغمسه في حُقّ الإثمد، وأخط به داخل عيني، أطبقت جفوني عليه، فشعرت ببرودته تقترب من مدمعي وتشع داخل الجفن، فتحت عيني، فرأيتني أقف عند باب بيت آل داوود كاشفة الوجه، مثبتة في تلك العين الوقحة العنيدة، التي لم تطرف للحظة، العين التي أذهلني ذهولها عن نفسي.

لكنهما لم تكونا عيني عبد اللطيف اللتين تفيضان حنانًا وعطفًا ورقة، بل عينين شرستين، التهمتا وجهي، وأشعلت في روحي نيرانًا لم تخمد منذ ذلك اليوم.

من كان ذلك العسكري؟ لماذا كان يراقبني؟ ولماذا تتبع خطواتي حتى خارج السوق؟ ولماذا ركضت؟ لماذا خفت منه وأنا ما ارتكبت جريمة وما انتهكت عرفًا؟ لكن هل خفت منه حقًّا؟ أم أنه أثار في نفسي ما جعلني أخاف مني.

ولماذا كان هو ينظر إليَّ بوقاحة هكذا، بلا حياء ولا خجل يدفعه إلى كسر عينه عني؟ ألم يرَ امرأة كاشفة الوجه من قبل؟ وسوق مطرح لا يخلو من النساء، اللاتي يعملن في كل المهن، ولا يغطين وجوههن.

ولماذا ما زال يأتيني في مناماتي؟ فأراه يركض ورائي في أزقة السوق، ويمد يده لينزع عن وجهي الغشوة، أو يدخل عليَّ الدكان ويغلق الدفَّتين من الداخل، فيحبسني بين طيات الأقمشة وروائحها.

منذ ذلك اليوم، صرت لا أمشي في السوق إلا برفقة حسن لبن، لكنني صرت أنتبه إلى عيني وهما تتوزعان في الوجوه، بحثًا عنه عند مداخل الدكاكين، وعلى النواصي، وفي وجوه الرجال العابرين.

لم أصادفه مرة أخرى، ومع الأيام تحول خوفي إلى سؤال حول من يكون، والسؤال تحول إلى انتظار، فقد كنت أعرف، أعرف أنه سيظهر مرة أخرى، لكنني لم أعرف أين، ولم أعرف كيف، ولم أعرف لماذا يشغلني حضوره من عدمه.

عدت فنظرت إلى وجهي، تقوس حاجبي، كثافة رموشي، الإثمد الذي زاد صفاء البياض خلفه، ونظرت إلى شفتي، وتذكرت أصابع عبد اللطيف تمر عليهما بلطف، ثم تضغط عليهما بقوة، قبل أن يقترب ويأخذهما.

شعرت بعبد اللطيف قريبًا مني، حتى ظننت أني لو استدرت وجدته يقف ورائي.

لكنه لم يكن ورائي، ولم يكن من حولي، وأنا كنت وحدي في هذا العالم، وأعرف ذلك، وأعرف أن اللحظة التي فقدت فيها عبد اللطيف فقدت فيها كل شيء، زوجي وأبي وكل أهلي، وأني صرت أقف في هذه الدنيا عارية وإن كثرت ثيابي، وحيدة وإن كثر معارفي

في مطرح، وصرت أتحرك في السوق والحياة كما لم أتحرك من قبل، فبعد عبد اللطيف لم يعد لي مكان أعود إليه فأستريح، من الذين في الخارج، من القسوة والطمع والكذب، ولم يعد لي رجل يحل بيننا كل ما هو حرام مع غيره، رجل أنا عنده الدنيا وهو عندي طفل وسيد، رجل ينصرني أمام العالم وإن أخطأت، ويعاتبني ويغضب مني، ثم يعود فيقبل عليَّ كأن لم يكن من الأمر شيء.

امتلأت عيناي بالدموع، فأغمضت جفني فسالت، وعندما فتحتهما ثانية وعدت للنظر إلى المرآة، رأيت وجه ذلك العسكري العابس، وعينيه اللتين كعيني ذئب تفترسان روحي، فصددت عن المرآة، والتفت إلى الباب الموارب، ثم عدت إلى وجهي المنعكس على الصفحة الصقيلة، أشعر بشيء في داخلي مثل هشيم الزجاج، شيء مفتت وجارح.

قاسم

اجتمع الكبار أخيرًا، وقرروا أني صرت مهيَّأً للسفر إلى النجف الأشرف، هذا ما قاله لي أبي، وهو منشغل بترتيب أوراقه في صندوق حاجياته: «ستذهب إلى النجف الأشرف، ستزور مراقد الأئمة وستتعلم على أيدي كبار العلماء، وستعود بعلمك لتنفع الناس هنا، الجهل كثير في هذه البلاد يا قاسم، كثير جدًّا، والنفوس الجاهلة ضعيفة».

قبلت يد أبي ورأسه، فهذا الشيء الوحيد الذي منحني الصبر على البقاء في مطرح طوال هذه السنين، انتظار أن يقرروا من الأصلح للسفر إلى النجف الأشرف والعودة بالعلم، في داخلي كنت أعرف أني الأكثر استحقاقًا، ليس لأني مساعد أبي، المعلم الأول والأكثر احترامًا في مطرح فقط، وليس لأني مقيم دائم في المأتم، أقضي أغلب وقتي بعد الدرس في خدمة الملالي والمصلين، بل لأني أحفظ القرآن والشعر، وأحفظ ثلث الأحاديث التي جاءت في كتاب الكافي، ودارس للشروحات التي وضعها العلامة المجلسي،

ومطلع على «التهذيب» و«الاستبصار» و«بحار الأنوار»، كما أني وهذا هو الأهم أجيد اللغة العربية، أكثر من أي شاب آخر في سور اللواتيا، نحوًا وصرفًا وإعرابًا، والعلم يحتاج اللغة، خاصة علوم الدين، وإلا فكيف سنفهم المعاني العلوية وفي لساننا عجمة.

مغمورًا بحالة من الرضا الرباني، عشت ساعات في بهجة عذبة، أتخيل حجي إلى الأضرحة المقدسة، والتمسح بقبور الأئمة الشهداء الميامين، آل البيت المباركين، وأبكي بين أيديهم معتذرًا عن تأخري عليهم.

في صباح اليوم التالي وأنا عائد من المأتم، لمحت فريدة تدخل البيت لتبدأ درسها مع الصغار، في تلك اللحظة بهت في مكاني، وبدأ الشك يخامرني في رضاي وغبطتي، رأيتها وخامرني ذلك الشعور بأنها غيمة تلوح في سماء بعيدة، ثم ما تلبث الريح أن تذروها، ولا أقبض منها على شيء، إلا أثر حلاوة مرورها أمام ناظري.

رأيتها واقفة عند الباب تستأذن بأدب الدخول إلى البيت، كانت منتصبة هناك مثل آهة عظيمة تشق صدري، شعرت بوجيب هائل، وكأن قلبي سيفر من بين أضلعي ليتعلق بطرف ثوبها، ولأول مرة يدخلني شك في ما أريد فعله في هذه الحياة.

طغى خيالها على أفكاري وأحلامي التي عرفتها طوال عمري، ورأيت نفسي فيها، أريد علمًا أكثر ولا شيء غير ذلك، هذا الذي أعرفه، أما الذي لا أعرفه، هو كيف لطيف رقيق لم يمنحني كلمة، أن يوجعني تخيل غيابه بهذا القدر كما يوجعني قلبي الآن.

دخلت البيت أما أنا فلا، بقيت أهيم في سكك السور ودروبه، تتلقفني الساحات، فأخرج من واحدة إلى أخرى، أمر بالناس والناس مشغولون بما بين أيديهم من بيع وشراء، تتعالى أصواتهم، لكن صوت قلبي أعلى من كل صوت غيره.

وصلت إلى البحر، ووقفت هناك تحت أعمدة الشمس الحارقة، أريد دخول البحر علَّني أتخفف من هذا الجديد في قلبي، هذا الذي باغتني باندفاع هائج، فما عادت لي سيطرة عليه، لعلي لو دخلت البحر وأسلمت نفسي لمائه، غسل الملح هذه الخربشات الصغيرة في روحي، قبل أن تتحول إلى جراح تحول بيني وبين ما أريد من هذه الحياة.

تلفت حولي، كان الشاطئ شبه خالٍ، فخلعت ملابسي، وعلقتها على طرف أحد المراكب المستلقية على الرمل، ومشيت في سروالي حتى بلغت حافة الماء، ترددت قليلًا، ثم تركت نفسي للماء يأخذني حيث يشاء، فأنا أعرف أني قادر على هذا الماء، أعرف دروبه وكيف أسيل معه، فيطفو جسدي عليه دون مجاهدة، محمولًا بثقل الملح وخفة قلبي، كنت قادرًا عليه وعلى أمور كثيرة، ولكني الآن عاجز عن قلبي، الذي أثقله السؤال والتردد.

سبحت قليلًا، ثم تركت الماء يجرني إلى الأسفل، وهناك فتحت عيني فأحرقهما الملح، أغمضتهما ثم عدت لفتحهما، وبدأت عيني التعود على كثافة الماء.

رأيت حولي فقاعات صغيرة تتصاعد، وطحالب تمد أذرعتها

الخضراء اللزجة نحوي، وكأنها تريدني أن أشاركها تماوجها ورقصها، وعلى بساط من المحار الصغير المنثور فوق رمل القاع الممتد، رأيت أسماكًا صغيرة تتحرك كالممسوس، في ذهاب سريع وإياب، وكائنات رخوة تخرج عيونها مستطلعة، من بين حجارة القاع وبيوت المرجان.

صعدت إلى السطح، وسبحت لمسافة أبعد، وصرت أقترب من الطرف الصخري لرأس الدوحة، توقفت هناك، وأخذت نفسًا عميقًا وغصت، كان البحر أعمق هنا، رأيت أسماك البياح تظهر ثم تختفي، ثم فاجأني سرب من السردين يسبح نحوي باندفاع، تجنبتها لكني غرت من خفتها، من بساطتها ولا مبالاتها واندفاعها، وأردت أكثر ما أردت في تلك اللحظة، أن أكون سمكة سردين، تدرك خبث الصياد لكنها تندفع لا مبالية نحوه، وكأن موتها أمر مستحق ومفروغ منه، مثل العشق تمامًا.

عدت إلى السطح، وتوجهت بعيني إلى الساحل، كانت بيوت السور مثلما عرفتها دائمًا، مكسوة بثقل سنين طويلة من الصمت الظاهر على جدران سورها، الذي يخفي خلفه بشرًا وحيوات ورغبات وأحلامًا وآلامًا وآمالًا.

«الجهل أشد الضعف» يقول أبي، ينخر الأمم من داخلها كجيش من الرمة، ثم يجعلها تتهاوى عند أبسط لمسة من العدو. «السور لا يحمي أحدًا» كان يقول محاججًا الكبار في المأتم: «العلم وحده يفعل ذلك».

وأنا وسط الماء أرى مطرح، ما زالت تمور بالحركة والنشاط، لكني أعرف بشكل قاطع أني كبرت عليها، وأن عليَّ أن أخرج منها إلى مكان آخر أكبر فيه وأنمو.

هل يمكنني أن أحوز كل ما أريد؟ هل أكون محظوظًا فأحظى بفريدة والعلم في آن واحد؟ فريدة ذات الوجه النوراني والقد الممشوق والشوق الدائم إلى المعرفة، وتلك النظرة الساهمة، آهٍ من تلك النظرة الساهمة، التي تحولها بحرًا من المعاني الغامضة العميقة.

فريدة الشعر والحكايات والقصص، المنغلقة مثل اللغات الغريبة، والغامضة مثل هذه الجبال التي تحيط بمطرح.

هل سيرتاح عقلي عندما أطمئن لوجودها قربي؟ هل ستكون لي عونًا وسندًا في غربتي؟ هل ستقبل بي لو اقتربت منها؟

عدت إلى الشاطئ، وكان أذان الظهر يتردد من مآذن عدة، مشيت على الرمل متخففًا من ثقل قلبي قليلًا، لكني ما لبثت حتى التفت إلى المكان الذي أعرف أنها ستجلس عنده بعد العصر، والفتيات الصغيرات حولها، فتسحرهن بحكاياتها العجيبة.

لم أقدر على النوم تلك الليلة إلا ربما قبيل الفجر بقليل، وفي مساء اليوم التالي، طلب الكبار من أبي أن أحضر للاختبار الأخير في المأتم، فذهبت مترددًا بعض الشيء، كنت أعرف أن ذهني مشتت، وأن قلبي ما إن استيقظ بين أضلعي حتى أخذ أكثر من نصف عقلي.

مع ذلك، فلا بد مما لا بد منه، عليَّ أن أذهب وأخضع لاختبارهم،

أن أجيب عن الأسئلة مستحضرًا كل ما تعلمته طوال سنين، كل حرف نقش في عقلي، كل السوَر والأحاديث، وأن أسترجع كل سير الأئمة الأطهار.

جلست أمامهم وقد تحلَّقوا حولي في شبه هلال، وبدءوا في سؤالي، بدأ السيد علي رضا، ثم السيد مقبول لاتواني، ثم السيد حسين ناجواني، ثم ختم السيد الرضي الهاشمي الأسئلة بسؤال حول شعر الكميت بن زيد، وسألني عن مناظراته ومجادلاته الفلسفية، فأجبته، ثم طلب مني قراءة بعض الشعر، فقرأت عليه أبياتًا من هاشمياته، استحسنها وبقية السادة، وأجازوني بحركة من رؤوسهم، غادرت بعدها المأتم، وتوجهت إلى البحر، وقفت أستعيد وجوههم ووجه أبي، الذي لا يظهر عليه لا سخط ولا رضًا في العادة، لكنه وأنا أحييه في طريقي إلى الباب، رفع إليَّ عينين يملؤهما الدمع.

ما شعرت بالرضا التام، كنت أعرف أن بإمكاني أن أؤدي بشكل أفضل، لكني أيضًا كنت أعرف أن هذا الاختبار الأخير، ليس اختبار علم، لكنه اختبار قدرة، مع ذلك حصلت على الموافقة النهائية، وحدد السفر خلال أسبوعين، مع موعد وصول الباخرة التي سأسافر عليها إلى البصرة.

صرت أتردد على الشاطئ كل يوم بعد العصر، أجلس بعيدًا عن حلقتها وأراقبها، ثم صرت أتجرأ، فأقترب أكثر، وأمشي حتى أرى يديها وهي تحركهما وتلوح بهما، وجذعها الذي يميل إلى الأمام

والخلف، وهي تسرق اهتمام البنات أثناء القص، وفي إحدى المرات لم أقدر على مقاومة رغبتي رؤية وجهها، فاقتربت أكثر وعندما انتبهت لي، تحججت بأني أريد بتول في أمر.

لم أكن أستطيع الاقتراب منها ولا الابتعاد، صمتها الكثيف يتركني معلقًا بحبل من الأماني واليأس، كيف أقترب منها؟ كيف سأوصل إليها هذا الحريق الهائل في قلبي؟ كيف سأخبرها أن عيني مذ وقعت على وجهها قبل خمس سنوات لم ترَ جمالًا إلا فيه؟ وأن أمانيَّ وأحلامي وطموحاتي على عظمتها لن تكتمل إلا لو قبلت بي زوجًا ورافقتني إلى النجف؟

سأكتب إليها، لا بد من ذلك، سأكتب إليها، سأقول لها كل ما في قلبي، وإني أريدها زوجة، فإن قبلت خطبتها وعقدت عليها وأخذتها معي، ولكن ماذا إن رفضت؟ ماذا إن كان انكشاف قلبي بين يديها لا قيمة له؟ ماذا لو أن قلبها معلق بشخص آخر؟ ماذا لو أنها لم ترني أبدًا ولم تبصر حضوري؟ لكن الحب مثل السفر والعلم، مغامرة أيضًا، أليس كذلك؟ ومثلها غير محسوب العواقب.

تلك الليلة وبعد أن نام الجميع، اختليت بنفسي في غرفة الدرس، شممت رائحتها مختلطة برائحة الكتب والحبر، أخرجت أقلامي وأوراقي وكتبت لها، كتبت لها وكأنها جالسة إلى جانبي، تسمع كل كلمة ينطق بها قلبي وكل خلجة في روحي، طويت الرسالة، وفي الصباح طلبت من بتول أن تسلم الرسالة إلى فريدة، وأن تُبقي الأمر سرًّا بيننا.

بتول

ناولني قاسم ورقة مطوية وقال: أعطيها فريدة دون أن يراك أحد. سألته لم لا يفعل ذلك بنفسه، وكعادته لم يجبني، بل أطال النظر إلى وجهي فسكت، ودسست الورقة في ثيابي، ودخلت حجرة الدرس.

بيني وبين قاسم سبع سنوات، تقول ما فاطمة لولاه إن أمها شهربان حسن ساعدت أمي، ووضعت في داخلها كورًا صغيرة من الأعشاب، وإني نبت من بذرة وضعت في تلك الكرات وملأت بطن أمي، لكن فاطمة لولاه تقول أيضًا، إني ما إن قطفت من رحمها حتى تشابكت الأغصان، فتسلقتها أمي إلى الجنة.

تحسست الورقة التي خبأتها في جيب ثوبي، ما الذي كتبه قاسم لفريدة، ولماذا يكتب لها؟ ولماذا لا يناولها الورقة بنفسه؟

قاسم لا يتكلم كثيرًا، حتى معي أنا، وعندما أجلس لأخبره عن لعبي ودميتي التي صنعتها لي فاطمة لولاه، وعن أشيائي، وعراكي مع البنات، لا يتكلم، لا يقول شيئًا بل يبتسم، فقط عندما أسأله عن

أمي، يجلسني بقربه ويصفها لي. هو قد رآها وعرف رائحتها، أما أنا فكل ما أعرفه عنها نتف جمعتها من وصفه لها، وحديث أبي النادر عنها، وما تقوله فاطمة لولاه، فما الذي يريد أن يقوله لفريدة؟

لا يسألني قاسم عن شيء أبدًا، وأحيانًا أشعر أنه لا يراني، كلاهما هو وأبي لا يرياني، مشغولان طوال الوقت بالكتب، كأنهما يعيشان فيها لا في هذا البيت، وحدها فاطمة لولاه تتكلم معي عندما تأتي لتنظيف البيت، ثم جاءت فريدة، فصرت أتقرب منها وأجلس إلى جانبها في الحصص، وكانت هي تبتسم لي طوال الوقت، حتى أنها تقبلني أحيانًا، وعندما تحضنني فريدة أشعر بشيء غريب في قلبي، وأريد أن أبكي، لكني لا أفعل، أخاف إن بكيت كرهتني وهربت مني.

ثم صارت فريدة معلمتي بدل أبي، فعلمتنا أنا والبنات الحروف والأرقام والقرآن، لم تكن عصبية مثل أبي، لكنها كانت تحب أن ننتبه لكل كلمة تقولها، ولا تحب أن تسمعنا نتكلم أو نضحك أثناء الدرس، لكننا نحب فعل ذلك، وفي إحدى المرات عاقبت نجمة درويش، وجعلتها تكتب المعوذات خمس مرات، لكنها عندما تجلس عند البحر، تصير شخصًا آخر، فنذهب كلنا، أقصد أنا وبنات السور والبنات من حارة الشمال، فنتحلق حولها وهي تحكي لنا الحكايات.

وحدها الحكايات التي ترويها فريدة، أثارت فضول قاسم، فكنت عندما أعود إلى البيت أحكي له تلك القصص التي تخبرنا

بها، وأسأله عن معنى بعض الكلام الذي لم أفهمه، والأشعار الغريبة التي تقولها، فقد كانت كلها جدرانًا وقبلًا وصحراء، وكلامًا لم أسمعه من قبل، فكنت أسأله وكان يجيبني وهو يبتسم، ثم يعود فينشغل بالكتب التي يطالعها، ثم صار عندما لا أذهب إليه بالأسئلة والحكايات يأتي إليَّ ويسألني، وكنت أخبره كل شيء، لكنه صار يأتي أحيانًا إلى الشاطئ، ويقترب على حذر، لعله أراد أن يجلس معنا، فيسمع الحكايات من فريدة، ويتأكد أني لم أكذب عليه.

أتحسس الورقة المطوية في جيب الدشداشة، لماذا يكتب قاسم لفريدة، هل أراد أن يسألها عن القصص؟ حاولت أن أحكي له ما تحكيه فريدة لنا كما كانت تفعل، لكن فريدة عندما تتكلم تتحول الكلمات إلى بشر مثلنا، وإلى شجر وأفلاج وبيوت وبساتين وخيول وغزلان وثعابين وجنيات وسحرة وحبات رمان، وضفائر طويلة تتدلى من قمم الجبال فيتسلقها ولد صغير، وعمات قاسيات عابسات، الحمد لله لم يتزوج أبي بعد أمي، لكنه ربما لو تزوج فاطمة لولاه ما كنت أمانع.

فريدة كانت تحكي، وكنا نرى كل شيء، لا أعرف كيف، لكننا كنا نرى، والله العظيم كنا نرى، ربما بقلوبنا أو عقولنا لا أعرف، لكننا كنا نرى.

بقيت أتحسس الورقة المطوية في جيبي، ما الذي كتبه قاسم لفريدة؟ ولماذا لا يعطيها إياها بنفسه؟ لكنني لم أستطع مقاومة

فضولي، فحقًّا، ما الذي يريده قاسم من فريدة؟ ولماذا لا يناولها القرطاس بنفسه؟

قبل أن ينتهي الدرس، استأذنت بحجة أني أريد أن أقضي حاجة، وركضت إلى السطح، وانزويت في ركن منه، وأزلت الخيط الذي ربط به الورقة، وفتحتها وقرأت كلامًا لم أقرأ مثله في مكان أبدًا. كيف لقاسم أن يقول مثل هذا الكلام؟ هل قاسم عاشق مثل قيس وهل فريدة هي ليلى؟

هل ستوافق على كلامه فيتزوجان، أم سترفض فيفترقان؟ وإن افترقا هل سيصاب قاسم بالجنون، ويقبل الجدران؟ وهل ستذهب فريدة مثل ليلى إلى العراق فتمرض هناك ثم تموت؟ يا ربي، بحق الحسن والحسين وبحق فاطمة الزهراء، لا تجعلهما يفترقان.

لا، لن يحدث ذلك، سيتزوجان وتصبح فريدة أختي الكبرى، سأعطي فريدة الرسالة، ثم سأنتظر جوابها، فإن كان إيجابًا بلغت قاسم، وإن رفضت كتمت ذلك عنه حتى لا يجن.

لكن كيف أناول فريدة الرسالة؟ وماذا عساي أقول لها؟ هل ستغضب من الرسالة ومن قاسم ومني لأني أحضرتها لها؟ لا.. لن أسلمها الرسالة، بل سأضعها في حاجياتها وهي ستجدها وستقرؤها، وستظن أن قاسم هو من وضعها، فإن غضبت فلن تعرف أني أنا من أوصل الورقة، فلا ينالني من غضبها شيء، ولن تبتعد عني، وإن فرحت ورضيت بان ذلك على وجهها فأخبرت قاسم.

عدت إلى الدرس، وبقيت هناكِ أراقب إيماءتها، يدها وهي تمتد بخفة لتتناول الأشياء، والأشياء التي كانت كأنها تذهب إليها من تلقاء نفسها، أصابعها النحيلة التي عندما تشير بها إلى واحدة منا تشعر بأنها المحبوبة المقربة ولا آخر سواها في قلب المعلمة. أتعلق بعينيها اللتين تتراوح نظرتهما بين حزم ورقة، فتنهر بلا كلمة وتكافئ بابتسامة، وصوتها وهو يتلو السور القصيرة، يعلو وينخفض فتتحول فيه الكلمات إلى معانٍ دون شرح.

بعد انتهاء الدرس وخروج الفتيات من الحجرة، عرضت مساعدتها في وضع كتبها ودفاترها في حقيبة القماش التي فيها أدواتها فابتسمت لي كعادتها وناولتني حقيبتها، وانشغلت هي بتفتيش مكتبة أبي بحثًا عن كتاب جديد، وضعت الورقة بين القراطيس والأقلام وسلمتها لها، فأخذتها مني وقبلتني بين عينيَّ، وغادرت بابتسامة صغيرة على شفتيها، وعندما ستختلي بنفسها في البيت ستجدها بين أغراضها، وستقرأ كلام قاسم الجميل، وستفرح وسيتزوجان، وسينجبان الكثير الكثير من الأطفال.

بعد الدرس مباشرة، وجدت قاسم ينتظرني في ليوان البيت، وسألني إن كنت سلمت فريدة الرسالة، فهززت رأسي بصمت وبابتسامة متواطئة، لكن الأيام مرت، وأنا لم ألحظ تغيرًا على فريدة، في البداية أيضًا لم ألحظ على قاسم أي تغير، لكن مع اقتراب موعد سفره صار أكثر شرودًا، وصار يكرر سؤاله لي أكثر من مرة في اليوم، هل أعطيتِ فريدة الرسالة؟ وكنت أقول: نعم، نعم صغيرة، صارت تتضاءل كل يوم أكثر.

مع اقتراب موعد سفره، صار قاسم يكرر سؤاله بإلحاح، وعندما لم يتبقَّ على سفره إلا يومان، شعرت بأني ربما أخطأت، ربما كان عليَّ أن أسلمها لها باليد، ربما لم ترها، ربما وقعت من الحقيبة دون أن تراها، كان عليَّ أن أسلمها لها باليد، لأنها لو قرأت الرسالة كانت ربما ستغضب وعندما ستغضب سيظهر ذلك عليها، ولو أنها وافقت، أنا متأكدة من ذلك، ستكتب له رسالة وستعطيني إياها أو تناولها إياه، لا أعرف، ما أعرفه أن عليَّ أن أخبرها بنفسي، سأقول لها إن عليها أن تفتش حقيبتها، سأقول لها إن قاسم يحبها مثل قيس، وإنه أرسل إليها رسالة، وإن عليها أن تجاوبه.

بعد أن نفضتْ ثوبها من الرمل وتفرقت البنات، اقتربتُ منها، وحاولت أن أخبرها، خرج الكلام من فمي سيلًا من التأتآت والبأبآت، لم يخرج من فمي بعد جهد إلا «رسالة.. حقيبة.. قاسم». ثم جريت، جريت بكل سرعتي، وعدت إلى البيت وأنا ألهث، دخلت إلى غرفتي، أغلقت الباب على نفسي وبكيت.



فريدة

لم أفهم من بتول شيئًا، ظلت تردد رسالة... قاسم.. رسالة.. قاسم... حقيبة... رسالة، ثم تبتلع دموعها وتشهق. مددت يدي كي آخذها في حضني، لعلها تهدأ فأفهم منها، لكنها ركضت مبتعدة عني.

أعود إلى البيت وأنا أفكر فيها، ما الذي أرادت أن تقوله؟ وما علاقة قاسم بالأمر؟ وما الذي في حقيبتي؟

البيت هادئ، يبدو أن أمي عند إحدى جاراتها، أدخل الحجرة، أتوجه إلى الوتد المغروس في الجدار، حيث أعلق حقيبتي، فأنزلها وأقلبها على البساط، يتساقط منها كتاب استعرته من مكتبة الماستر ولم أقرأه بعد، قصبة الكتابة وبعض القراطيس، أنفضها فلا يخرج منها أي شيء آخر، أفتش بطن الحقيبة بأصابعي، أجد ورقة مطوية علقت في زاوية بين الخيوط، أنتزعها بلطف حتى لا تتمزق.

كانت ورقة من الأوراق التي نكتب عليها في مدرسة ماستر

علي، ملفوف عليها خيط من القنب، تتلمس أصابعي الخيط الخشن، تثير خشونته توجسي، ربما تقلقني المبالغة في الاحتراز، ما المكتوب في هذه الرسالة؟ ولماذا تستدعي كل هذا الاحتراز والسرية؟ هل هي من قاسم كما حاولت بتول أن تقول؟ ما الذي يريده قاسم الصموت مني؟

ترتعش يداي، لماذا أنا خائفة؟

أسمع صوت الباب يفتح، وصوت خطوات أمي تأتي من الحوش، أتجمد في مكاني، كمن كان على وشك ارتكاب جرم، أي جرم كنت سأرتكب؟

تقترب الخطوات من باب الحجرة، وصوت أمي يناديني، أريد أن أجيبها، لكن صوتي يحتبس في بطني، أدس الورقة في جيب قميصي، أقوم وأكاد أن أخرج إليها، أتردد قليلًا، ثم أسمع صوت الباب يفتح، ثم صوت حسن لبن، أسمعهما يتكلمان، تعجز أذناي عن فك اشتباك الأصوات.

صوت أمي يناديني، أخرج إليها، ألقي التحية عليهما، أمي بسطت لحسن، ووضعت أمامه التمر والقهوة.

أستأذنها بحركة من رأسي، وأصعد السلم إلى السطح، أقف عند حاجز السطح، البحر أمامي يتدافع موجه، والقوارب تتمايل على وجهه، والشمس بدأت في الغياب، تمتد يدي لتخرج الرسالة، أفضها على عجل، فينسكب خط جميل، خط قاسم المرصوص كما في الكتب التي أستعيرها من مكتبة أبيه.

أقرأ وأقرأ، ثم أعيد القراءة، أسمع صوت قلبي في أذني، ويجف ريقي، شفتي تتمتم بالكلام المكتوب.

أطوي الورقة بين يدي، ثم أعود إلى قراءتها، يا لهذا الكلام الجميل، كيف كتبه؟

من أين يأتي بهذا الكلام؟ من أية بئر يستقي؟ هل هو لي فعلًا؟ أم أن بتول فقدت اتجاهاتها؟ كيف يكتب لي هذا الكتاب الذي لا يكتبه إلا عاشق لمعشوق؟

إن كان قاسم عاشقًا، فهل أنا المعشوقة؟

شعرت بوجع حاد في قلبي عندما خطرت الفكرة برأسي، لكن بالطبع هذه الرسالة لي، هو يكتب اسمي، يقول: فريدة، ثم تنهمر العذوبة، أحس به كما كنت أحس بشعر قيس وأنا أقرؤه وأعيد قراءته ولا أشبع.

أعيد القراءة، كيف لقاسم أن يقول هذا الكلام؟ كيف لذلك الشاب الصموت، صارم النظرات، الذي يبدو وكأنه لا يعيش في هذه الدنيا التي نحن فيها أن يقول هذا الكلام وأن يكتبه لي؟ ولماذا أنا؟

لا أعرف ما الذي أشعر به، الخجل أم الفرح أم الحزن أم الغضب، يبدو الأمر غير مفهوم عندي، قاسم يقول هذا الكلام لي، إنه يفكر في؟ إني آتيه في مناماته؟ إني أشغل عقله وقلبه؟ إني اكتمال أمانيه؟ إنه مسافر إلى النجف؟ وإنه يريدني زوجة ومعينًا له؟ وإن موافقتي هي غاية طموحه؟

أعيد قراءة الرسالة مرات ومرات، هذه رسالة موجهة إليَّ.. وقاسم يحاول أن يقول فيها إنه.. إنه ماذا؟

إنه يحبني؟

كما المجنون؟

كما خسرو؟ كما شاه مريد؟

وأنا ماذا؟ ليلى أم شيرين أم هاني...

يقول إنه لن يكتفي بصمتي علامة، يريدني أن أكتب له موافقتي من عدمه وأن أرسل الرسالة مع بتول، أكتب له؟ أقول له ماذا؟ إني أوافق على الزواج به؟ ثم أعطي بتول الرسالة لتوصلها إليه؟

أسمع صوت خطوات أمي تصعد الدرج، أطوي الرسالة وأدسها في جيب قميصي على عجل، أقبض على حاجز السطح، متشبثة به بكل قوتي وكأني أخشى السقوط.

تقترب أمي مني، أسمعها تقول شيئًا ما عن حسن لبن، لكني لا ألتفت إليها.

أبقى متشبثة بالحاجز، والبحر أمامي يكاد يظلم، تهب رائحة السردين المجفف من الساحل في موجات تثير غثياني، تقف أمي إلى جانبي، تسألني عمَّا بي، ألتفت إليها، الدموع تملأ عيني، أكاد أن أخرج الرسالة وأناولها إياها، إلا أن موجة ضحك هائلة تنفجر من بطني، فأسقط عند الحاجز، أمتخض في موجات عنيفة، ثم تسقط أمي أيضًا في عدوى الضحك، نضحك ونضحك، دون أن تعرف

أيٌّ منا سببًا للضحك، حتى يؤذن المغرب، فننتبه من ضحكنا ذاك، ونلملم أنفسنا بلا حاجة إلى الكلام، ونهبط من على السطح، هي خفيفة كعادتها، وأنا أحاول حمل ثقل قلبي بكل ما تبقى لديَّ من قوة.

تكرر أمي سؤالها عمّا بي، ولماذا أنا ساهمة؟ تسألني إن كنت أشعر بالتعب أو الحمى، تمد يدها لتتلمس جبيني، فتمسح قطرات العرق عنه، أسمعها تقول شيئًا عن الصيف والشتاء، لكني معزولة عنها بحجاب من قوة المكتوب في تلك الورقة.

تزوجيني يقول قاسم، نسافر إلى النجف، نتعلم، يقول نتعلم، تكونين سندي وعوني، ننجب أطفالًا نجباء.

أسمع همهمات أمي ولا أفهمها، اكتبي إليَّ، يقول قاسم، أرسلي ردك مع...

جسدي يتخلى عن جوعه، نرفع العشاء الذي لم أمسه، تسألني أمي عن شيء، أسمعها وأجيبها ولا أتذكر بما أجبت.

تربط أمي عقدة ياسمين أسفل ضفيرتي كما تفعل كل مساء، ونذهب للنوم.

«منذ وقعت عيني عليك أول مرة منذ خمس سنين، صرتِ في قلبي، رعيتك في الصمت حتى لا أفسد على نفسي متعة رؤيتك تكبرين، وتتفتح بتلات ياسمينك».

أغمض عيني، فأرى كف أبي ينفتح، فتتساقط الياسمينات منه،

وأرى أمي تضمني تحت عباءتها، والرجال يحملون جثته، ويذهبون بها إلى المأتم ثم إلى المقبرة.

أرى بقايا الباخرة المحترقة، أعمدة الدخان الأسود، الأقدام المتسارعة تدوس على القار الذائب، أسمع شتائم عمتي فردوس ولا أفهمها، بنت فقر، ساقطة.

ناصر يقول: ستكتبين لي، قاسم يريد مني ردًّا.. وعينا أمي تذكراني بالقسم، أسمعها... الفتيات لا يكتبن، تقول عمتي، تعليم الفتيات الكتابة إيذان بفضيحة، أمي تحلفني بالله ورسوله أن لا أخط حرفًا لرجل.

أغمض عيني بقوة أكثر علَّ النوم يأتي فأنجو من غلظة هذه اللحظة، لكن دماغي يحتشد بصرير آلاف الأقلام التي تذهب وتجيء على صفحة عقلي، ولا تكتب شيئًا.

أتقلب، أريد أن أوقظها وأخبرها عن الرسالة.. لكن كيف ستفهم أمي ذلك..

هل سأتركها وحدها في مطرح؟ وأسافر إلى النجف أتبع قاسم.. هناك الحوزة وآلاف من الكتب والمكتبات والعلماء والمدارس يقول.. كيف ستفهم أمي ذلك؟ كيف ستفهم أني أتبع عقلي لا قلبي.. هل سأقول لها: «إني أتركها لأجل العلم لا قاسم؟..»، لكن هل سيفهم قاسم ذلك أيضًا؟ أني لو وافقت فأنا أريد العلم.. العلم فقط.

لكن هل هذا صحيح؟

ألم يلفت انتباهي منذ أن رأيته أول مرة وفاطمة لولاه تكلمه عند باب بيتهم؟ ألم تثِر وقفته الصامتة فضولي الدائم؟ أوَ ليس أول الحب الفضول؟ ألم أكن أنتبه لكل حركة يأتي بها؟ ألم أحفظ تقاسيم وجهه؟ أوَ ليس ثاني الحب إطالة النظر؟

ألم يراودني مرات ومرات في مناماتي، فكنت أقوم في الصباح غاضبة مشوشة؟ أليس ثالث علامات الحب الانشغال بالمحبوب؟

ألم تكن جلسته أمامي يعدُّ لي القصبة، أشبه بصلاة قصيرة قمنا بها بصمت السر وقلقه.

ألم يخفق قلبي بشدة عندما رأيته يقترب من حلقة البحر، ثم يقف هناك معتذرًا ويطلب من بتول مرافقته، وكأنه قصدها هي لا أنا؟ ألم أكن أعرف أني مقصده وأتواطأ معه بغض الطرف؟

ألم أكتب له في عقلي عشرات بل مئات الرسائل التي لم يسل بها مداد قط؟

هل سأقول أريد علمًا أكثر؟ أم أني أريد أن أكون معه؟ هناك في النجف أو هنا في مطرح أو في أي مكان، أن أقترب منه، أن أسمع صوته ينطق باسمي كما كتبه على الورقة، أن يقرأ الشعر، أن يقرأه لي.. لي وحدي.

أتقلب فأواجه ظهر أمي، أسمع صوت تنفسها الخفيف يسبح في هواء الغرفة، كيف لي أن أتركها وحدها؟ هنا في حارة الشمال وأذهب أنا إلى تلك البلاد البعيدة؟

لكن لعل ذلك خير لها؟ لعلها تتخفف من عبئي وترتاح قليلًا؟ لكن من لها غيري؟

هل يمكن أن تتزوج أمي ثانية بعد أبي؟ أن تجد رجلًا آخر؟ أن يصيبها الحظ مرتين فتعشق مرتين؟

وأنا.. هل كتب عليَّ أن أقرأ قصص الحب وأسمع حكاية أمي وأبي مرارًا، دون أن أجربه؟

وهل سأعيش طول عمري في ظل أمي.. والفتيات اللاتي في مثل سني قد تزوجن وأعلْنَ؟

حتى أمي صارت تلمح لذلك، عندما تأتيها أخبار جلوة إحدى البنات أو نُدعى إلى عرس، تقول: «يوم كنت في عمرش كنتِ بنت ثلاث سنين، كنتِ مالية حضني..»، ثم تصمت وأنا لا أبدي من الفهم شيئًا، أخاف أن أظهر انتباهي فأجرحها.

لكن كيف أجرحها بذلك؟ ولماذا أدعي أمامها أني أتبع عقلي لا قلبي، ألم تجرب أمي العشق من قبل؟ أمي ستفهم، ستفهم ذلك.. لكن كيف سأتركها وحدها في حارة الشمال؟ ستكون معها فاطمة لولاه وحسن لبن وتجارتها والبلاد كلها.

أتقلب، أتخذ قرارًا، ثم أتراجع في لحظة، ثم أعود إليه، ثم أعود فأتراجع مرة أخرى.

أخبرها برسالة قاسم؟ أستأذنها بالرد عليه؟ أم أكتب له دون علمها؟ وأترك له الباقي.. سأكتب له كلمة واحد فقط، لن أطيل،

سأكتب: «نعم»، نعم فقط، نعم، لا غير، هكذا سيكون مجرد رد، لا كتاب؟

أليس كذلك؟

لكن الرد كتابة أيضًا.. النعم كتابة.. وأي كتابة!

يسري بي الليل وأنا أحادث قاسم بصوت لا يسمعه أحد سواي، وأحادث أمي النائمة إلى جواري، أستأذنها، وأستسمحها، وأعتذر منها على ما سأقدم عليه، قبل حتى أن أقدم عليه.

«سامحيني يا أمي.. سأذهب.. لا بد أن أذهب».

أسمع صوت يقظة البحر عند أول خيوط الشمس، صوت الأذان يتردد، صوت خطوات تدب في الأزقة، تتقلب أمي، تستيقظ كعادتها على صوت الأذان، تلمسني وبخفة تلكزني كي أستيقظ، أتشبث بأرقي، لكن يدها تمتد إلى جبهتي تجسها، تظنني مريضة، أقول لها إني بخير، وأقوم.

يبدأ اليوم، أنظف البيت، وأغمس الخبز في كأس الحليب الساخن، أتناول تمراتي وأشرب فنجان قهوتي، ألبس عباءتي وأذهب إلى بيت الماستر علي، ألتقي بعيني بتول، هل تعرف بتول بما في الرسالة؟

لن أخلف بوعدي لأمي، لن أنكث بيميني، لن أكتب له، لكني سأقولها له، سأقولها هامسة، ستعلق الكلمة بين شفتي، لكنه سيفهم من عيني وهزة رأسي أني أقول: نعم، نعم كاملة، سأقول له:

سأرافقك إلى تلك البلاد، سأتزوجك وأذهب معك، أنتظره بعد الحصة وتفرق الفتيات، لكنه لا يأتي إلى غرفة الصف ولا أصادفه في أي مكان في البيت.

أعود إلى البيت، أدخل الحجرة أبدل ثيابي، لكني أشعر بالتعب، وكأن أرق الليل حط بثقله دفعة واحدة على جسدي، أجلس لأرتاح، أغمض عيني فأراه، أسمعني أردد اسمه فأجفل، أشعر بيد أمي تلبسني الحرز، منذ متى وأنا نائمة؟

أفتح عيني قليلًا، فأجد سلاسل حرز أمي تحيط برقبتي، وصندوق الحرز ينام على صدري، وأمي تضع يدها عليه، وتتمتم بكلام لم أسمعه.

يد فاطمة لولاه تجس جبيني، وأمي تسقيني شيئًا ما، أشعر بمرارته فأبصقه.

فاطمة تقول لأمي إني محمومة، وتسألها هل أصبت بالحصبة من قبل، أسمع صوت أمي ويغيب عني ما تقوله، أحاول أن أقول لهما إني بخير، لكن صوتي لا يخرج.

أغمض عيني، فأرى بتول تركض مبتعدة والرسالة في يدها، وأرى قاسم، قاسم يقف عند السيف، ظهره لي وأنا أركض صوبه ولا أصل.

أقول لأمي في الحلم: سامحيني، أسمع صوت أمي، أرى وجه أبي وناصر، وحبات اللدو والكبيراه تسقط من يدي، أرى خلخالي

وعساكر تشدني بيدي وحبات المانجو، أرى عمتي فردوس، وجهها الطيب تنبت فيه الدمامل.

أرى حسن لبن ساقطًا في المرجل، وأمي تضحك، وناصر يكلم صاحب المركب، هذه أمي يقول، وهذه أختي، فتبتلعه ظلمة الليل.

أرى أبي، وجهه النائم على الرمل، وعساكر تسحبني، فأدس وجهي في وقايتها.

صوت فاطمة لولاه: «أحسن نشلها الدختر»، أسمع صوت بكاء أمي وفاطمة لولاه تنهرها... أنا أركض صوب السيف.. أركض ولا أصل... قاسم يدخل البحر.. يمشي على الماء... أدخل الماء، أحاول أن أمشي وراءه، لكن الماء يسحبني إلى الأسفل.

أسمع أصواتًا كثيرة، صوت أمي وأبي وعمتي، ما مويزي وعساكر وفرشوه، فاطمة لولاه وحسن لبن، وصوت ماستر علي يمتحن حفظي لسورة مريم، وصوت قاسم يقول: «انتظرتك خمس سنوات»، عيناي تبحثان عنه، لكني لا أراه.. أنا في داخل الماء أبحث عنه ولا أراه... أصرخ: يا قاسم، وأسمع صوتي يرتد إليَّ ولا أعرفه.

يجرني الماء أكثر فأكثر، أحاول أن أخرج إلى السطح، لكني مقيدة بثقل عظيم يسحبني.

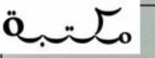
أسمع صوت أمي.. أشعر ببرودة تلمس جبيني.. الماء يسيل على صدغي، يدخل في أذني، أسمع البحر يناديني: تعالي.. أعود إلى

غرقي... يصيح رجل ما.. الغريقة.. الغريقة.. الرمل بارد تحتي..
أشعر بذلك.. ثم يغيب كل شيء.

مسقط في: أكتوبر ٢٠٢٠

تم كتاب «الجوع»، يليه كتاب «الشبع» بإذن الله!





في زمن سيطر عليه الفقر والمرض ، ترك دلشاد ابنته الوحيدة لمصيرها، وكان عليها أن تجد طريقها في عالم من الأطماع تحكمه ذاكرة الجوع.

رواية تشعرك بوخز الجوع في كلماتها، تتحسس جسدك الذي بدأ يضمر وينهلّ بحثا عن لقمة هنا ولقمة هناك، عن الغياب الذي يأخذ شخوص الرواية نحو الموت أحيانا أو نحو حياة أخرى وتجربة جوع آخر.

أكاد أرى وجه دلشاد الضاحك من الألم والفقد والجوع والضياع، أكاد أبحث معه عما يسكت فيه ذلك الفم الجائع.

هذه الرواية، الحياة، هذه اللعبة الخطيرة ما إن تبدأ حتى يجرفك سيل مآسيها لتبكي وتضحك وتشم روائح الموت والفقر، ثم تترك التيار يأخذك إلى دروب يرسمها القدر لشخصياتها.

الناشر

بشرى خلفان

دِلْشَاد

سيرة الجوع والشبع







www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com